القائمة الطويلة لجائزة "مهرغان"

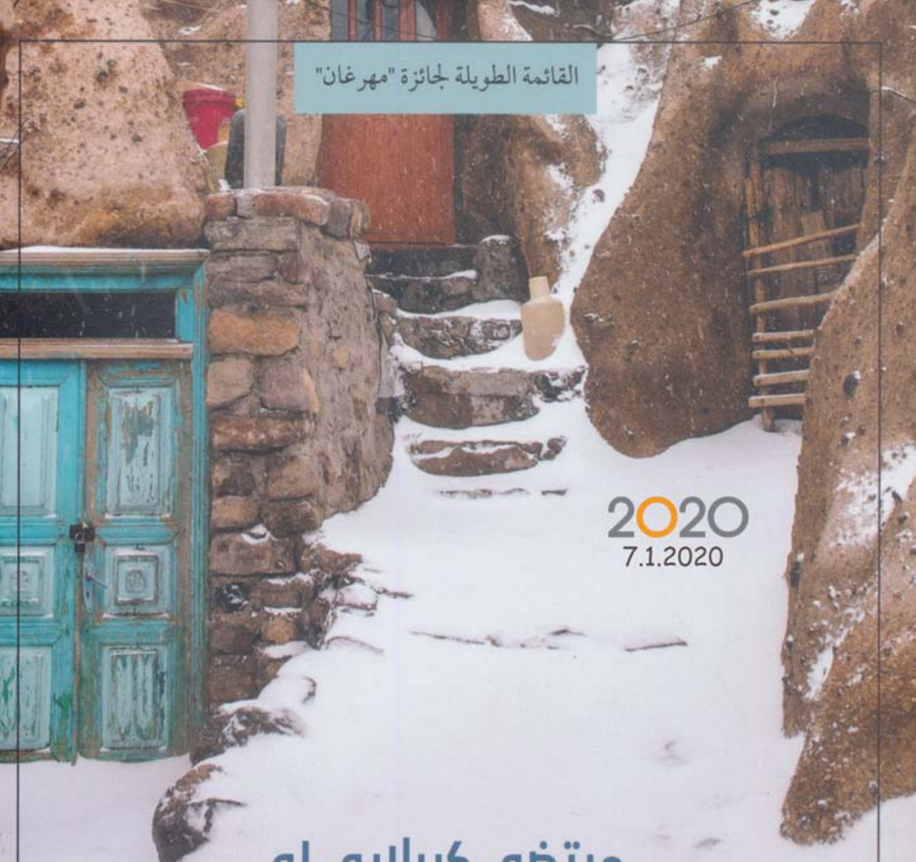

2020
7.1.2020

مرتضى كربلايي لو

جهة العربة

ترجمة: أحمد حيدري

تحرير: كريم راهي

منشورات تكوين
TAKWEEN PUBLISHING
مرايا

مرتضى كربلايي لو

جهة العربة

رواية

ترجمة

أحمد حيدري

تحرير

كريم راهي

منشورات تكوين
TAKWEEN PUBLISHING
مرايا

جهة العربة

الكاتب: مرتضى كربلايي لو

عنوان الكتاب: جهة العربة

ترجمة: أحمد حيدري

تحرير: كريم راهي

تصميم الغلاف: الشاعر محمد النبهان

تنضيد داخلي: سعيد البقاعي

ر.د.م.ك: 978-9921-723-17-5

الطبعة الأولى - سبتمبر / أيلول - 2019

2000 نسخة

جميع الحقوق محفوظة للناشر ©

منشورات تكوين TAKWEEN PUBLISHING

الكويت - الشويخ الصناعية الجديدة

تلفون: 40 04 81 98 965 +

بغداد - شارع المتنبي، بناية الكاهجي

تلفون: 60 58 00 11 78 964 +

publishing@takweenkw.com takweenkw

www.takweenkw.com @takweenKw

لبنان - بيروت / الحمرا

تلفون: 683 345 1 961+ / 980 541 1 961+

بغداد - العراق/ شارع المتنبي، عمارة الكاهجي

تلفون: 07810001005 / 07830070045

daralrafidain@yahoo.com Dar alrafidain

info@daralrafidain.com Dar.alrafidain

www.daralrafidain.com @Dar alrafidain

مقدمة

في الترجمة، أنتَ لستَ وحيداً

لم أقف يوماً عند المقدمات التي تسبق نصوص الروايات. أجدها زائدة وقاتلة للمتعة التي تخفيها تلك النصوص، والأهم من كل ذلك، الاكتشاف. فأنت وحدك من سيكتشف الأماكن المغلقة في النصّ كرحّالة ومستكشف في آن، كما أن منصة الرواية لا تتحمل غيرها. أستثني من ذلك مقدمة جبرا إبراهيم جبرا، التي عدتُ لقراءتها بعد الانتهاء من قراءة ترجمته لرواية (الصخب والعنف) لفوكنر، فقد كنتُ أبحث فيها عن أسباب عدم فهمي للنصّ بعد قراءتي الأولى.

كانت (جهة العربة) على رفّ منعزل، رواية ضمن الروايات المتروكة بعيداً عن الأضواء. قال لي صديق ناصحاً إيّاي: «القِ نظرة عليها». فكانت كلمة الغلاف الخلفي كافية لأن أتّخذ قرار الترجمة. تروّج مواقع بيع الكتب على الإنترنيت لهذه الرواية بالاقتضاب التالي:

«جهة العربة- رواية- مجنونة ومديح للأدب الروائي الروسي في القرن التاسع عشر، ولأنّ الثقافة الوسطى، بقدر ما هي شرقيّة، هي غربية في نفس الوقت، فإنها تكون لصيقة بها. العربة هي صندوق مسجون في أجواء مدينة روسية. تجري الأحداث في مدينة تبريز الراهنة، بحكم أنها كانت بوابة روسيا وأوروبا على إيران حينها».

تبادر لذهني السؤال التالي: كيف يمكن لكاتب إيراني أن يحاور الأدب الروسي عبر رواية؟ أليس هذا ما حاول الكثير من الكتاب فعله تلميحاً أو تصريحاً؟

كانت قراءة الرواية مريحة جداً. تسير الأحداث وفقاً لما أراد لها الكاتب، حتى التعقيدات فيها كانت مفهومة. هنالك غموض في بعض المواضع منها، لكنها تبقى في النهاية مفهومة. مع الانتهاء من قراءة النصّ قررتُ ارتكاب خطيئة ترجمتها. بيد أنّ هناك مجسّات يترتب عليها حسم القرار. بعثت بها لصديقين وصديقة، قرّاء محترفين للرواية الفارسية وممن أعتمد على رأيهم فيها. وقد أجمعوا على جهلهم باسم الكاتب ضمن الصفّ الأوّل من الروائيين الإيرانيين المعاصرين، بمثلما أجمعوا على قوة الرواية. تجمعت إذن كل الخيوط، وباتت حياكة الترجمة محتّمة.

مع وصولي في الترجمة إلى الفصل الثالث، ازدادت ضبابية النص، لم تعد تلك السلاسة ملموسة، ولم تعد الكثير من الجمل مفهومة. في الكثير من أوقات الظهيرة أو في مساءات متأخرة، كنت أستنجد

بمن أعرف عنه من الأصدقاء تبحره في اللغة الفارسية، لأسأله عن معنى هذه الجملة العصيّة أو تلك. وكنت أحصل على إجابتي إمّا فوراً، أو بالانتقال إلى مرحلة ثانية، تصوير النص وإرساله. حتى وصل بي الأمر وبهم إلى الاستسلام أمام فهمه بالكامل. وكان على رأسهم، ليس في ترجمة هذه الرواية فقط، الصديق القاص والمترجم عن العربية كريم بور زبيد، الذي لن أتخلص من فضله وسعة صدره وهو يتلقى أسئلتي، وهو حين يداخله أحياناً بعض الشكّ، يطلب مني الانتظار لكي أحصل على غايتي. كنا نتشاجر خلال الهاتف على مفردة هو يراها بمعنى، وأراها أنا في طرف آخر من المعنى. الأمر الذي جرني إلى البحث عن سيرة مفصلة في حياة الكاتب، لحلّ تلك التعقيدات.

ولد الكاتب مرتضى كربلايي لو في مدينة تبريز العام ١٩٧٧. وهذا يعني أنه من أصول تركية. استنجدتُ بأصدقاء من نفس الأصول لفكّ شيفرة النصّ. وإذا بهم يخبرونني أنه كتب تلك الفقرات غير المفهومة، وفقاً لحديثنا المحكيّ اليومي، وعليه فإن بنية الجملة هي أقرب للتركية المحكية.

ثم كانت مواجهة فهم تعقيد الفكرة على عدّة مستويات؛ أفكار تتعلق بالحوزة العلمية وأخرى بالفلسفة الإسلامية وتكسير متعمد يتباهى بتمرده على الأنماط المعتمدة. وهي أقرب للحركة التي ظهرت في فرنسا منتصف خمسينيات القرن الماضي (الرواية المضادة).

عدتُ إلى المصادر التي استقى منها كربلايي لو، فظهر لي أنه

درس في الحوزة العلمية لفترة، وأنه كان يدرس أثناء كتابة هذه الرواية لنيل درجة الدكتوراه في الحكمة المتعالية، أي فلسفة الملا صدرا (هناك إشارة إليه في متن الرواية).

بعد الانتهاء من الترجمة ومن كل تلك الأسئلة التي رافقتها، عدنا لمراجعة الكتاب وتطبيق نصّه المترجم للعربيّة مع النصّ الفارسي. وقد أتعبتُ صديقي المترجم والصحفي محمد حزبائي زاده، في جلسات المراجعة الطويلة التي سببت له صداعاً لم تكسره فناجين القهوة ولا أكواب الشاي الأسود في تلك الجلسات. حين كان يطلب مقاطعاً أثناء المراجعة المرهقة: «ألا أستحق بعد هذا العناء فنجان قهوة واستراحة خفيفة؟».

ومع الصديق الشاعر والكاتب العراقي كريم راهي، وصلنا إلى مراجعة النصّ الأخير لترجمة الرواية، وهي لذة صراع مع تلك المراجعة الشاقّة. وهو، والحقّ يقال، لم يترك جهداً إلا بذله ليخرج النصّ منساقاً للعربية بإحكام قل نظيره. وسوف يجد القارئ حجم حساسيته على النصّ وكم تملّصاته الاحترافية من المآزق اللغوية والمطبات الأدبية التي حفل بها النص العربي.

لكلّ أولئك، ولمن أخذ على عاتقه تقديم الرواية في شكلها هذا، شكر وامتنان لا يدنو من محباتهم.

أحمد حيدري - المترجم

الأهواز ٢٠١٩

لم تعد ثمة في الشوارع تلك المصابيح التي تُنار بأيدٍ ترتجف برداً مع حلول الظلام، المصابيح الغازيّة التي ما أن قرّبت منها شعلة إبداعٍ لتنيرها، حتّى تبقى مضيئة إلى انبلاج الصباح. لقد حلّت الآن مكانها حركة لا هوية لها، تعمل كلها بالكهرباء دفعة واحدة. تلك المصابيح التي تُنار باليد إن كانت مطفأة، التي توقع ذكرى النار في القلب الناظر إليها، والأهم من كل ذلك، أنها تشبه إنساناً قوياً.

في شارع (تربيت) بمدينة تبريز، حيث رُصفت أرضيته بدلاً من الإسفلت، بقطع الحجارة الإسمنتية، والذي نُصبت فيه أعمدة النور حديثاً، هنالك عودة بالزمن القديم إلى غروبٍ -حوانيت يُطلَق على أصحابها (أصحاب أعمدة النور) من الذين لا يبيعون بالدَين فهو ليس فألاً حسناً- كانت تشعل المصابيح فيه يد موظف حكومي. لقد اعتدوا على تلك المصابيح وحولوها إلى كهربائية، وبدلاً من شبكة الغاز المتوهّجة، بات هنالك ظلّ لمصباح من خلف حاجز زجاجي. المصباح مثل رجل فاته عمره، فصبغ شعر رأسه

بالأسود، غير مدرك أنّ سواده هذا لا يتطابق مع بقايا شعيرات لحيته حنطية اللون.

كان الجو قارساً وضبابياً، حين وقف داوُد تحت أحد تلك المصابيح مرتجفاً من البرد، لا ينال أية سعادة من إدخال يديه في جيبيه. كانت رؤوس أصابعه قد احمرت وتجعدت وصارت تلتمع مثل جلد. لم تُفتح بعد دكاكين الحقائب والأحذية النسائية المحتفية في الداخل بنفسها. والسبب في عدم فتحها لأبوابها في هذا الوقت الصباحي الباكر هو أنّ من يقصد الذهاب كضيف يعرف جيداً أنّ الضيافة تُقام في عتمة الليل، أو على الأقل مع اقتراب الليل، مازال هنالك إذن وقت للّيل. ولو ألقى المرءُ نظرة على داوُد من بعيد، فإنه لن يفرق بينه وبين عمود النور.

اجتازه مصادفة رجل طويل القامة، مهيبٌ وظاهر الثراء، وأدرك حين اجتيازه أنّ ما يحدث أمامه غير منسجم، كلا الواقفين ليسا من جنسي بعضهما، فهناك يقف عمود نور شبيه بالإنسان، أما الواقف الآخر فقد كان من بني البشر. والأمر الآخر الذي يلاحظ في داوُد، أن هذا الشاب النحيف كان يرتجف. يرتجف وكأنه يرقص من فرح خفيّ مضمر. ورغم أنّ السماء كانت توشك على الشروق، فإن الرجل مازال يضع نظارته الشمسية ويرتدي معطفاً جلدياً. رافعاً ياقة معطفه أعلى رقبته وواضعاً قبعة من وبر الجمل على رأسه. كان الرجل يسير لكنه خفّف من سيره وتوقف، ثم عاد أدراجه بضع خطوات مقترباً بهدوء من داوُد، وقف أمامه وقال له والبخار يتصاعد من فمه: «كيف تجرأت على الخروج وأنت شبه

عارٍ؟ بهذه الثياب الخفيفة سيضنيك الارتجاف يا فتى. هل ظننت أن الارتجاف ميزة؟ إن قلبي لم يطاوعني حين رأيت ارتعاشة يديك. عليك أن تأتي معي لأشتري لك معطفاً».

بوغت داوُد. نظر إلى السيد المهيب بعينين دامعتين من شدة البرد، ووصلت الكلمات إلى حنجرته ثم تراجعت. وفي النهاية أخمد الغضب المعتمل فيه، وبينما كان يرقص محركاً قدميه قال: «أنا أرتجف لأني أردت ذلك. كنت أتهاون مع الأمر. لم أصدق دخول الشتاء. قد يكون السبب هو تأخري الدائم في الاستيقاظ وكون بداية يومي تتوافق وشمس الظهيرة. لقد أُجبرت اليوم على الخروج في الصباح الباكر». هزّ الرجل المهيب رأسه مستنكراً وعقد حاجبيه وكأنه غضباً أصابه من كلام داوُد. عيناه كانتا لا تُريان من خلف نظارته ولكن حاجبيه المعقودين يضخّمان غضبه. قال: «أنت تتعذب. لا حاجة لذلك. حتى لو استيقظت متأخراً من النوم بثيابك هذه فسوف تمرض من شدة البرد. برد الشتاء لا يعير أهمية للظهيرة ولا لغيرها. علينا شراء معطف لك، ودون ذلك لن أتركك. لن أجاملك ولن أمزح معك».

قال ذلك وأمسك بمعصم داوُد وكأنه مجرم.

قال داوُد: «حسناً. كما تشاء. لِم أنت غاضب؟».

يخطو الناس مسرعين حولهما. الصحف والأوراق تتكوم تحت الأرجل وتُهرس. لم ير الرجل المهيب وداوُد ملامح العابرين المسرعين إلى جانبيهما. أحيانا تصيبهما رفسة من هذا أو صدمة من

جسد ذاك. مسح الرجل المهيب ياقته المصنوعة من جلد السمور: «آه! نسيت أنّ اليوم عطلة. علينا إذن القيام بأمر آخر. غداً في الحادية عشر تعال إلى سينما القدس. هناك محل لبيع الثياب أنا على معرفة جيدة به، وسيبيعنا إيّاها بسعر جيد. ليس في العالم مثيل لأسعار متباينة مثل الأسعار التي يحددها بائعو الثياب. لديه رفوف من المعاطف. سترتدي واحداً وترحل. لا يمكنني رؤية شخص يرتجف هكذا بينما أنا أحترق بالدفء في داخل معطفي الروسيّ».

نظر داوُد إلى انعكاس صورته في عدستي الرجل المهيب وقال: «لم أتوقع تأثر أحد لهذا الحد. أنا انسان مُهمِل. هل تتخيل أني فقير؟ أو أن أحداً لا يفكر بي؟ صدقني منذ ثلاثة أعوام وقبل حلول الخريف وأنا أحاول شراء معطف للشتاء، ولكني أمهل نفسي حتى يسقط الثلج. وحين أرى الثلج أقول في نفسي قد نكون الآن في منتصف الشتاء فلماذا أشتري معطفاً؟ سأتحمّله حتى ينقضي. في الحقيقة أنه ليس خطئي. الفصول ليست دقيقة مثل التقاويم التي تبدأ بيوم محدد، فأنت لا تعلم متى تبدأ. يقع الخطأ كله على الشتاء في عدم ارتدائي لمعطف».

حرّك الرجل المهيب قدمه العالقة بصحيفة. يبدو أنه سمع عبارات مقززة، قال: «خطأ الشتاء؟ يا إلهي! بالتأكيد أنك فقدت عقلك أو أن جمجمتك فاسدة؟ آسف. لن يطول بقاؤك على البسيطة. الإهمال خطؤك أنت وحدك. ألا تفهم؟».

ألقى داوُد نظرة على وجوه العابرين وظلالهم. كان يشعر بالحياء

من شخص يصرّ عليه لكي يشتري له معطفاً. أدرك أن لا أحد يهتم بهما. فجأة عاوده الارتجاف. في هذه اللحظة اجتازت سيارة مفتوحة النوافذ تنطلق منها موسيقى صاخبة. رفع داوُد يديه إلى فمه ونفخ فيهما، ثم تحرك على وقع الموسيقى مبتسماً للرجل المهيب.

قال الرجل المهيب: «هذه الرجفة اللعينة أنت مسبّبها. لن يمضي وقت حتى تسقط في الفراش مصاباً بالزكام. لا أتحمل حركاتك الصبيانية، وسوف أواجهك».

فرك داوُد يديه أمام وجه. لم تبتعد السيارة كثيراً كي يختفي صوت موسيقاها. وقفت خلف الإشارة الحمراء ومازال داوُد يتقافز. قال بصوت متقطع: «لا تحزن. غداً في الحادية عشر ستجدني أمام سينما القدس».

رفع السيد المهيب يده وأكد مع خروج ساعته الكبيرة من تحت كمه: «غداً».

مدّ داوُد يده. مازالت السيارة واقفة خلف الإشارة الضوئية الحمراء. ضغط السيد المهيب على يد داوُد وأنزلها حتى يحدّ من وقع تقافز داوُد، لكن ذلك لم يُجدِ نفعاً. قال غاضباً: «تعال في الموعد الذي تحدده حتى يُشترى لك معطف. لا تغادر مكانك فتأخذك بي الظنون».

هزّ داوُد رأسه وأخفض عينيه. قال بصوت خفيض: «ولكن لماذا لا أشتري المعطف بنفسي؟».

قال الرجل المهيب: «بتّ في هذه المدينة مثل من يرفع حجراً

متطلعاً لما يرى ما تحته. توجد تحت أغلبها ديدان. أنت لست من تلك الأحجار. فلتكن صخرة عصية».

ضحك داوُد من كلام الرجل المهيب. عاد ثانية للعبة رفع وإنزال قدميه كي يعود إلى ضبطهما مع الوقع: «بالتأكيد سأكون كذلك».

قال الرجل المهيب: «أتظن أنّ كلامي تافه؟».

قال داوُد: «لا، أبداً».

قال الرجل المهيب: «إذن لماذا ضحكت؟».

نفخ داوُد في يديه: «أضحك من نفسي. أرتجف من شدة البرد لكني أتكاسل. ولكي أصارحك فإني حين أرتجف أرى المدينة ضبابية من خلف زجاج السيارات التي تقطع الطريق. المدينة ترتجف. تعلمت ذلك من أخي. وعلى ذلك فهذا ليس خطئي. ها هي المدينة تتزلزل وتهتز».

قال هذا بخبث واضح ثم ضحك وسحب الهواء بقوة من أنفه المزكوم. تغيّرت الإشارة الضوئية إلى اللون الأخضر فابتعدت السيارة.

قال الرجل المهيب غير آبه به: «لقد فقدتَ عقلك، أو إنك قد تعلمت ربما الاستخفاف بالناس من أخيك. لو تزلزلت المدينة لما وقفت هكذا تراقب المارة وتماطل معي. أرجو أن تنسى ما قاله أخوك الذي لا أودّ معرفته، وافهم جيداً ما أوصيك به. لتذكرني

بالرجل المهيب. حتى الغد مع السلامة. الهواء قارس. عد للمنزل».
ثمّ اختفى في الزحام.

وضع داوُد قدمه على الصحيفة التي كانت تحت قدم الرجل المهيب وسار في الطريق المعاكس بين الحشد. دارت الصحيفة على نفسها وتجعدت، ثم سقطت في ممرّ مائي. حتى تلك اللحظة كان داوُد متيقناً من عدم ذهابه إلى الموعد: «وما دخله بشخص لا يمتلك معطفاً ويريد الارتجاف؟».

لم تسِر القضية بهذه السهولة. ورغم أن داوُد حثّ نفسه على عدم الذهاب إلى الموعد، ولكنه كان في قرارة نفسه مرتبكاً، ومع كل ساعة كان ارتباكه يتضاعف، وتحول في النهاية إلى خوف شديد، خوف من أن يأتيه منتصف الليل ويخنقه وهو نائم. ارتدى ثيابه مع الغروب وقصد ذلك الدكان الذي تقرر شراء المعطف منه لكي يراه، وإن كان في الغد فهو لن يذهب. لا يخفى تردده. ولكن لم يكن هنالك محل لبيع المعاطف. تعكر صفوه وأخذته فكرة أنّ الرجل المهيب ما هو إلا مختلّ المشاعر ليصر عليه كل ذلك الإصرار. وقعت عيناه على محل في داخل الزقاق الصغير، فدخله. كان الزقاق مظلماً. أدرك بسرعة أنه الزقاق المؤدي إلى الباب الخلفي للسينما حيث يخرج مرتادوها بعد نهاية عرض كل فيلم. الزقاق تملؤه رائحة البول، وهم حين يشعرون بالأمان، يمتلئ الزقاق لحظتها فقط بالناس لدقائق. نظر إلى جدار أمام الباب الحديدي للسينما. كل النوافذ مغلقة. اقترب منه، من جهة نهاية الزقاق، رجل يرتدي معطفاً

وقبعة فيدورا. لم يود داوُد التوغل في الزقاق. انتظر حتى اقترب منه الرجل. حينها سأله: «عذراً، هل هنالك محل للثياب هنا؟».

وقف الرجل وحدق في داوُد. لا يُعلم هل كان يفكر أنّ هناك مثل هذا المحل هنا أم أنه كان يتمعن في ملامح وجه داوُد العصبية. قال: «ألا تراني أدخّن؟ الإنسان الذي يدخن يعني أنه يتحدث مع شخص ما في ذهنه».

قال داوُد: «أعتذر»، وقفل ليرحل عائداً. رمى الرجل سيجارته أرضاً وماطله قائلاً: «من هذا! هذه السيجارة التي امتزجت بالكلام باتت دون فائدة. ماذا تريد؟».

تراجع داوُد ونظر للرجل بطرفي حدقتيه، قال: «كنت أبحث عن محل لبيع الثياب. أخطأت وسألتك. فمن الواجب عدم خلط الدخان بالكلام». رفع الرجل صوته: «والآن وقد اختلطا. فما العمل؟ هل نتجه إلى الدخان المهدور أم نكمل الكلام؟ سألتك عن نوع الثياب؟».

ارتبك داوُد وقال: «الحقيقة لا أريد الشراء اليوم. من الممكن غداً في الحادية عشر. أردت اليوم معرفة العنوان فقط. أردت معرفة طابع المكان الذي سأزوره غداً. أهو يستحق ذلك أم لا».

قال الرجل: «عجيب وضع الناس الذين تصادفهم. واحدهم يتحدث وكأنه يريد شراء الدكان بما فيه. وفوق كل هذا يمنّ عليك مِنّة. كنت أقف هنا وأنظر إليك. اذهب إلى نهاية الزقاق سوف تجده هناك. ليس في هذا الزقاق غير محل واحد للثياب وهو ملكي. لو

رأيتُ أيّ شخص يخرج من السينما ويكاد يموت لن أبيعه الثياب. أليس من المؤسف أن يرتدوا ثيابي ويجلسوا على مقاعد وسخة يشاهدون الأفلام؟ من الأفضل لهم شراء الثياب من البوتيكات بقيمة دماء صاحب البوتيك. حسناً، تابعتُ الكلام إلى هذا الحدّ والآن يجب عليّ متابعة الدخان. وتذكّر، لا تزعجني ثانية!».

قرّب علبة السجائر من فمه وسحب بشفتيه واحدة أشعلها بولاعته. ثم خطا بكل هدوء جهة الشارع. اتكأ داوُد على الجدار ثم نزع نفسه بسرعة. كان الجدار متجمداً. التفت. زقاق نهايته مغلقة، باب حديدي كبير امتلأ بكل ملصقات الإعلانات وتراكم عليه الزمن كمن أُصيب بداء الجدري. في هذه اللحظة أُضيئت واحدة من النوافذ، صبّ الميزاب -الموجّه فوهته إلى الزقاق- الماء من جوفه، فجرى حتى وسط الزقاق. ابتعد عن رذاذ الماء لكي لا تتسخ ثيابه. حينها فُتحت النافذة التي استضاءت ووقفت امرأة خلف النافذة. لم تنتبه لوقوف داوُد في الزقاق. وعرف داوُد أنّ العتمة غمرته وبات لا يُرى. وقف دون أيما حركة. كانت المرأة تتكلم مع شخص آخر في الغرفة. تقول: «هل ترى مدى حزن يوم العطلة؟ الحمد لله على وصول الليل. أكره العطلة. العطلة تناسب العائلات الكبيرة حين تجتمع لالتهام الفاكهة والحلوى».

صدر صوت غير مفهوم من الغرفة. مفردات لا تفهم ولكن من الواضح أنها كانت لرجل. قالت المرأة: «لو كنتَ جاداً فلماذا غبت شهرا؟».

أدار داوُد ظهره للمرأة وخطا إلى الزقاق. في الشارع، ومن طريقة حركة الناس علم أنهم يهربون من البرد. حشر رقبته في ثيابه وأطرق برأسه وتقدم إلى شارع شهناز. لم يسر إلا قليلاً حتى تناهى إليه صوت من الممر. توقف ومدّ رقبته إلى الممر بفضول. كان الممر ممتداً وتشيع فيه رائحة بلاستك قاطعة للأنفاس. تناهت الصرخة مرة ثانية. دخل الممر وسار حتى نهايته. انحرف الممر إلى الجهة اليمنى. في نهايته باب زجاجي. رأى من خلال الزجاج القذر رجلاً شاباً يجر آخر من ذراعه، يرفعه عالياً ثم يطرحه أرضاً. اقترب منهما. على الزجاج القذر تراكم البخار. وقف خلف الزجاج يشاهد ما وراءه. الجدران زرق والأرضية حمراء. كانوا فريقين؛ فريق على فراش أحمر اللون يرمون آخرين أرضاً، بينما جلس آخرون على الكراسي يحتسون شراباً ويتبادلون الحديث. وما أن يُصرع أحدهم حتى تنفجر حناجر الجالسين بالصراخ. كانت شعور رؤوسهم مُندّاة من شدة الرطوبة في الداخل مثل صوف مبلل، فيما جباههم تعكس النور. تختلط مع الهتاف أحياناً أصوات ضحكات عالية. حتى أنّه لو قام أحد بضجة فلن يُسمع. هنالك رجل لافت للنظر يتمشى بينهم مصدراً التعليمات. يقترب أحياناً من الجالسين على الكراسي ليتحدث معهم أو يضاحكهم. حدث فجأة أمر جعله يرتد برأسه عنهم. أرجع رقبته بحيطة. كان الرجل المهيب يجلس في الزاوية واضعاً نظاراته الشمسية وهو يشاهد المصارعين. نزع عنه المعطف الجلدي واضعاً إيّاه على الكرسي. قال داوُد لنفسه: «إذن هنا مقرّه».

تحرّك الرجل المهيب كأنّه يقف ثم عاد للجلوس. صرع أحد اللاعبين خصمه فارتدّ مثل كرة نصف متر إلى الأعلى ثم وقع أرضاً. رفع الرجل المهيب يده وقال للرجل المطروح أرضاً كلمات لا تُفهم وسط هذه الضجة. أجابه الرجل المصروع بكلمات كانت أيضا غير مفهومة. نهض وركض إلى الرجل المهيب. وضع الأخير يده في جيب معطفه وأخرج منها ورقة نقدية. أخذ المصروع الورقة النقدية بكلتا يديه ورفعها ليراها الجميع وهم ضاحكون، ثم وضعها في جيبه وعاد لساحة المعركة. لم تتغير ملامح الرجل المهيب طوال هذه الأحداث، كانت كما هي.

خرج الرجل المهيب من الصالة الرياضية وسار والثلج يتساقط عليه وقد غمر الشارع، كان يتجه إلى محطة الباص. محطة الباص من حديد والمقعد الحديدي فيها دونما سقف، مما جعل الثلج ينهمر عليه ويجعله غير مُغرٍ للجلوس عليه. وقف منتظرو الباص يحركون أرجلهم من طرف إلى طرف آخر يرقبون نهاية الشارع الذي سيأتي منه الباص. ولكي يقنع داوُد نفسه بأنه ليس عليه المجيء غداً في الموعد، جلس على المقعد المغطى بالثلج ووضع ساقاً فوق أخرى. كان الأشخاص المتجمعون وهم يروحون يميناً ويساراً يراقبونه بأطراف أعينهم. وصلت برودة الثلج والحديد بعد لحظات إلى جسد داوُد فقرر النهوض من المقعد، حينها تذكر العابر. رجل عجوز بجثة ضخمة ورأس أصلع وشاربين يصلان لأذنيه، يقضي العام كله عابراً برداء داخلي وعصاً في يده حارساً الدكاكين والمخازن. هذا الرجل بات معروفاً منذ ظهوره في التلفاز

وهو يغتسل شتاءً تحت الشلال. كان يتذكر جملة الرجل العجوز: «يتغلب الإنسان بإرادته على البرد. تدفئ الإرادة الجسد كما يحرق الفلفل البلعوم».

جلس داوُد متشبثاً بمكانه ولم تمر إلا بضع دقائق حتى وصل الباص فسلم التذكرة وأسرع ليجلس على الكرسي الواقع فوق المدفأة، كان الهواء الدافئ يدبّ على رجليه. كان حزيناً وقرر بصورة قاطعة أن لا يلتزم بالموعد. كيف حصل أنه التقى مرتين في يوم واحد بهذا الانسان العجيب ذي ملامح الوجه الشبيهة بملامح التماثيل الحجرية؟ ليس لقاء واحد جمعه معه فقط، بل مع شخصين غامضين؛ الرجل المدخن الذي كان سارحاً في خياله، والمرأة خلف النافذة التي تتحدث مع ضيف خيالي. ماسحتا الزجاج الأماميتان شبيهتان بسوطين وهما تكتسحان الثلج. أنساه ذلك الزجاج القذر في الصالة الرياضية ووقوفه خلف زجاج قذر غطى سطحه البخار وانمحى خلفه أناس متعرّقون؛ أنساه أنّ الزجاج قذر ومغطى بالبخار عازلاً عينيه عن السيد المهيب وعن تلك الأجساد التي تتصارع على الفرش، حينها اتخذ قراراً بالتراجع ونأى بعينيه عن تلك المشاهد المملوءة بالأجساد المتعرّقة وعن الرجل المهيب بمعطفه الذي رماه على الكرسي، نظر مرة أخرى للقذارة والبخار القريبين منه من النافذة التي كان ينظر منها، وكان يتنفس كل هذه الفترة الهواء الضارب للزجاج نفسه، فاشمئز وأرجع رأسه للخلف كمن تعرّض للسعة.

كان داوُد مرتبكاً، خوفاً من تجاوز الباص المحطة التي يجب

عليه النزول فيها، نهض عن كرسيه وترجل. خلّف الباص دخاناً أسود كثيفاً رغم عتمة الليل، ولكن إحاطة الثلج بكل شيء أبقاه أكثر بروزاً. بنظرة واحدة عرف أنه نزل قبل محطتين. عرف ذلك من (مكتبة وقرطاسية ورقائيان).

جلس ورقائيان في المكتبة واضعاً نظارتيه وهو يقرأ في كتاب سميك من المؤكد أنه كان رواية. حين رأى داوُد جلوس ورقائيان واستغراقه في الرواية لم يطاوعه قلبه ليقطع عليه ما هو فيه. ملأ الثلج الأجواء كلها، فهو حين يهطل متساقطاً على الأرصفة والشوارع والسطوح والأشجار يخنق الأصوات حتى يتقرفص الناس مثل ورقائيان في خزانة حاملين الكتب ويبدؤون بخلق شخصيات، يذهبون إلى ضواحي المدينة بالعربة على وقع حوافر تنبش الأرض، أو يذهبون بعربة وقع حوافرها تتجه من الضواحي إلى قلب المدينة، وربما ارتدى واحدهم بدلة (فراك) وقبعة (فيدورا). تحرّك من أمام الدكان إلى تقاطع. أخّره تراكم الثلوج الآنيّ عن اللحاق بالعابرين، وقد وخزه ذلك. كان مع كل بضع خطوات يلتفت ليرى أثر خطاه، إنها ليست بذات الاستقامة المضبوطة. بقيت قدماه في مكانيهما، ولكنهما ما أن يتحركا حتى يبيتا غريبتين وغير ظاهرتين، خاصة الآن وفي هذا الليل حين لا تتضح الخطوط مثلما في النهار. وبمساعدة الظلمة وظِلّ مخزن متجهّم عادا. قال لنفسه عليّ اخفاؤها كلها. عاد وسار على الخطوات لتنمحي كلها. وفي أوبته وجد نفسه يعود مرة أخرى إلى مكتبة ورقائيان، ورآه يضع يديه خلف ظهره ماشياً في مساحة صغيرة هي الفاصلة بين الكتب والصناديق. الآن

وبعد فراغ الرجل من قراءة الكتاب يمكن له الدخول للمكتبة. وهو حتى لو لن يقترض رواية، يمكنه الاستمتاع بالدفء والثرثرة ليتخلص من خيالاته التي تتساقط مثل حبات الثلج على رأسه. دفع الباب بكلتا يديه. دخلت حبات الثلج قبله إلى المكتبة. رفع ورقائيان رأسه وقال: «أهلا! الرئيس داوُد».

قال هذا وبدلاً من أن يتقدم ويمدّ له يداً، تراجع وجلس خلف طاولة وضع يديه عليها وبقي محدقاً في وجه داوُد وهو يبتسم.

قال داوُد: «تحياتي سيد ورقائيان. أي ثلج هذا! أي ثلج هذا!».

ألقى ورقائيان نظرة للخارج. ضرب الكتاب الذي أمامه على الطاولة، كانت بين طياته ورقة وقال: «شيء لا يوصف. من لطف هذا الثلج أصابتني نزوة الدكتور جيفاغو. صعدت السلم بهذه الساق المصابة فوجدته هناك في الأعلى وجلست لقراءته. أيّة أيام يمكن تخيلها مرّت على الشعب الروسي! على جيفاغو. على لارا!».

اقترب داوُد من الطاولة وأوصل نفسه للمقعد.

- ما الذي وقع على الروس؟ أيّ حب هذا الذي لا يعرف معنى للحرب والصقيع!

قال هذا وانتفض مادّاً يديه وواضعاً إياهما على كتفيه ثم أردف: «لا تتعب نفسك يا سيد ورقائيان. أنا لست متأكداً من أنّ الدكتور جيفاغو مع كل ذلك الحب الذي يحمله للارا لم يشعر بشيء من الحرب أو البرد. نعم ربما يكون الفراق قد آذاه. نعم».

التفت ورقائيان إلى النافذة وقال: «أي ثلج هذا! ليس هذا بثلج يتساقط. إنها أوراق الدكتور جيفاغو تتبعثر»، ثم تمخّط وقال: «حسناً، كفانا تباكياً. هل تريد كتاباً يا داوُد؟».

داوُد الذي كان مجرد مشاهد عاد لنفسه: «لدي رغبة في أخذ الدكتور جيفاغو. شاهدت فيلمه. ولكني أريد هذه المرة قراءته سطراً سطراً. هل تعتقد أني قد أتمكن من فعل ذلك؟».

ضحك ورقائيان عالياً. قال: «متى يعتمل الكلام في مخّك. كم نحن محظوظون كوننا تبريزيين(*) ونرى ثلجاً شبيهاً بثلج روسيا. فليغمرك الموت إذا لم تنهِ الرواية. من ترى هو الذي عوّدك على هذه العادة السيئة؛ أن تقرأ الكتاب لمنتصفه وتتركه؟ لو كنت ابني لأشبعتك ضرباً، على الأقل عشر مرات».

قال داوُد: «بهذا الشعور الذي عشته فأنا أذلّ من كلب ولن أذهب إلى نهايته».

رفع ورقائيان حاجبيه وقال منذهلاً: «ليس بهذه الحدة. فلتخفف من غلواء عبارتك. وحسب ما وصفت نفسك به فأنا سأشكُّ في قراءتك للكتب، أنت تأخذها وتعيدها كما هي. ما الذي يدعوني لفعل ذلك؟ سأسألك سؤالاً، وإذا كانت إجابتك خاطئة، فسأحرمك من الكتب لستة أشهر. نعم، هكذا أفضل. يجب أن تُغرّم على تصرفاتك». ثم فرك يديه بسعادة وفتح الكتاب مخرجاً منه ورقة

(*) نسبة إلى مدينة تبريز التي تقع شمال غرب إيران، ويشكل الأتراك الآذر الأغلبية السكانية.

ثم وضعه في كيس بلاستيكي: «سأضعه هنا حتى لا يبلله الثلج».
ثم وضع الدفتر أيضاً على الطاولة وفتحه وكتب الاسم والتاريخ وعنوان الكتاب في ثلاث خانات منفصلة: «انتهينا من هذا أيضا».
قال داوُد: «شكراً. حين أعود سوف أسدد دَيني».

قال ورقائيان: «أي دين؟ أنت دائماً ترجع الكتاب غير مكمل قراءته، إن قلبي لا يطاوعني على أخذ مقابل».

أخذ داوُد الكتاب ووضعه تحت ذراعه وقال: «هذه المرة أعِدك وعد شرف! سأقرؤه، وعد شرف!».

نهض واتجه إلى باب الدكان. نظر ورقائيان إلى ساعته. قال: «عليّ أنا أيضاً إغلاق الدكان. اليوم كان عطلة ولم يتحتّم عليّ المجيء. ولكن الصفحات التي قرأتها تستحق. أشعر بالإشباع حين أعير الكتاب الذي أحبّ إلى شخص آخر ليقرأه».

نظر داوُد إلى الكتاب الذي وضعه تحت ذراعه بشوق وخرج من الدكان وسار هذه المرة دون عناية بآثار خطاه إلى البيت.

كان (كاوة) منحنياً يجرف الثلج من الرصيف ويرميه في القناة. كان الثلج لم يتماسك بعد إلى درجة التمكن من جرفه. واضح من جرف كاوة للثلج أن قصده لم يكن إبعاده من أمام باب البيت والجدران. حين رأى داوُد من بعيد ترك الجرف واستقام ولوى رقبته وحدق في داوُد. لم يكن أحدٌ في الزقاق حين كان صوت خطوات حذاء داوُد يملأ المسافة بين الأخوين. قال كاوة بصوت عال: «أخيراً حضر السيد»، ثم غيّر صوته إلى نبرة غضب: «أين ذهبت يوم العطلة؟ ألم تحدّثك نفسك أن هناك حماراً يقلق عليك؟».

قال داوُد ضاحكاً: «أينما كنتُ فأنا الآن هنا. انتهى القلق. لماذا تمسك بالمكنسة في هذا التساقط الثلجي؟ لا فائدة من ذلك. فالثلج سوف يعود حالاً».

نظر كاوة إلى السماء. كانت تتساقط عند عمود الإضاءة ثلوج كثيفة تحت النور. قال: «ستتجمد هذه الثلوج بحلول الصباح. حينها

لا يمكن إزالتها بسهولة. الليلة لن أنام. كل بضع ساعات سآتي وأجرفها. ما هذا الذي تحمله؟».

رفس داوُد الجدار لكي يُسقط الثلج عن حذائه. قال: «رواية. لماذا لا تنام؟».

حدق كاوة في عيني داوُد. قال: «بالي مشغول. لا أستطيع النوم. هل عدت مرّة أخرى واستعرتَ رواية؟ هذا الرجل العجوز أكثر منك حماقة، إذ أنّه في مثل هذا اليوم المثلج يفتح دكانه».

قال داوُد: «وما دخلك أنت بما نقترفه أنا والرجل العجوز؟ سنرى بعضنا في وقت متأخر مرة أخرى. أليس كذلك؟ أحنّ إلى كل مواجهة جديدة معك مهما كانت سيئة ودون جدوى».

مسح كاوة لحيته الكثة وقال: «ابقَ مستيقظاً، سوف أنيم روكسانا وآتيك».

قال داوُد: «أنا بردان. سوف أذهب لأُدفئ نفسي وأتعشى».

قال كاوة: «اذهب».

انحنى ورفع المكنسة عن الثلج. دخل داوُد. نزع حذاءه ومرّ من جانب السلم الذي ينتهي إلى غرفة كاوة وزوجته. اقتلع خطواته حين عبوره عتبة السلم. هل كان هناك مجال لسماع صوت روكسانا من الغرفة؟ صوت هسيس في الغرفة؟ تجرأ مرة واحدة على صعود السلم بخوف وفتح باب الغرفة بحذر ووقف عند إطار الباب ونظر لما في الغرفة حين لم يكن كاوة فيها ولا روكسانا. كانت

غرفة زوجين ولكن كل الأشياء فيها تحمل توقيع روكسانا؛ كانت مرتبة أكثر من اللازم ومازالت تُشيع رائحة أفرشة جديدة.

خلع داوُد ثيابه واتجه إلى المطبخ ليتناول عشاءه. دخل غرفته ورمى البطانية على رجليه واتكأ على الوسادة بجانب المدفأة ثم وضع الرواية على رجليه. تناهى إليه صوت رفيع. صوت نجوى. حاول التركيز ليصيخ السمع واقترب من النافذة. لم يكن الصوت من الخارج. اقترب من الجدار ووضع أذنه عليه. ولكنه لم يكن صادراً من الجيران، بل كان من غرفته. فجأة وقع نظره على المذياع، اقترب منه فرأى أن صوته كان منخفضاً لكنّه يعمل. أغلق المذياع وعاد للكتاب. على غلاف الكتاب ثمة رسمة للدكتور جيفاغو مع قبعة روسية بجانب امرأة شقراء، وفي غلاف المؤخرة لوحة لميدان حرب تقطعه عربة بجنون، وفي الجانب الآخر جنديان واقعان أرضاً، وفي النهاية دخان كثيف يتعالى. غلاف الكتاب ومؤخرته تتحدّثان عن حرب ستفصل بين امرأة ورجل، وهناك ملامح وجه المرأة الخائفة التي كانت لارا. فتح الكتاب. في الصفحة الأولى كانت أسماء الأبطال مسطّرة وأمامها شرح مختصر عنهم وعن علائق ارتباط أبطال الرواية مع بعضهم. يصعب في الروايات الروسية حفظ أسماء الشخصيات إذ تختم الأسماء والألقاب بـ«فيتش»: «فيكتور ايبوليتوفيتش كوماروفسكي»، «يوري أندرييفيتش جيفاغو». ويعرف أن أسماء كل النساء تختم بالألف، بصوت (آ). ورغم أن هذه الأسماء لا تحفظ فإن رؤيتها كلها حببتها له. أسلوب كتابة الشخصيات نراها فقط في بداية المسرحيات، ولكنها في المسرحيات

ليست مشوقة كما هو حالها هنا. تأخذ الشخصيات حياتها على خشبة المسرح، ولكن الأسماء هنا تدل كلها على آدميتها، وليس من المقرر أن يجسّدها أحد.

دخل كاوة من باب الغرفة. وجنتاه محمرتان من البرد ولحيته شعثاء بحيث تغطيه ملامح أكثر خشونة. قال: «كانت نائمة. بهذا الشكل وصلنا لبعضنا بسرعة».

أغلق داوُد الكتاب. جلس كاوة ومدّ رجليه واضعاً يده على ذقنه، قال محدقاً في الجدار: «أنت تضيّع وقتك سدى على هذه الروايات. يجب قراءة الرواية بعد سن الثلاثين. حين تتعدى على الأقل منتصف العمر لهذا العصر. ما الذي تحمله عن الماضي؟ تصوّرٌ خام. ماذا يعني لك الماضي؟ معنى مبهم. بهذه التصورات غير الناضجة لا يمكن فهم الرواية. أفضل الكتب لمثل من هو في عمرك هي كتب شرح الطبيعة مثل مجلة (اكتشافات علمية) أو (الصيد والطبيعة). أو الكتب التي تعرض آخر التطورات التقنية مثلاً مثل (مجلة السيارات). أنا بنفسي حين كنت في مثل سنّك كنت أقرأ الكتاب الذي غالباً ما كنت أتوسده وهو كتاب (الفيزياء المسلية) لياكوف بيرلمان. لو بحثت عنه فإنك ستجده في الصناديق أعلى السلم».

عضّ داوُد شفته. حكّ جبهته: «لقد أنهيت تلك الدورة. مضى الآن عامان على عضويتي في فريق مسرحي. المسرحيون وحسب علمي ليست لديهم قراءات علمية. وعليّ أن أوصل نفسي إلى

مستوياتهم. هل ترى ذلك الكتاب، رغم أنه ثقيل إلا أن عليّ أن لا أضعه جانبا».

انحنى كاوة وقرّب رأسه وحاول قراءة عنوان الكتاب: (إعداد الممثل) لستانسلافسكي.

قال داوُد: «لشخص روسي. يحمل اسماً طويلاً. ولقد حفظته: ستانسلافسكي».

ضحك كاوة: «متى ستتأثر؟».

قال داوُد: «أريد ذلك. أسلوب هذا الشخص في المسرح هكذا. يقول أن المسرح حياة واقعية على الخشبة. كأنك لا ترى أيّاً من النظّارة. للمشهد أربعة جدران. الرابع منها قائم بين الممثلين والمتفرجين».

قال كاوة: «أهو جدار وهميّ؟».

قال داوُد: «نعم. كأن ليس هناك من يشاهد وعلينا أن نقف على خشبة الواقع ونتأثر بالكلام والأفعال. بهذه الصورة من السهل الضحك والبكاء بدموع حقيقية».

قال كاوة ساخراً: «بدموع واقعية؟».

قاطعه داوُد: «بواقعية كاملة».

قال كاوة: «لقد صنع السيد ويسكي تضاداً لافتاً. دموعاً حقيقية خلف جدران وهمي».

قال داوُد: «ستانسلافسكي».

قال كاوة: «الأمر الآن راجع لك. هل تريد قضاء وقتك مع الرواية. بعد أن تتعدى الثلاثين سترى أنك لن تتذكر أية رواية قرأتها. لأنك لم تفهمها. وعليك قراءتها مرة ثانية. هذا إذا بقيَت فيك قابلية القراءة».

قال داوُد: «قلت لك. ولو تطلب الأمر القوّة فلسوف أضع نفسي في الفضاء الفني. وتعرف جيداً أن عائلتنا لا يعرفون عن الفن أي شيء بتاتاً. لا يمكن القفز من طبقة إلى أخرى بسهولة. هل يمكن؟ أنت قلت بنفسك لمرات عديدة أن ذلك غير ممكن. لأن الكلام يحتاج عمراً. لم يكن لدي. لم تسمع أذناي موسيقى ولم تر عيناي ألواناً. وأنت مثلي بل أسوء. قراءة الرواية تقدم لي ذلك. أجرب في عقلي حياة. حياة في القرن التاسع عشر من الطبقة الوسطى أو العليا. من هذا الجانب أيضا أكسب تجربة من ستانسلافسكي وكيف أتأثر جداً من هذه التجربة».

هزّ كاوة كتفيه وقال: «ممتاز جداً لو أنك فهمت حقاً. بالطبع الآن وحينما أفكر أرى أن هذه التجربة الذهنية التي تحدثتَ عنها قد لا تحتاج إلى فكر كثير. إضافة لذلك لا تحتاج إلى طيّ طريقي. هل يحتاج؟ في الأمس رأيت بأم عيني كم يمكن للأجيال أن تختلف. سافرنا مع صديق وهو كاتب، سفرة قصيرة حتى بيت صديق مترجم. يترجم روايات صعبة وضخمة الحجم. وكان صديقي قد أحضر معه ابنه تحت إصرار ابنة المترجم. كانا يريدان اللعب معاً. هذه هي المرة الأولى التي أسافر فيها مع صديقي الكاتب. دائماً ما أراه في البيت. ولكن في السفر الشيء الوحيد الذي رأيته فيه هو الخوف،

إنه يخاف من كل شيء ويظهر خوفه بصوت عالٍ. يخاف من الطرق السريعة والسيارات. يخاف من بحيرة قبعت خلف سدّ. يخاف من عبور طريق غير مكتمل بقرب البحيرة يؤدي إلى بيت المترجم. من البساتين والأشجار. يخاف من فقدان نظارتيه. من العودة ساعة تعتم السماء. من عدم وصول ابنه حسب الموعد إلى البيت. يخاف من زوجته خوفاً من مساءلته عن ابنه. من الكلب قد يأخذ حذاءه ويهرب. من الحمام الغربي. من الشمس. من الريح التي تهب. حتى من الله. حسنا؟، في شوط العودة جلس ابنه في الخلف ينظر بكل هدوء للخارج. حين انفصل عن البنت تحول إلى إنسان عاقل. فهمت أمراً حيرني. فهمت أن الأب الحقيقي للاثنين هو الابن، والأب هو الفتى. عرفت ذلك من خوف وقلق صديقي من فرط التحكم الذي أحدثه الفتى».

قال داوُد: «لماذا تحكّم بأبيه؟ وهل يمكنه فعل ذلك؟».

قال كاوة: «هنا مربط الفرس. حسناً أنا أقترب من الموضوع. روح الفتى لا تعلم بهذا التحكم. ولكن وببركة الشقّ الواقع بين جيلين فقد فعّل نفسه بنفسه. اليوم كان للفتى، وقد ركب الفتى على كل شيء. ولكن الأب كان قلقاً. لا يعرف شيئاً عن عصره، وهو دائم القلق في هذا العالم الذي لا يدرك أنه إما أن يقضي على الابن أو على نفسه. بقي يضرب رجليه ويديه في قلق حتى يوصل ابنه للبيت سالما إلى أمه كي يستعيد أنفاسه. والأم هي امرأة على أية حال. في دنيا اليوم هي زعيمة».

قال داوُد: «رحلة عجيبة! بما أنك دقيق إلى هذا الحد في أمور الناس هل تستمتع بالسفر؟».

قال كاوة: «ولِمَ لا؟ الناس ترى كل ذلك طوال السفر ولكنهم لا يفهمونه. ثم يتأملونه فيدركونه. مثل الرواية التي تقرؤها. تقرأ الآن الكلام وردات الفعل ولكنك تجتازها. ويحين ادراكها ساعة إنهاء الرواية مغلقاً إياها. أليس صحيحاً؟ لو كان كلامي ليس صحيحاً قل لي».

قال داوُد: «الحق معك. الحق كلّ الحق معك».

تفاجأ كاوة من قطعية داوُد في رده وقال: «ليتك في كل الأمور الأخرى تعترف مع من يكون الحق. والآن أصل إلى قضيتي. أريد طرح سؤال. قد أكون مازلت تحت تأثير تلك الرحلة. وعلى ذلك لا تأخذ ما قلته لك على محمل الجد. سؤالي هو: نحن اللذان نجلس هنا، من هو الأب ومن هو الابن؟ هل يبدو سؤالي مضحكاً؟».

قال داوُد: «هل يجب أن يكون واحد منا أباً والآخر ابناً؟ أخاف أن تطالبني بالمسؤولية وأنا لا أفهم ما ترمي إليه؟».

قال كاوة: «لا أبداً. أيّة صيغة لهذه المسؤولية. أنت أخي ولا تفصلنا عن بعض إلا ستة أعوام فقط. ما أريد قوله هو من الذي يتحكم بالآخر. بالنسبة لي فإن الحالة المثالية هي أن لا أحد يتحكم بالآخر. ولكن أرى أن ذلك غير ممكن. على أية حال فالناس مختلفون. أحدهم يمتلك شخصية أقوى والآخر أضعف. حسنا؟ أريد النظر للموضوع بحميمية. لو كنتُ متحكماً بك وأنا بالنسبة

لك بصورة أو بأخرى الأخ الأكبر وأيضا الأب، فلا غبار على الأمر. هذا الأمر الطبيعي لكل فردين في عائلة فقدا الأب أو ابتعدا عنه. ولكن النقطة المهمة هي هل من الممكن أن تكون أباً لي. لو كان الشعور هكذا أظن يمكن القول أن باستطاعتك الحديث معي بكل حرية، لأننا كلما تقدمنا في الحياة يمكن أن تشتد أبوّتك عليّ. وهذا يعني لي كارثة، ولا أود الوصول إلى ذلك الطريق».

قال داوُد: «الحقيقة أني لا أفهم كلامك. تعيرني بأني لا أفهم الرواية في مثل هذا العمر. ثم تتحدث عن علاقة مفاجئة؟ رغم أني أصغرك بستة أعوام ولكني أبوك؟ لا أفهم».

شبك كاوة أصابع يديه وقال: «ليس لي حل غير أن أعرف كيف أصبحتَ أبي. لا أمزح هنا. أريد منك أخذ الأمور بجدية ولتتفكر فيها وتوضّح لي لماذا لديك حق الأبوة عليّ وهل تريد التظاهر بذلك أم تريده حقاً. رأيت علاقة تحكم صديقي الكاتب مع ابنه. لا أود أن أكون مكانه. على الأقل لا أريد أن أرى نفسي لمدة طويلة مثله. لو سارت الأوضاع لفترة هكذا سأوقفها».

قال داوُد: «لماذا؟».

قال كاوة: «أنا رجل متزوج، وأن يصبح أخي الأصغر أبي فإن وجعاً قلبياً سوف يولد فيّ كراهية، كراهية غير مبررة. لم أستطع تحمل أبي. لذلك تركتُ البيت. لقد اعتقدتُ ببساطة أني تركتُ أبي في مدينة صغيرة وانتهى كل شيء. أنا أكره أبي وكل شخص متغلب. تعرف ذلك. أنا متأكد من أنّ صديقي أيضا كاره، لو علم

كيف رأيته وقد صار طفلاً جاهلاً بيدِ ابنه فلسوف يكرهني ويوصل كرهه لي إما بالإيماء أو بالإشارة».

كانت عينا داوُد متجمدتين على فم كاوة حين كان يقول ذلك بسرعة. قال: «أنت غريب يا أخي. غريب جداً. تتركني لأفكر بكراهية هل أنا أبوك أم لا؟ أنا لا أفهم من هذا الأمر حرفاً».

نهض كاوة. كان يتنفس بسرعة وكأن هنالك شعلة في عينيه تحرقهما. قال: «حسناً فكر جيداً. لو تقرر أن يكون أحدنا الأب وكان أنت فعلينا أن ننفصل. ومن ناحية حرفتي فأنا إنسان دون أب، وأريد البقاء دون أب. لا أود أن يكون لي أب بألف رأس، كلما حطمت له واحداً قام الآخر. أنت تعرف جيداً أني أسير خلف ابتكاري ويحتاج الابتكار في هذا الخراب إلى قوة. عليك منذ البداية أن تبعد أباك وأمك وعملك وكل شيء، وحينها قد يبدأ عقلك بالعمل».

قال ذلك وخرج من باب الغرفة. لم يعد داوُد يستطيع فتح الرواية ليقرأها. أطفأ المصباح ودخل تحت البطانية وأخذ ينظر عبر النافذة إلى الثلج المتساقط مثل دقة أفكار كاوة الغريبة. من منا نحن الأخوين هو الأب؟ قطعاً أن مفتاح هذا القلب الغريب المشغول هو بيد روكسانا. عليّ الحديث معها في أقرب فرصة؛ غداً حين لا يكون كاوة في البيت.

كانت روكسانا امرأة ذكية ويمكنها فهم كيفية كبح جماح زوجها أفضل من أي شخص آخر. حسناً حتى رؤية روكسانا وسؤالها

عن أحوال زوجها أبعد هذه القضية عن مركز تفكيره. عاد للرجل المهيب. ماذا سيعمل غداً؟ هل يذهب للموعد أم لا؟ لم يعد الرجل المهيب هو الرجل الذي يرتدي المعطف. بل الرجل الذي جلس في الصالة الرياضية على الكرسي ويمنح نقوداً لمن يُصرع على الأرض. في هذه الأثناء تذكر (قبة زرّين). كان قد رآه مرة عن قرب واتصل عليه مرات عديدة في منتصف الليل متحدثاً معه عن مشاكله. ليس لأنّ هناك مشاكل حقيقة واقعة، بل للتحدث مع الرجل العجوز في منتصف الليل. دائماً ما ينمي قبة زرّين الحدث حسب طريقته وبخياله الغريب حتى يصل إلى نتيجته، ولا يقول أبداً افعل هذا ولا تفعل ذاك. نهض من مكانه صوب الصالة، ثم سحب مقبس الهاتف في الظلمة وجاء به إلى غرفته ووضعه في مكانه. حينها أغلق باب غرفته وجلس أمام الهاتف. وعبر لمسه لثقوب الأرقام اتصل على رقم قبة زرّين. بعد رنة واحدة رُفعت السماعة وكان صوت قبة زرّين: «معك قبة زرّين، تفضل».

قال داوُد: «سلام أستاذ. أنا داوُد».

قال قبة: «وهل تتوقع أني سأعرف أيّ داوُد أنت؟».

قال داوُد: «أنسيت؟ أنا الذي أرهقك كثيراً. أنا الذي كنت دائماً ما أصرخ في مسرحية حديقة الأمنيات الثالثة يا سيد له سه تو».

قال قبة: «أها! هو أنت! صوت رنة الهاتف أخافتني».

قال داوُد: «حقاً؟ أنا أعتذر. هل كنت نائماً؟».

قال قبة: «لا يا عزيزي. لي ثلاثون عاماً ساهراً الليل. كنت أقرأ

مقالة محيرة عن شاعر روسي خطفتني من نفسي، وحين أنهيتها غرقت في التفكير. لكن فجأة رنّ الهاتف وأخرجني مما كنت فيه».

ضحك داوُد: «لافت! كان يومي يوم أدب روسي. استعرت من السيد ورقائيان كتاباً وهو رواية روسية، وقد كان يقرؤه».

قال قبة: «وما الجديد؟ هو مثلي هرِم. وهو إضافة لذلك لديه تاريخ سياسي وتقرّب للروس أكثر مني. ولكن نحن الأتراك من عادتنا أن نبدأ بالأدب الروسي ثم نتجه إلى فرنسا وبريطانيا ثم أمريكا ثم نعود للروس ونعيد قراءتهم. لا يرضينا غير مرتدي القبعات السمورية المجانين. نحن ذاتياً مجانين».

وهنا علت ضحكته: «قد لا تكون الحالة ذاتية. هي ممكن أن تكون عرضية. إن أكبر بازار مغطى في العالم يقع هنا في هذه المدينة، والبازاريون يدخلون في الحق الذاتي. لا أعرف».

ولكي يجاريه، ضحك داوُد، إلا أنه قال دونما توقّف: «قد تكون جسارة مني. هلاّ أخبرتني لماذا سحرتك المقالة؟ لو كنت تتحمّل قصّها عليّ».

قال قبة: «نعم أتحمل وبكل تأكيد. القسم الأخير فيها غريب وسوف أقرأ لك منه. كتب المقالة شاعر باسم (بالمونت) يشرح يوماً شتائياً في موسكو حتى يصل إلى لقائه مع الشاعرة الكبيرة (مارينا تسفيتايفا). القصة هي أنّ بالمونت يستيقظ صباحاً ويرى في غرفته المتجمدة فتاة في سن الثانية عشر هي وزوجته مستلقيتان على الاريكة. ويرى في بقية الغرف أناساً صلفين احتلوا البيت دون

إذن وهم يعربدون. يغتسل بالمونت ويرتدي ثيابه ويذهب ليرى (تسوتايوا). في الطريق يرى جثة حصان متكومة على الأرض. كانت الجثة دافئة ولكن هناك من قطع ساقها وأخذها معه. هناك كلب يعضها من الأطراف وأحياناً يقتطع قطعة لحم منها. يجتاز هذا المشهد السيّء ويصل إلى بيت مارينا. يتحاوران حواراً عادياً. كان زوج مارينا قد فُقد في الجبهة وهي لا تعلم أكان ميتاً أم حيّاً. لديها طفلة في السادسة. تقدم لبالمونت بطاطس. يضرب موعداً مع مارينا في المساء ويأخذ ابنتها آليا إلى البيت. تريد آليا أن ترى ابنة بالمونت وهي ميراشكا. حسنا؟».

يتوقف هنا ويسأل: «هل نمت؟».

قال داوُد: «لا. كنتُ اسمعك».

قال قبة: «أها! عليك الاستماع. هناك المزيد للوصول إلى المكان الغريب في المقالة».

قال داوُد: «أكيد أكيد».

أكمل قبة: «لا يستطيع بالمونت البقاء في البيت. يخرج مرة أخرى قاصداً صديقاً آخر وهو مترجم (نشيد الإنشاد). حين حلّ الليل ذهب إلى مقهى الشعراء حتى يرى مارينا مرة أخرى. ليس هنالك من أحد في الشارع. كان في السماء غيم كِلسي وقد بزغ القمر. القمر على حدّ تعبير الكاتب أبيض. فجأة يصادف امرأة غريبة. يبدو أنّها تنتظره. وحين يقترب منها تسأله المرأة: عمي أين بيتي؟ لا يمكنه معرفة هل هي جميلة أم لا ولكنه مطمئن إلى أنها شابة.

تسأله مرة أخرى بتقريع: عمي أين بيتي؟ يكمل بالمونت طريقه دون إرادة. تقبض الفتاة على يده بكل يُسر وترخيها، ثم تسير برفقته مكرّرة سؤالها بإصرار، فيرد عليها بالمونت بيأس أنه لا يعلم. تقول له الفتاة: إنك تعلم. يا عمي أن بيتي قريب من هنا. دلّني أين. لديها ملامح غريبة ليس فيها أية علامة تدل على الجنون. يرى بالمونت نفسيهما كالسائرين في النوم على أطراف سقف منزل عال وقريبين من السقوط. يقول لها: لا أعلم. تقول الفتاة: ألا تخجل؟ لأن بيتنا ليس في هذه الجهة التي تسير فيها؟ في هذه اللحظة يخرج شخص من باحة المنزل. رجل عجوز. تترك الفتاة بالمونت وتتجه بكل سذاجة إلى الرجل العجوز راكضة وتقول له بسرعة ما لا يُسمع. يضع الرجل العجوز يده على كتفها ويسير كلاهما إلى داخل باحة البيت الضبابية. يقف بالمونت لحظة منتظراً حدثاً آخر. كل شيء هادئ. يكمل طريقه. يصل إلى المقهى. تراه مارينا وترفع له يدها. يلتفّ صوتها في أذنه: ما الذي حدث يا أخي؟ يشرح بالمونت أدق التفاصيل لها. حينها يشع وجه مارينا وكأنّ عينيها تبحثان في ذاتها وترى ما حولها. تمسك يده وتقول يا أخي كان عليها المجيء للقائك. بالتأكيد كان عليها المجيء. تعرف... من جاء بك إلى روسيا هذه؟».

كان باستطاعة داوُد القول فقط: «نعم. نعم. يبدو الحق معك».

قال قبة: «قرأتها قبل ساعة».

سماعة الهاتف التي ابتلّت بعرَق يد داوُد ألصقها بأذنه الثانية مستمعاً لأنفاس قبة. قال قبة كأنه يحدث نفسه: «ما الذي يمكن

قوله. لا تستطيع غير الغرق في التفكير. ولكني لم أخبرك بعد ما الذي دعاني لأسرّح فكري».

قال داوُد: «ما هو بالتحديد يا أستاذ؟».

قال قبة: «رأيت مثل هذه المرأة قبل عشرين سنة».

قال داوُد وهو مضطرب: «حقاً؟».

قال قبة: «أعتقد نعم، في الحقيقة. ومن الظاهر أن مثل هذه المواجهة مع مثل هذه المرأة الغريبة تجربة تتكرر. أنت أول شخص أصارحه بهذا اللقاء. قد لا تذكر. حين حدثت الثورة قام البعض ولمحاربة الفساد بتهديم صالة مسرح القلعة. لم يكن لهذا المسرح نظير، والشيء الوحيد الذي كان باقياً منه هو صورة. كان من الصالات العظيمة على الطراز الإليزابيثي، يتشكل من عدة طوابق وله شرفات خاصة يتابع منها المشاهدون المشاهد بالمنظار. كان الجو في الشتاء بارداً جداً، وكانت أرضيات الشوارع مثل الزجاج. كنت أرى أن التمثيل على خشبة مسرح القلعة يشكل فخراً لي. مع وصول الخبر إليّ أسرعت بالذهاب إليه لأتطلّع. كان كل شيء قد هُدم بالجرافة، والشيء الوحيد الذي كان واقفاً منه هو زخارف جصية جدرانية. أخذ الناس الديكورات والإضاءة والستائر المخملية. كان الثلج يتساقط ومن بينَ الحطام المتساقط أخذتُ قطعة زخرف جصّي جداريّ وعدت ماشياً وأنا ألعن الجميع إلى البيت. تخيل أن المكان الذي هدموه كان حياتي الروحية التي تركتها هناك. كان بالنسبة لي البلاط الدانماركي الخيالي. باتت غابة. تحوّل إلى حديقة. كان كوخاً

على ساحل المسيسيبي. كان الوقت متأخراً ولكي أصل بسرعة عبرت من محلة دكاكين الحجّارين، وتعرف أنّ أغلبهم من الأرمن. لا أحد في الخارج. ليس سوى ضوء يأتي من بعض النوافذ، بالتحديد مثلما كان السيد بالمونت يتجه إلى مقهى الشعراء. فجأة رأيت فتاة طويلة وجميلة وغير محجبة. تحركُ رجليها صعوداً ونزولاً وتنظر إلى ما حولها وكأنها هاربة من البيت. وبالطبع ففي محلة الأرمن لا يعيرون الحجاب كثير اهتمام. خاصة حينما يريدون الذهاب من بيت إلى آخر. ظننت أن هذه الفتاة تريد العودة إلى بيتها وتوقفَت لتستريح أو تنتظر حتّى يخف انهيار الثلج. ولكني حين اقتربت منها رأيت بخار فمها، ورأيت خديها مبللين بالدموع. وما أن رأت نظرتي الحائرة قالت: «بتُّ دونما بيت يا سيدي. لقد ضربوني. هل بوسعك أن توصلني للبيت؟». سألتها: أين بيتك. قالت: «لم يعد لي بيت». ظننت أنها من نساء الليل وتبحث عن رجل ووقعت هنا تتمسك بي حتى أشفق عليها. وقد يكون جمالها غير الطبيعي هو الذي أخافني. لكني من فرط جمالها أضعت نفسي وأكملت طريقي دون عناية بها، ثم ابتعدت عنها ولم أضع قدميّ قطّ هناك».

بعد مضي فترة صمت، قال داوُد: «يعني تقصد..».

أخذ قبة نفساً ممتلئاً وقال: «بالتأكيد. فهذه المقالة رفعت حملاً كبيرا عن كاهلي! كنتُ أتعذب نفسياً وأسأل نفسي لماذا لم أساعد تلك الفتاة. حسناً، كانت دناءة مني. ولكن يمكنني الآن التنفس براحة بال. وعلى حدّ تعبير تسوتايوا كان عليّ رؤيتها كما كان علي أن أهرب منها في آن. لم يكن أيّ منهما بإرادتي، وهذا ما دعاني للهدوء.

كنت أفكر فيما لو أنها كانت في هذه المدينة الهالكة شاعرة حددت لي موعداً في مقهى الشمس في وقت متأخر وقالت لي هذه الجملة، وهي أنّ هذه الفتاة ليست إلا مسرح القلعة لما تعذبت كل هذه الأعوام».

نظر داوُد من النافذة إلى الخارج وفكر في «تأكيدات» قبة. قطعة الجصّ هذه ذكرى قبة زرّين من الفتاة. حينها خلت عيناه من النظر إلى الأشياء ورأى الثلج مرة أخرى. ومع رؤية الثلج قدحت في ذهنه مقارنة عجيبة بين ثلج الليلة ومقالة قبة التي قرأها له. إلى سياق تقارن الرواية التي كان يقرؤها ورقائيان مع ثلج ما قبل ساعتين. هذا يعني أن الثلج حسب ورقائيان يتساقط من هذه المقالات والروايات؟

قال قبة: «حسنا، دعنا من هذه المقالة. ما هي حاجتك يا بني؟».

قال داوُد: «لم يعد باستطاعتي الكلام الآن».

قال قبة: «تكلم يا عزيزي. قلت لك. قرأتها قبل ساعة وكل التأثيرات التي كان يجب أن تتركها عليّ قد تركتها. كن على سجيتك».

قال داوُد: «هذا صعب ولكنني سأقولها. الحقيقة أني قد صادفت اليوم إنساناً عجيباً. لقد جاءني حين رأى ارتجاف يديّ. حسناً لقد كان الجو بارداً ولم أكن أرتدي ثياباً تحميني من البرد بصورة بشكل جيد. وقد طلب مني مؤكِّداً، أنه سيشتري لي معطفاً».

ضحك قبة: «كم هو إنسان لافت!».

قال داوُد: «لا أعرف ما الذي سأفعله. أنا متردد. هل عليّ الذهاب للموعد أم لا».

ضحك قبة عاليا مجدداً: «أيّ حدث هذا. لماذا تتردد؟ هل رأيت علامة أو شيئاً يدعو للقلق؟».

قال داوُد: «لا. ولكني لا أفهم لماذا يريد القيام بهذا».

قال قبة: «فقط؟».

قال داوُد: «نعم. فقط هذا. أنا لا أفهم ما هو هدفه».

سكت قبة. وخمّن داوُد أنه يفكر فسكت. في النهاية قال قبة: «حسنا ماذا لو فهمت؟ لو فهمت أنه يظنك من عائلة فقيرة وأن وضعك المالي لا يسمح لك بشراء معطف. هل يكفي هذا لتعرف سبب حركته؟».

قال داوُد: «ولكني لست فقيراً إلى الحدّ الذي لا يمكنني فيه شراء معطف. هذا تساهلي أنا».

قال قبة: «هو لا يعرف هذا، وليس من الواجب أن يعرف. فكر فقط في الشعور الإنساني الذي علا للحظة في قلبه. انظر هل يكفي هذا المقدار من التوافق معه أم لا. ولكن يمكنني قول أمر آخر».

قال داوُد: «ما هو؟».

قال قبة: «انقل هذا المعضلة من حياتك الواقعية إلى حياتك المسرحية».

قال داوُد: «لا أفهم».

قال قبة: «سأوضّح لك. افترض أنك ستمثل دور إنسان على هذا الشكل. شخص فقير يصرّ شخص طيب القلب وثريّ على شراء ثياب شتوية له. وبدل أن تتخيل حدوث كيف سيكون مثل هذا الموقف، يمكنك الذهاب ورؤية كل شيء عن قرب. سأعد دورك. حسب معرفتي أن مدربكم المسرحي هو (سعيد)، وهو من محبي أسلوب ستانسلافسكي. صحيح؟».

قال داوُد: «نعم».

قال قبة «حسناً، المهم هو رؤيتك لنفسك في الحياة عبر مشهد. ترددك هذا هو لحين تفكيرك في الحياة الواقعية بوعدك معه. ولكن في حياة المشهد هل يحتاج إلى كل هذا التردد والوسواس؟».

قال داوُد: «أنت تعرف أفضل ولكن لا أعتقد لزومه كثيرا».

قال قبة: «لا داعي يا بني».

قال داوُد: «مرة أخرى شكراً على المقالة التي قرأتها. سامحني. مع السلامة».

قال قبة: «مرة أخرى لا داعي للشكر، وليلة سعيدة».

وضع داوُد السماعة. كيف يفكر في كل هذه الأحداث الحقيقية والخيالية ويتخذ قراره؟ قد يكون الحل الوحيد هو ما قاله قبة. يتصور عبورها كلها عبر مشهد مسرحي. وهذا ما يطلبه سعيد من داوُد ولكن لم تصبح له مَلَكة بعد. يحتاج وقتاً حتى الوصول إلى التأثر القائم. أرجَع الهاتف إلى مكانه وسمع حفيفاً من غرفة كاوة.

عاد وتغطى بالبطانية ولم يمض الكثير حتى راح في غفوة.

علّمت الحياةُ داوُد أنه في غرفة، وبعيداً عن أفراد عائلة ينامون بالقرب منه، فإن عليه أن يستيقظ في الوقت المحدد. لو كنت تفكر قبل النوم في أيّة ساعة تُفتح عيناك فعلى رأس الساعة المحددة ستنفتحان. تذهب روكسانا في الصباح الباكر إلى العمل. استيقظ ودون أن يشغل ذهنه بتردد البارحة، تناول طعامه وخرج من البيت. انقبضت عضلاته حين ذهابه إلى الموعد وهذه علامة على عدم وصول ساعة الذهاب للموعد، فعضلاته مناسبة مثل ظهر قِطّ. هذا ما علمه إياه سعيد. لو مثّلتَ سوف تنقبض عضلاتك في المشهد. فقط في نص الحياة وفي مواجهة الأهداف الضرورية تسترخي العضلات.

استرخت العضلات وسرعان ما عادت إلى طبيعة الحياة الواقعية، وقلّب فكره كيف يفتح مع روكسانا الموضوع، وإذا لم تستطع اقناع كاوة بأنه ليس أباً فكيف يمكنه الانفصال عنهما. إنه بالتأكيد لا يستطيع. مرة أخرى انقبضت عضلاته وبات المشي مرهقاً.

قال لنفسه: «الآن، وبما أنه تقرر التأثر بحياة الأثرياء، فلسوف أختار أغلى معطف في الدكان. ليعرف من سيواجه».

كان باب الصالة الرياضية مغلقاً وكأن أصوات الصراخ لم تصدر منه البارحة. تذكر صفحات رواية باسترناك حيث الأبطال الأساسيون. ثلاث وثلاثون اسماً من المقرر سماع صراخهم طوال تقليب ورق الرواية. اجتاز فم الزقاق المحاذي للسينما دون أن يلقي نظرة عليه، وفجأة رأى الرجل المهيب يقف رافعاً شمسية تحت أغصان شجرة ما زالت تذرف الثلج على الرصيف. بدا وكأنّ نوراً هناك يعمي البصر صادراً من الزقاق. توقف داوُد، ومع توقفه ورؤيته للرجل المهيب تذكر برودة الجو. عدم وجود شمس أزاد من قرصة البرد. فجأة أخذته رعدة مفاجئة وأراد الصراخ: «ألا تراني أرتجف. لماذا تقف مثل تمثال. أسرع». ولكن مجموعة طلاب مدرسة هجموا ومروا بين الرجل المهيب وداوُد وهم زاعقين، غاب عنه هيجانه واهتزت الشجرة شبه الميتة، ومرة أخرة وقع بينهما حرير من الثلج. ضاع الرجل المهيب بين الثلوج، وحين توقف الثلج فطن لوقوف داوُد. صرخ: «أها. إذن أتيتَ. أنت متقبل للمسؤولية! أبارك لك».

اقترب. كان ذهن داوُد مشغولاً بهدف تبريك الرجل المهيب، تقدم خطوة باتجاهه ومدّ يده: «سلام».

حوّل الرجل المهيب الشمسية من يد لأخرى ونزع قفازه وقبض على يد داوُد: «كم هي باردة يدك! يبدو أنّك مصاب بفقر

دم. كنت قلقاً منذ البارحة من أن تتلاشى ملامحك من ذاكرتي وتأتي على الموعد فلا أستطيع تذكرك، وتعود غاضباً. قلت لنفسي قد يكون خجولاً ولا يخرج بسهولة لملاقاة الشمس. سعيد أنا لأني شخّصتك ما أن رأيتك».

أمسك الرجل المهيب بيد داوُد فلربما تدفأُ قليلاً. ثم خطا خطوات خفيفة متجهاً إلى الزقاق. رافقه داوُد. قال الرجل المهيب: «تفضل فالمحل في نهاية هذا الزقاق. أنت ترتجف من شدة البرد!».

قال داوُد ضاحكاً: «يبدو أنّه منذ أن نبهتني البارحة بتُّ أرتجف أكثر. لم أكن هكذا في السابق. الجو بارد ولكن لم أكن أرتجف».

قال الرجل المهيب: «أنت تمزح. البرد هو البرد والجسد لا يتحمله. لقد صُنعت الثياب من أجل هذا. كنتُ مثلك حينما كنتُ شاباً، ولم تكن لدي طاقة لشراء الثياب وارتدائها. شيء زائد وغير مهم. مثل المنديل الذي يمسح الإنسان به أنفه. ولكن الأيام علمتني أن الثياب تعني البشرية. الناس لم تجرب مثلي معسكرات الأسر الوحشية، يقولون بكل سهولة أن الفارق بين الإنسان والحيوان هو العقل. يقولون هذه الجملة لي فأضحك منهم وأقول لهم هل تتصورون أنكم عقلاء جداً، لكنكم لا تعلمون أيّ وحش يتنفس في داخلكم. ما قيمة العقل؟ الفارق بين الحيوان والإنسان هي الثياب».

قال داوُد: «كلامك يذكرني بالأحلام. أرى وباستمرار نفسي عارياً وخجولاً. كلامك هذا ذكّرني بتلك الأحلام».

قال الرجل المهيب: «الخجل. أية كلمة هذه! لا معنى لها بالنسبة

لي. الثياب لأحلامك تبعد الخجل؟ حسناً. لن أناقشك. بالنسبة لي فإن الشيء الذي يحافظ على جسدي من الحرارة والبرودة أحبه. لنذهب!».

سارا معاً إلى نهاية الزقاق. نظر داوُد إلى النافذة التي كانت المرأة فيها يوم أمس. تابع الرجل المهيب نظرة داوُد وسأله: «هل هناك ما يلفت انتباهك؟».

قال داوُد: «كلا».

وصلا إلى باب الدكان. حركّ داوُد خطوط جبهته من بتأثير الفكرة التي تختلج في داخله وقبض على يد الرجل المهيب حتى لا يدخلا الدكان. قال: «والآن، وبما أنك مصرّ على أن تشتري لي معطفاً فسأقول لك هنا، سآخذ أغلى نوعية موجودة. وإذا كنت لا تود الدفع فلنعُد أدراجنا».

مرر الرجل المهيب كلام داوُد في ذهنه. ضحك: «لا يمكن حدوث الأفضل. أنا مستعد من أجل صراحتك أن أفدي روحي». ثم تحولت ملامح وجهه إلى الجدية وبقي لثوان على هذه الحال. كأنه تحجر مرة أخرى. حينها ضيّق عينيه وقال موجهاً ضربة: «هل إنك تخيف السمكة بالماء؟ ادخل يا فتى».

وجه بكفه ضربة للباب. ابتعد الباب عن إطاره. حينها ألصق كفه على الباب ودفعه. قام بذلك كأنه يعبر من حدود مملكة إلى دولة أخرى. فُتح الباب مُصدراً صريراً. في الداخل صالة كبيرة لا تُرى أرضيتها. علقت في البداية ثياب على قضبان تعلو متراً عن الأرض.

رائحة القماش توقع الخوف في قلب الإنسان، خوف أن يرمي عابث عود ثقاب سيجارته تحت الثياب. هناك أصوات ساحبات هواء من عدة أماكن، والإضاءة ليست بتلك القدرة على إنارة المكان بأكمله.

قال الرجل المهيب: «هل ترى؟ كل هذه الثياب. يفرحني كل شيء متراكم. هذه الثياب خُيطت وصفّت هنا منذ أشهر. هل لدى هذا الرجل عقل في رأسه؟ من ترى يفتح محل ألبسة في زقاق يقع خلف سينما تتصاعد من جدرانها رائحة البول الخانقة؟».

قال الرجل المهيب هذا وهو يحول شمسيته إلى عصى، ضارباً الأرضية الخشبية بها، سائراً بين الثياب. كان داوُد يتبعه. كانا يمران بين الجاكيتات والمانتوات(*) النسائية. بعد فترة سير وصلا إلى قسم البدلات الرجالية. رائحة الصوف ملأت أنفيهما.

قال الرجل المهيب: «أين أنت أيها العجوز؟ أحضرت لك زبوناً. تركت المحل برعاية الله ورحلت».

قال صوت من الناحية اليسرى بين البدلات: «لا تخف. أنا هنا».

وقف الرجل المهيب ونظر إلى حيث يأتي الصوت. كان بينه وبين الصوت جدار من الجاكيتات. مدّ شمسيته وقرّب مقدمتها ناحية أكمام البدلات وأزاحها. كان رجل البارحة جالساً يخيط أزرار جاكيت. عيناه شهلاوتان وتشعان مثل كرتين بلوريتين وكأنهما

(*) المانتو رداء طويل مفروض ارتداؤه على النساء في إيران. أصل الكلمة فرنسي.

زرّان على الجاكيت. التفت الرجل المهيب إلى داوُد: «تعال. وهذا هو السيد مختارنا. أكبر مُصنّع ثياب في آذربيجان، وأيضا أكبر مورّد للثياب التركية والروسية. وهو من يدير كل هذا المكان وحده. لأنه لا يتقبل أي إنسان. لا تنظر له الآن، فقد انحنى ليخيط الأزرار. إنه أستاذ ورئيس الاتحاد أيضاً. لا يحرمه الله من عملاقيته».

أطرق داوُد برأسه وألقى التحية وانتظر أن يحدثه عن البارحة. قال (مختار) وهو يضم عينيه وخيوط البكرة بين شفتيه: «الظاهر أنك لست غريباً عليّ. في أي معمل تعمل؟».

قال الرجل المهيب: «لم تره في أي مكان. كن مطمئناً. جئنا لنشتري معطفاً. هل مازال لديك من تلك المعاطف الروسية ذات الفراء؟ أحضر لنا واحداً على مقاسه. أريد شيئاً جيداً».

ودون أن ينظر الرجل العجوز إلى الزر والإبرة أخذ يخيط بسرعة ممرراً الإبرة من الثقوب الأربعة ساحباً الخيط. نظر إلى حجم داوُد وكأنه يأخذ مقاساته: «لا أعرف. عليّ أن أرى هل لدينا أم لا. قبل أيام أعطيت بعضها إلى مجمّع (ولي عصر)».

التفت الرجل المهيب إلى داوُد وقال بصوت أهدأ: «من هذه اللحظة لن أُبدي أيّ رأي. ما تقترحه سنأخذه. وإذا لم نحصل على ما يناسبك سنذهب إلى مكان آخر. ما يكثر في هذه المدينة هم مورّدو الثياب من تركيا وروسيا. سوف نبحث حتى نجد معطفاً يناسبك». ثم التفت إلى مختار وقال: «ما هي أخبار الاتحاد؟ أما زلت تتشاجر مع الأعضاء؟».

قال مختار: «ماداموا لم يحصلوا على الترخيص فهم طيبون. يعظمون المراقب. ولكن إذا حصلوا على الترخيص يذهبون ولا يلتفتون خلفهم حتى يقعوا في حاجة القرض».

ابتعد داوُد عن الرجل المهيب. سببت حركته في إبعاد خط الثياب المعلقة. ذكره ابتعادها بمشهد المسرح وعاد إلى عيش لحظة المسرح. كرر دوره لنفسه. عاطل عن العمل يحب محافل الفن يستيقظ ظهراً من النوم. يخرج من البيت في الغروب قاصداً جمع أصدقائه ليناقشوا كل قضية تتعلق بالفن، ويعود في ساعة متأخرة للبيت. بالعربة؟ ولِمَ لا؟ وهذا محل ثياب كبير فيه أفضل ثياب المدينة. واليوم جاء يشتري معطفاً. لماذا؟ ليس بسبب أن الجو بارد وكل مكان متجمد والأذنان تتألمان من شدة البرد. بل لأنه يريد البدء بقراءة رواية الدكتور جيفاغو ووعد أن ينهيها. لمقاومة موجة البرد الضاربة لروسيا المقصوفة بالحرب.

قطع الرجل العجوز الخيط بأسنانه ونهض. قال: «اتبعاني».

مدّ الرجل المهيب يده مجاملاً داوُد ليتقدم ولكنه كان غارقاً في أفكاره. قال الرجل المهيب: «ها! أين أنت يا رفيق؟».

خرج داوُد من بين الثياب وتبع الرجل العجوز. ثم تبعهما الرجل المهيب. سار الرجل العجوز إلى نهاية الصالة ونزل السلالم. توقف داوُد عند السلّم. يفضي السلم إلى مكان مظلم. كانت الصالة بعيدة بما يكفي عن الشارع حتى لا تصل صرخة إليه فما بالك بنزوله إلى القبو. تلقى الرجل المهيب بفراسته قلقه. وضع

يده على كتف داوُد من الخلف وقال: «سأنزل وأحضره لك. انتظر أنت هنا».

قال هذا وأنزل بداية شمسيته ثم أدخل رجليه، وما أن اختفى رأسه التفت داوُد خلفه، كان طريقه إلى باب الدكان يمكن قطعه بصورة لا يتمكن معها الرجل المهيب ولا العجوز من اللحاق به أو منعه. فجأة بدأت تتزايد ضربات قلبه. احمر وجهه من هجوم الدم عليه. قال يكفي إلى هنا عيش المشهد. لم يعد باستطاعتي إكماله. اتجه إلى الباب. عبر بكل خفة من بين الثياب لكي لا تمسها كماه. كان يشعر في أذنيه بصوت ضربات قلبه. وكأنه ليس مسموح له الالتفات إلى الخلف. هكذا سار من بين رائحة الثياب في صمت حتى الباب. وقبل أن تمتد يده ويمسك قبضة الباب، توقف كأنه كان يتمشى حدّ الباب. التفت ليرى هل لاحظ أحد ابتعاده. في نهاية الصالة حيث طريق السلم رأى رأس الرجل المهيب حتى رقبته وهو يراقبه مرتدياً نظارته السوداء: فتح داوُد الباب هل يخرج أم لا. حرك داوُد يده للرجل المهيب. ولكن رأس الرجل المهيب بقي في مكانه كأنه رأس دمية عرضٍ انفصل عن جسده. كان ثابتاً إلى هذا الحد. وضع داوُد يده على مقبض الباب. لمسه. بارد. ضغط عليه آملا أن لا يكون الباب مقفلاً. أصدر صوتاً وانفتح. ابتسم مرة أخرى لرأس الرجل المهيب وفتح الباب وأخرج أولاً قدمه اليمنى ثم اليسرى. ثم قطع كل مسافة الزقاق راكضاً. دخل الرصيف وقصد ميدان الساعة، ولن يستغرق الأمر ربع ساعة من الزمن حتى يصلها سيراً، ربع ساعة بخطوات خريفية حين تُغطى

الأرصفة على قدر استطاعتها بالأوراق اليابسة التي تتكسر تحت الأقدام. مازال الوقت شتاء والثلوج المتجمدة على الأرصفة لم يُذِبها الملح المرشوش عليها، ستضاف عشر دقائق أخرى إذا لم تحسب تصادم الأجساد التي تتزحلق من الثلج. وعلى هذا المنوال فإن داوُد سيصل بعد نصف ساعة إلى باب المستوصف.

إنها المرة الثانية التي يذهب فيها إلى مكان عمل روكسانا. في المرة الأولى لم يكن كاوة في المدينة، ولكنه سلّم داوُد مهمة عبر الهاتف لكي يرافق روكسانا إلى بيت صديقتها. لأن منزل صديقتها يقع في حارة قصية مملوءة بعزاب أشرار. كان الفصل شتاء ولكي يصلا بسرعة مرّا من وسط بساتين. كانت روكسانا تضحك طوال عبورهما البستان الذي توزعت فيه أشجار اللوز بكثافة، وكان الثلج يصل إلى ركبتيهما، قالت: «ما الذي نفعله في هذه الظلمة وسط هذا البستان؟ لو علم كاوة سيسوّد حياتي». وكان داوُد يطمئنها: «لا تخافي. لن أذكر له عبورنا من البستان. علاوة على ذلك فإن البستان أكثر أماناً من الشارع. لأن الأشرار لا أثر لهم هنا، الخطر الوحيد يأتي فقط من الكلاب السائبة. والكلاب لا تتعب نفسها للخروج في هذا الثلج العميق. إذن لا مكان للقلق».

حدث هذا الاجتياز برفقة روكسانا من قلب البستان تحت ضوء القمر الفضي وجرح الثلوج البكر، حدث قبل عام، ولم تسنح فرصة أخرى لكي يتحدث داوُد مع روكسانا دون ظلّ كاوة. دخلت روكسانا الانقطاع قبل داوُد، ولم تعد قطّ إلى روكسانا مرتدية الحذاء

طويل الرقبة التي تركض بين الأشجار منقطة الأنفاس وتطلب العون من داوُد وهي تقفز فوق قنوات المياه ووجنتاها تتوهجان مثل وجنتي فتاة.

دخل داوُد المستوصف واتجه إلى قسم الأشعة. أمام الباب، وُضعت علامة خطر أشعة أكس. دفع الباب دون عناية فشعر به مقفلاً. طرق الباب بمؤخرة يده. في الجانب الآخر فتح شخص الباب. رجل ارتدى معطفاً أبيض، شعره ذهبي وذقنه محلوقة جيداً. قال داوُد: «عذراً على الإزعاج. هل السيدة روكسانا آقاخاني موجودة؟».

وضع الرجل اصبعه في أذنه وهزّه. ثم أخرج إصبعه ونظر إلى مقدمة اصبعه. ضيق عينيه وقال: «ماذا تريد منها؟».

أدار داوُد رقبته ونظر إليه وأخذ نفساً عميقاً وضيق عينيه وكرر سؤال الرجل مع نفسه: «ما الذي تريده منها؟». مؤكداً على فعل جملته. عقد حاجبيه وقال: «أنا شقيق لزوجها. هذا أولاً. ثانياً لا دخل لك ما الذي أريده منها. فلتنادِ عليها بسرعة ولا تتدخل».

انصدم الرجل من ردة فعل داوُد ورفع اصبعه إلى ذقن داوُد، سحب داوُد مقبض الباب ناحيته بسرعة. انحشرت ذراع الرجل بين الباب وكأن داوُد يريد كسر يده. خرج صوت توجع الرجل لكنه ليس بالصراخ، خوفاً من سماع الآخرين له: «اترك يدي يا قمامة».

ابتعد داوُد عن الباب وسحبه. قال بكل هدوء: «نادِ على روكسانا وإلا سوف أحطم يدك يا ديوث».

صاح الرجل بكل ما يملكه من قوة: «سيدة آقاخاني!»، كان صوته مجرداً من أيّ احساس. وكأنه لم يحدث شيء. ثم قال حانقاً: «اترك يدي يا وقح يا سمج!».

كان صوت روكسانا يقترب من الجهة الأخرى. ثم ظهر وجهها وعيناها مفتوحتان باتساعيهما. قالت لداوُد: «أنت؟ اترك يد الدكتور. لماذا تفعل ذلك به؟».

قال داوُد: «الرجل فضولي وأردت تأديبه. آكل الخراء! لأكسر ذراعه».

الدكتور الذي التوى فمه من شدة الألم قال لروكسانا: «اطلبي منه أن يترك ذراعي. وإلا فسوف أشتكيه».

ترك داوُد الباب ورفسه وهجم على الدكتور وقبض على رقبته: «تشتكي؟ لنرَ يا ديوث! اشتكِ».

بعد أن سمع الجميع تبادل الأصوات تجمعوا أمام الباب. قال داوُد: «حسنا تقدم بشكوى».

ثبت الدكتور رأسه عاليا ولم يقدم على أي حركة. كان صوته يخرج من فمه مخنوقاً وقد وقف مثل عمود. واضح أنه تراجع وأن الخوف يملأ جسده.

صرخت روكسانا: «يكفي. لا تفضحنا».

وصل عدة رجال يرتدون صديريات بيض مع رجل يرتدي بزّة. سأل لابس البزّة: «ما الذي يحدث؟ اترك الدكتور».

لم يجبه أحد. ترك داوُد رقبة الدكتور ودفعه إلى الجدار. ارتطم الدكتور بالجدار وأخذ يفرك رقبته. التفت داوُد ونظر للجميع. كانت ثمة ابتسامة على شفتيه ورفع يديه ممسرحاً المشهد قائلاً للجميع: «لدي حاجة مع هذه السيدة. أنا شقيق زوجها وقد طرقت الباب بكل أدب وطلبت من هذا السيد الأحمق الفضولي أن ينادي على السيدة. وبدلاً من أن يستجيب لطلبي، طلبَ مني شرح علاقتي معها وما الذي أريده منها. أيّ فضول هذا! كنتُ مجبراً لمعرفة ما الذي يحتوي عليه اللبن من زبدة، أن أوبخه بصورة مختصرة. كان عليّ دقّ عنقه».

لا يعرف الدكتور هل يدلك ذراعه التي احمرت أم رقبته التي مازالت تحمل آثار أصابع داوُد. قال: «يكذب مثل كلب. سوف أشتكي هذا القمامة».

زجرت روكسانا الدكتور: «لو تماديت فكل ما ستراه ستكون أنت السبب فيه يا دكتور. اصمت ما دام ماء وجه المستوصف محفوظ، وأنهِ القضية». حينها قبضت على كم داوُد وأخرجته.

راح داوُد مقلّداً الدكتور بوجه حمل تعابير ابتسامة ابتزازية: «خلصوني من القمامة».

وجهت روكسانا لكمة إلى صدر داوُد: «قلت لك اخرس!». واقتادته إلى باب الخروج. كان داوُد يتقدم بتأثير من دفعات روكسانا ويضحك، قال: «هل رأيتِ اللعبة بحق الإله؟ ثم إنه لا يسمح لي سعيد بالصعود إلى صفّ أعلى».

أخرجته روكسانا من باب المستوصف وقالت: «ما الذي تريده مني؟ هل أرسلك كاوة؟».

وضع داوُد يديه في جيبيه ونظر للسماء: «كلا. إن لدي حاجة عندك يا سيدتي!». قالت روكسانا: «ليس مسموحاً لك اعتباراً من هذه اللحظة الحضور إلى مكان عملي دون إذن. ابقَ هنا!». ثم نظرت للحارس العجوز الطويل وقالت: «حاذر أن يدخل حتى أعود».

قال الحارس: «حاضر يا دكتورة».

عادت روكسانا للداخل. فتح الحارس نافذته أكثر وقال: «ما الذي حدث في الداخل؟ هل أنت مصدر الضجة؟».

لم يجبه داوُد.

تقدّم الحارس إلى الأمام وقال: «ما الذي حدث؟».

خرجت روكسانا. التفت داوُد إلى الحارس وقال: «قل لهذا الدكتور من جانبي أني سوف أعود له».

أعطى داوُد ظهره للحارس وقدم يده مجاملاً روكسانا: «أرجوكِ من هنا».

كانت روكسانا لاتزال مرتبكة. قالت: «ما الذي تريده مني؟ قل بسرعة».

قال داوُد: «ألا تودين دعوة شقيق زوجك لغداء؟».

ترددت روكسانا ونظرت إلى طرفي الشارع. أحسّت برجيف داوُد. قالت: «لماذا ترتجف؟».

أمسك داوُد بذقنه قائلاً: «من البرد يا سيدتي!».

تحركت روكسانا بسرعة إلى الشارع: «تعال بسرعة. سوف تصاب بالزكام».

أخذ سعيد من بازار (شيشه كرخانه) صمغاً وكرتوناً لديكور مختصر وكان يسير إلى (المقصودية) حين رأى جندياً جالساً على مقعد تحت شجرة، عاقداً يديه خلف رقبته. وما أن رأى الجندي سعيداً، حتى سحب من خلف أذنه سيجارة عرضها أمام سعيد قائلاً: «هل لديك نار؟».

قال سعيد: «لدي». وضع ما اشتراه على المقعد بجانب الجندي وأخرج من جيبه علبة ثقاب وأشعل له السيجارة. قال: «كم مضى من خدمتك العسكرية؟». قال الجندي: «بقيت خمسة أشهر. وأنا على استعداد لأموت ولا أعيش هذه الأشهر الخمسة. لم أعد أتحمل».

أعاد سعيد علبة الثقاب إلى جيبه وجلس إلى جانب الكرتون وقال: «وأين يقع مكانك خدمتك العسكرية؟».

أخذ الجندي ثلاثة أنفاس قوية ونفخها. كان الهواء يأخذ الدخان إلى قميص سعيد ليستقرّ عليه. ما أن رأى الجندي ذلك حتى قال له:

«تعال واجلس في هذا الجانب حتى أقصّ عليك. هل أخذت هذه الأشياء لأعمال يدوية؟».

جلس سعيد في المكان الذي أخلاه الجندي له. قال: «لا. وقد يكون عملاً يدوياً».

لم يحفل الجندي بإجابة سعيد. جلس مكان سعيد وهو يحدق لظهر امرأة ترتدي شادوراً حريرياً وقفت أمام محل لبيع الاحذية، قال: «أنهي خدمتي العسكرية في القصر».

قال سعيد: «في شارع القصر؟».

هزّ الجندي رأسه متألماً: «لا يا ابن مدينتي. في نفس القصر. أعصابي محطمة. تعبت من كل ما يمتُّ بصِلة للقصر والشاه. أخدم في المكان الذي تمّ فيه تتويج ناصر الدين شاه. قاعة السلام هل سمعت بها؟ قاعة «آينه»(*)؟ إما أن أتواجد في قاعة السلام أو آينه. آه».

قال سعيد «أنا لا أفهمك».

قال الجندي: «يا أخي، في طهران، قصر كلستان. هل تعرف شارع ناصر خسرو؟ هل رأيت شمس العمارة مقابل زقاق مروي؟ عليّ أن أجلس منذ الصباح حتى المساء في تلك الخرابة على كرسي، وعليّ الانتباه على الزوار لكي لا يلمسوا أي شيء. هنا تتلخص مأساتي. تعبت من كل ما هو قصر وشاه ووزير».

(*) آينه، تعني المرآة.

ضحك سعيد. قال «الآن فهمتُ. أنت في مكان راقٍ. لماذا أنت حزين؟».

عضّ الجندي بحرص على عقب السيجارة وقال: «أنت مثل البقية. كل من سمع كلامي ضحك عليّ. يخبرونني بحظي الجيد إذ ذهبت للقصر. هل كان من الأفضل لو أرسلوك إلى منحدر حيران(*) لتحرس؟ هل يعذّبك الجلوس في قصر ملك القاجار؟ حيث لا ترى برد الشتاء ولا حمّارة القيظ. ولكني أقول إن الحدود أرحم لي بألف مرة. أنا ابن قرية. عليّ المشي. لا يمكنني الجلوس لساعات أنظر فيها إلى الأبواب والجدران المزينة بالمرايا وأحدق دائماً في تمثال لناصر الدين شاه متربعاً على عرش الطاووس. وما الذي يعنيني من كل ذلك؟ إضافة لذلك هناك المكان جيد. وضعوني شهراً كاملاً في صالة الأواني. جننت هناك. لقد صفوا أواني لا تعرف بعضها البعض في خزانات يأتيها خلق كبير، وكأنها ليست مخصصة للأكل. ويختلق الأدلاء السياحيون قصصاً عن هذه الأواني، حينها تسوء حالتي كثيراً. كنت دائماً ما أشتمهم دون علمهم. هل رأيت قصر كلستان؟».

قال سعيد الذي كان يدخن بهدوء وتوزعت نظرته على أجزاء وجه الجندي: «كلا، كنت في زمن ما طالباً جامعياً في طهران. ولكن لم تواتني فرصة للذهاب».

(*) هي قرية حدودية في محافظة غيلان، تفصل إيران عن جمهورية آذربايجان.

قال الجندي: «أكيد. لذا فلن تفهم ما أقوله».

قال سعيد: «ولكني ذهبت إلى قصر نياوران».

قال الجندي: «لم أذهب اليه. هل بات ذلك القسم جزءاً من المدينة؟ ما نفع كل هذه القصور؟ المدينة هي هذا المكان الذي ليس فيه قصر. لأن لا إنسان فيه عاطل عن العمل، القصر للسفهاء والعاطلين عن العمل. فلتذهب إلى شاه المملكة، لقد كان يرسم من عِظم حجم عطالته. هنالك لوحتان في تلك الخرابة. لوحة لفرس صاحب مقهى وأخرى لامرأة».

ابتسم سعيد هازئاً وقال: «بالطبع، كان شاهاً. على الشاه أن لا يعمل. مثل تلك الأشياء التي ذكرتها». وأشار إلى واجهة دكان أمامهما: «مثل هذه الواجهة لهذا الدكان. لماذا اصطفت هذه الأحذية في تلك الواجهة؟ لن تستطيع القول لأنه لم يرتدها أحد في الواجهة ولا يسير بها أحد فهي دون فائدة؟ كيف تشتري حذاءك؟».

قال الجندي: «يا سيدي، حتى لو لم تكن هنا هذه الواجهة فأنا أعرف كيف أشتري حذائي. وهل هناك واجهات مثل هذه عند الإسكافي؟ ليست عنده. لا يحتاج شراء الحذاء كل هذه الأوضاع. انظر له! لقد وضع أيضا على أرضية الواجهة قطعة قماش لامعة وتمثالاً. آه. من كثرة رؤيتي لهذه الزينة في القصر صرت أشعر بالغثيان الآن. آه».

كان سعيد يكلم نفسه: «انظر لمن أرسلوا إلى ذلك المكان. ليس العيب فيك».

رمى الجندي عقب سيجارته خلفه وقال: «تفضل اشرح لي أين خطئي؟».

قال سعيد «خطؤك أن رأسك عصيّ».

رفع الجندي قبعته وقال: «ماذا تعني بأنّ رأسي عصي؟».

قال سعيد وهو مازال ينظر إلى واجهة الدكان: «أي أنك ليس لديك خيال. وإلا لما أهدرت الوقت في القصر. عام وأشهر. فقط بدل الجلوس والسخرية والغضب، تخيل أنك أنت الشاه».

ضحك الجندي ولعب بقبعته في الهواء: «ممتع جداً. ألقِ نظرة عليّ. هل يليق بي أن أكون شاهاً بوجهي الذي لفحته الشمس وقرعتي وثياب التجنيد الأنيقة هذه. ظننتُك تريد قول كلام يُحسب له ألف حساب».

قال سعيد: «ليس من اللزوم أن تقنع أحداً أنك الشاه. دع ذلك في خيالك. سوف يساعدك القصر والقاعات وعرش الطاووس. للأسف أنهم وضعوك هناك. لو وضعوني أنا لرأيتني أيَّ شاه أصبح لنفسي. ولن يفطن أحد. أنا درست المسرح وأمتلك خوض مثل هذه التجارب. وما العيب في تجربة عيش السلطنة. بعد هاتين السنتين سترى أي دور ملكي سأمثله. إن كل واحدة من تلك الأواني التي أتعبَتك لها قصة. رأيت نظيراتها في قصر نياوران. هدايا الأوروبيين. اجلس بدلاً عن الغضب وتخيّل لأيّ سبب منحوك هذه الهدية. ثم تخيل إذا ما جلست على الكرسي، أن الرسامين يرسمونك».

عقد الجندي حاجبيه وقال: «في القاعة هناك تمثال لكمال الملك(*). رسام ناصر الدين شاه. عاطل وتنبل!».

قال سعيد: «حسناً، تخيّل أن كمال الملك يرسمك. ما الذي كان سيعتريك؟ لو أردت أن تعرف جيداً ما أعنيه تعال غداً الساعة الخامسة على هذا العنوان. لدي درس مع الشباب حول التخيّل. علينا عبر التخيل أن نرى إلى أين نصل». أخذ ورقة من حقيبته وكتب له عنوان القاعة. تناول الجندي الورقة إيّاها ثم قرأها. مدّ سعيد بيده وأمسك يد الجندي ضاغطاً عليها. قال الجندي: «قد آتي. لم تقل لي ما اسمك».

قال سعيد: «أنا سعيد. لا أودّ أن تهدر الأشهر الخمسة الباقية لك. تعال».

أخذ الكرتون والصمغ وسار. كان الجندي ينظر له حتى غاب وسط الحشد ثم عاد إلى واجهة الدكان.

(*) محمد غفاري المعروف بكمال الملك، من أشهر الرسامين الإيرانيين المعاصرين. سافر إلى أوروبا وعاد في فترة حساسة من تاريخ إيران حيث تزامنت عودته مع الثورة الدستورية.

فوق باب المطعم وُضعت صدَفة محّار فيها لؤلؤة كبيرة لامعة. خاف داوُد من وقوع اللؤلؤة على رأسه ورأس روكسانا حين عبورهما، وما أن عبرا الباب الزجاجي حتى انقطع عنهما صوت الشارع وأناسه وهم يسيرون على ثلج يذوب ببطء من جراء الملح الذي ترميه فوقه سيارات البلدية. باتا الآن فجأة داخل مطعم هادئ ودافئ، عطر الزعفران فيه معلق في الجو. اختارت روكسانا طاولة تحت مصباح واتجهت إليها مسرعة لتجلس. تحرك داوُد، الذي مازال يرتجف ويبتلع الهواء الدافئ، ببطء أقل، أرجع الكرسي إلى الخلف وأسند ظهره عليه مقابل روكسانا. وصل النادل ووضع قائمة الطعام على الطاولة. احتفظت روكسانا بكلامها حتى مغادرة النادل وقالت: «أحيانا أشكّ أيّ منكما هو الأشد جنوناً؟».

قال داوُد: «حسنا، هذا أمر واعد جداً. لأن الأمر الوحيد الذي نشترك فيه هو الجنون. اليوم تأكدتِ من أني مجنون. صحيح؟».

تنفست روكسانا الصعداء وقالت: «لقد توصلتُ إلى هذه

النتيجة؛ وهي أنك في العمل أكثر جنوناً، وكاوة أعمق في التفكير».

قال داوُد: «إذن مازال أكثر خطورة مني».

أشارت روكسانا إلى القائمة وقالت: «اختر. لقد تناولت غدائي في القسم».

سحب داوُد القائمة إليه وقرّب رأسه منها وأخذ ينظر إلى الأسعار: «أيّ من هذه الوجبات هي الأغلى؟».

قالت روكسانا: «ما الذي فعلت اليوم؟».

قال داوُد: «أردت اليوم الحديث معك عن موضوع. لذلك أتيت إلى مكان عملك. لا يمكن ذلك في البيت. تصلين متعبة وكاوة أيضا موجود».

أبعدت روكسانا المملحة عن المبهرة وقالت: «لا تتحامق، لماذا فعلت ذلك بالطبيب؟».

قال داوُد: «أنا أقول الحقيقة. قلت للحارس أن يوصل له رسالة أني سأعود له مرة أخرى».

لم تستطع روكسانا السيطرة على نفسها، ضحكت. قالت: «ستذهب إليه مرة أخرى. هذه المرة سيقتلك».

رفع داوُد يده: «تفضلي. أنتِ بنفسك استمتعتِ لما حدث، ولكنك تمثلين دور المعاتِب. أنا استمتع في إغضاب الناس. بالطبع ماداموا يرخون الحبل لأنفسهم. هذا مفيد لجريان الدم».

أعادت روكسانا لصق المملحة والمبهرة ببعضهما وقالت:

«القضية ليست أنّ ردة الفعل هذه كانت من حقه أم لا. ولكن من تغير قسم الأشعة فجأة من الهدوء الدائم إلى ضجة، وسماع كلام من الطبيب لم اسمعه منه حتى ذلك الوقت. لقد أسعدني ذلك. تساقطت الهيبة والرتابة. إنني أنفعلُ من انقلاب الأمور فجأة ويسيطر الضحك عليّ. أسيطر على نفسي بصعوبة. وأنت لم تكن قليل الجنون!».

قال داوُد: «لو لم تكوني متقبلة للجنون لما تزوجت كاوة. لدينا الكثير من هذا الجنون المفاجئ. تجديننا نتبادل الشتائم وفي نفس الوقت نتبادل المجاملات لدرجة تعجّب الغريب منا. نغوص في هذا الأسلوب حتى نهايته، حتى يملّ كلٌّ منا الآخر. نفعله بحجة شجار، وكل ما يخرج من أفواهنا نحمّله على الجانب الآخر. قطعة كاملة من الحقد والشتائم».

وصل النادل. قال: «هل تفضلتما بالاختيار؟».

قال داوُد: «تفضلنا». وعرض القائمة: «من هذا. من هذا. ومن هذا. ومشروب أيضاً من هذا. وفيما بعد من الممكن من هذا».

كتب النادل كل ما طُلب في ورقة والتفت إلى روكسانا. قالت روكسانا: «لا شكراً».

أحنى النادل رأسه احتراماً وأخذ القائمة من يد داوُد ثم ذهب. قال داوُد: «انتهينا من هذا الكلام، أريد الحديث معك عمّا أسرّه كاوة لي البارحة».

قالت روكسانا: «عن أيّ موضوع؟ بالتأكيد أنه أنامني وجاء إليك».

قال داوُد: «حين وصلتُ كان يجرف الثلج من أمام الباب. كنتِ نائمة وجاء إلى غرفتي. الحقيقة كان حديثه عجيباً. لم أفهم ما قاله. لو تستطيعين مساعدتي ..».

قالت روكسانا: «أيّ حديث؟».

قال داوُد: «حكى لي قصة عن كاتب وقال إنّ ابنه هو الأب».

عقدت روكسانا يديها تحت ذقنها: «ماذا يعني؟ من أبٌ لمن؟».

قال داوُد: «أنا أيضاً لم أفهم. لذلك أردت استشارتك. كم بات المكان حاراً. من كثر ما ارتجفتُ في الخارج بات جسدي مهترئاً».

قالت روكسانا: «من شدة ضيق ثيابك. قصّ عليّ ما حدث بدقة».

قال داوُد: «قال كأني أمثل دور الأب عليه وهذا الأمر يقف أمام إبداعه الذي يصبو إليه. قال إنه هارب من أبيه وهو مرتاح بفعل كل ما يودّ فعله. ولكن يبدو الآن أني بتُّ ظل أبي في البيت وأنني أؤلمه. قال لي أظن لو أنّ الأب كان أنا من بيننا نحن الاثنين، فعليّ أن أجد مكاناً آخر».

قالت روكسانا: «فهمت. حسناً، وكان أنا من عليّ قول ما يوقعه بنفسه. يكتب كاوة أكثر الأوقات في دائرة المعارف بتكليف. وأحياناً يكتب مقالة وينشرها. حسنا؟».

قال داوُد: «طيب؟».

قالت روكسانا: «الحقيقة أنه يريد كتابة تحليل مفصّل مبدع عن عصر المغول. لو كتب مثل هذا المقال ونشره سوف يواجهه الجميع.

خلاصته هي أنه يريد مدح المغول على غزوهم لإيران. يريد قول أن خير ما فعله هولاكو هو قتله الخليفة في بغداد، وكم هو أمر جيد ما قام به أجداده بحرق مكتباتنا وقتل نسائنا ورجالنا وهدم كل شيء. المجنون يريد فعل ذلك. وكأنه يريد عزل نفسه».

قال داوُد الذي تفاجأ وبان القلق على وجهه: «لماذا يريد نشر مثل هذه المقالة؟ ألا يكفيه علمه بها؟».

قالت روكسانا: «لا. لا يكفيه. يقول أن هناك شيئاً في داخلنا علينا تسريبه. المغول حجة للتسريب».

قال داوُد: «ما هو رأيك؟ هل تكلمت معه؟».

قالت روكسانا: «ألن تضحك لو أخبرتك بما أفعله؟».

قال داوُد: «لا، وما السبب؟».

قالت روكسانا: «أنا أدعو له. يعني هو الأمر الوحيد الذي أعرفه. الدعاء يهدّئني».

قال داوُد: «حقا؟».

قالت روكسانا: «ليتني لم يكن لدي عمل غير الجلوس والدعاء له. أخاف من قلق وهيجان كاوة. أسعى عبر الدعاء إلى أن أهدّئ نفسي وأهدّئه. وقد وفّقتُ إلى حد ما. هل تعرف؟ قبل فترة وجدتُ دعاء جميلاً إلى حدّ أنّه يحملك من مكانك ويأخذك إلى البعيد حيث تاريخ الأنبياء البعيدين ويرجع بك. كلما قرأته لكاوة يتمدد على السرير ويضع كفّيه على عينيه ويأخذ بالإنصات».

قال داوُد: «حسناً، إذا كان الأمر كذلك لماذا قال لي ما قاله؟».

قالت روكسانا: «لأن داخله مازال يتنازع. إنه يبحث عن شخص مثله ليرافقه في جرأته لنشر المقالة. أنت مقابل كاوة هادئ جداً ولا شغل لك معه. لقد أخطأ في فهم هدوئك على أنه أبوّة. هذا شعوري».

قال داوُد: «أودّ أن أسمع ما يظنه بي».

قالت روكسانا: «أنت تسكت وتنسلّ إلى غرفتك غاضباً. يقول لنفسه لو كانت في ذهني فكرة مبدعة سلبت مني الهدوء، فلماذا إذن ليس في الآخرين أية حركة أو علامة عليها؟ هذا ما قاله لي بنفسه. حين يرى فكرة محددة وهو الوحيد الذي يحملها ولا يجدها عند الآخرين يقول لنفسه أخاف أنه محض خيال وليس لها أية واقعية».

جاء نادلان. على يدي أحدهما صينية. قام الثاني وبغاية الهدوء بإنزال الصحون والسلطة واللبن والمشروبات الواحدة تلو الأخرى. قال: «أتأمران بشيء آخر؟».

قال داوُد بكل هدوء: «في الوقت الحالي لا. شكراً». ورفع الملعقة.

بللت روكسانا شفتيها وأطرقت برأسها. قالت بكل سكينة: «كل جهدي هو أن أهدّئه ليُبقي أفكاره لنفسه. وفهمت طوال أعوام من الحياة المشتركة مع كاوة أن أهاجم حتى أغلي له رأسه ويؤخر مقالته، ولكن حين يكتبها عليّ أن أخرس. لأنك مهما انتقدته لا

يحفل بك. هو بالنسبة إلى مقالته مثل الدجاجة الكركة(*). لا يمكنك الاقتراب مما باضته، ستقتلك بمخالبها».

وضع داوُد ملعقته على طرف صحن الحساء الأبيض وأسند ذقنه بيديه وقال وهو محدّثاً نفسه: «عليّ في أقرب فرصة أن أتحدث معه. وعلى حدّ تعبيرك ما دام لم يتحول إلى الكرك. كم هو تعبير جميل!».

أخذت روكسانا نفسا عميقاً: «هل تعرف، أفكر كثيراً في الموت. قد يكون لهذا علاقة بكثرة قراءتي للأدعية والتفكير الكثير بالموت. كلما استيقظت صباحاً شعرتُ بالحيرة. أقول لنفسي لدي يوم آخر. ولكن كاوة ليس هكذا. يظنّ أنه سيعيش أعواماً. لماذا لا تأكل؟».

قال داوُد: «أنا أستمع لك».

قالت روكسانا: «دعنا من هذا الكلام». نظرت إلى ساعتها وقالت: «حسناً، إلى أين ستذهب بعد هذا المكان؟».

عضّ داوُد شفتيه وكأنه يفكّر بعمق ليعرف إلى أين سيتّجه فيما بعد، قال حينها: «اليوم لدي تمرين. سأتجه إلى القاعة».

وضعت روكسانا حزام حقيبتها على كتفها وقالت: «عليّ الذهاب. لدي موعد في صالة التجميل. سعدت من فعلتك مع الطبيب. منذ الغد سأدخل القسم بكل فخر».

(*) الدجاجة الكركة هي التي في حالة الرقاد على بيضها وتدخل في حالة دفاع.

أشار داوُد بعلامة إلى روكسانا وقال: «ليس لديّ مال».

قالت روكسانا: «قلت سأذهب ولم أقل لن أدفع الحساب. ألا تحتاج شيئاً؟».

قال داوُد: «لقد تفضلت كثيراً».

ضحكت روكسانا بملامح حزينة. نهضت وقالت: «لا قيمة لها. اعتنِ بكاوة».

نهض داوُد من مكانه: «بكل تأكيد» ثم جلس.

اتجهت روكسانا إلى المحاسب.

حين وصل داوُد كان الجميع قد أنهى التمارين الرياضية، وكان العرق يتصبّب منهم وهم مستلقون على خشبة المسرح. كان سعيد منتصباً يسير بين الأجساد الممتدة ويرفع بمقدمة قدمه أرجلهم وأيديهم ويتركها. وإذا كان فيهم من يشدّ عضلاته يشير له: «استرخِ أكثر، كأنه شلل».

كان داوُد في عتمة الصالة ولم يفطن أحد لتنقله بين الكراسي، قال بصوت عال: «سلام».

التفت سعيد وحدق في عتمة الصالة قال: «تقرر اليوم أن من سيتأخر فإنه من سيقود التمارين».

تصاعد صوتُ حفيفٍ وحينها كان داوُد يقفز من جدار مكان الفرقة ويجلس متقرفصاً. قال: «لا تمزح معي. في الأمس أخذت كتاب الدكتور جيفاغو لأقرأه».

قال سعيد: «إذن أعتذر منك ويمكنك العودة إلى البيت، وفي الفصل القادم سجّل في درس التخيل».

لم ينبس داوُد بحرف. بقي جالساً في مكانه. نظر إلى وجوه الممثلين التي كانت تلتفت إليه وغمزهم. ثم بابتسامة جادة نظر لهم. نزل سعيد سلالم خشبة المسرح ولمس كتف داوُد وقال: «هل سمعت ما قلت؟».

قال داوُد: «نعم، سمعت».

قال سعيد: «حسنا إذن؟».

داوُد قال: «أعترف أنك أستاذ جيد وأنا خائف الآن؟ أنا آسف. أعدك أنني في الأسبوع القادم، وبأية صورة كانت سوف أنهي الرواية، وهذه المرة القيادة معي. انتهينا؟».

قال سعيد: «لا يمكنك الصعود إلى خشبة المسرح. وإذا أردت فاجلس هنا».

نزل داوُد من الجدار المنخفض ودخل في الظلمة مصدراً أصواتاً حتى جلس على كرسي وسط الصالة. التفت سعيد إلى خشبة المسرح التي أناروا نصفاً منها وقال بصوت عال: «دورُ من؟».

رُفعت يد (آيدن): «أنا»:

قال سعيد: «ماذا كان من المقرر أن تقرأ؟».

قال آيدن: «الجريمة والعقاب مشهد قتل العجوز».

تناهى ضحك داوُد: «أووووو. أرجّح مشهد دخول المحقق إلى غرفة راسكولنيكوف. حين يقول أنت القاتل يا روديون رومانوفيتش. وهذا يدلّ على أنك مجبر على تحريك التخيل وتتكئ

على الأعمال القاسية والداكنة. القتل بالساطور». لم يأبه سعيد. قال: «سكوت! لتغلق كل الأعين. تنفسوا بانتظام وبهدوء. اتركوا عضلاتكم لتسترخي».

تمدد على خشبة المسرح. أخذ آيدن نفسا عميقاً وبدأ يتكلم بصوت آتٍ من نهاية الحنجرة: «شقة بائسة في الطابق الرابع من عمارة قديمة تقطنها مرابية عجوز. تكره هذه المرأة».

قال داوُد بصوت عال: «أعتذر. أغلقت عيني ولكن صدقوني لا أستطيع تحمل تمثيل آيدن الشبيه بقراءة صحيفة. يردد مثل الببغاء خلاصة القصة. أعتقد أن أسلوبه يليق فقط بمسرح بريخت».

ظهر صوت سعيد: «لو فتحت فمك مرة أخرى فلسوف أحرمك للأبد».

قال داوُد: «حاضر أستاذ. ولكنه كان اعتراضاً احترافياً».

أكمل آيدن: «خبأت تحت معطفك الساطور. ساطور. ساطور. ساطور. ثقيل ويجرّ ثيابك من كتفيك. تصعد السلّم. تحاول التنفس على مهل. ولكن قلبك، ورغم عدم حدوث شيء، تضغط ضرباته على قفصك الصدري. باب الطابق الثاني مفتوح. واضح من المسافة المتروكة في الباب أنّ العمال منشغلون بالرسم. رائحة أصباغ. رائحة الطلاء الباعثة على الدوار. والآن في هذا الليل، تحيل الظلمة الألوان إلى ضباب. ترى بقع الطلاء على أرضية الشقة وللحظة تخيفك. هنا بقعة طلاء وبعد دقائق ستكون فيه بقعة دم في الطابق الرابع حين ينزل الساطور على صدغ المرأة العجوز. لماذا يجب أن ترتجف اليد والرجل.

ستسير إلى الطابق، في هذه الليلة التي لا تنسى، حتى تسحب نفسك من هذه الطابق المتهالك في الوساخة والسفالة وتصعد إلى قامة نابليون. بالقتل؟ نعم بالقتل. يجب قتل هذه المرأة، عبر الجريمة التي توقِعُها بهذه العجوز ستبدأ. ستجد في ما سيأتي فرصة لقتل أناس لم يصلوا بعد إلى الشيخوخة. تعبر بهدوء من الباب الموارب وتصعد إلى الطوابق العليا. بقية الأبواب موصدة. أية ليلة هذه. لم يخطر على بالك أن تُعدّ الأمور هكذا بهذه السرعة وتكون العجوز وحيدة في بيتها. دون أن تصطدم بشيء وأن تقوم بجنايتك أو أن تقوم بتأخيرها. هذه كلها شروط خارجية أعدت لليلة ولهذه الساعة. الداخل، داخلك الآن سقف قصر جليل علقت فيه ثريات نبوغك العظيم. تريد القيام بعمل يشعرك ولو قليلاً بحالة أبطال التاريخ. كيف يمكن للأبطال، عبر قتل آلاف البشر، تحريك قاطرة التاريخ إلى الأمام؟ إذا لم يقتلوا سيقف كل شيء. بعد دقائق ستعرف كل شيء. بالتأكيد تودّ أن تعرف. لا. مازال الوقت مبكراً. لن تعرف. عليك أن تنزل الساطور على جمجمة العجوز التي كانت حياتها مدعاة لتباهي الكثرة، وحين ينزلق الدم وتستقر عيناها على انفتاح فاقد للنظرة، حينها تبدأ ساعة بطولتك بالتحرك. البطولة ليست فقط القتل. عليك بعد القتل أن تبقى هادئاً غير مكترث بما يحدث. كأنك لم تقم بشيء. ما هي إلا قيلولة نهضت منها متثائباً. الآن أنت أمام شقة العجوز».

قال سعيد: «يجب إغلاق الأعين وفتحها».

قال داوُد بتهكم: «ممتاز».

سقط النور الأحمر على خشبة المسرح. وبدا كأن كل أجساد الممثلين غارقة بالدم.

قال سعيد: «أكمل».

أكمل آيدن: «يضغط على الجرس..».

فُتح باب القاعة وتناهى صوت كاوة الخشن: «داوُد!».

رفع داوُد يده وقال: «ها! لا تصرخ. أنا هنا».

أطلق أحدهم من خشبة المسرح: «هس!».

رأى كاوة عبر الضوء الأحمر الواقع على خشبة المسرح داوُد وعبَر من بين الكراسي بسرعة ليصل إليه ويقبض على ياقته. قال بهدوء: «لماذا ذهبت إلى محل عمل روكسانا؟».

قال داوُد: «مازالوا يتمرنون. لا تفقد عقلك. اجلس وتابع».

قال كاوة بصوت أعلى: «لماذا ذهبت إلى هناك؟».

رأى داوُد أن الممثلين يفقدون تركيزهم وأنه لا طائل من متابعة التمارين، نهض وخلص ذراعه من قبضة كاوة ثم قصد خشبة المسرح: «عزيزي سعيد، أعتذر عن هذا الازعاج. مع صوت آيدن المصطنع لن أصل إلى أية جريمة. جاءنا أخي كاوة. اسمحوا لي أن يوضح لنا تحت هذا الضوء الأحمر فكرة مقالته. أعتقد أنه أكثر فائدة من تقرير آيدن».

نهض سعيد من مكانه وقال غاضباً: «اخرج. لقد جننت. كنت

أعرف أنك ستصبح هكذا. الجوائز الأربع التي حصلت عليها في المهرجان دمرتك».

انتاب داوُد الحزن: «ما الذي دمرني؟ أيّ حمار بهذا الخيال المخصي يسير إلى رؤيا الجريمة حتى النهاية؟ هل تريد خداعنا بهذه الإضاءة الحمراء؟ آيدن! طبق أصول ستانسلافسكي. لن يخرج منك ممثل. ليس لديك خيال».

قال آيدن: «اخرس!».

قال داوُد: «هل ستصبح ممثلاً بصمتي! هل كنت تروي السير إلى العجوز أم أنك كنت تقرأ مقالة؟ لو أردتم سماع مقالة فهذا أخي. لن تصدقوا، اطلبوا منه الحديث عن مقالته. كلامه ناري سيحرق مخيلتكم. حينها ستصبحون مجانين. أخي وأعرفه أكثر مما يعرف نفسه».

وصل كاوة خلف داوُد ومدّ يده لسعيد. لم يستطع سعيد ترك اليد دون استجابة. فمدّ له يداً وهو جالس. قال كاوة: «أعتذر. لم أكن على علم بتمارينكم. لقد قام داوُد بعمله اليوم من تلقاء نفسه وحطّم أعصابي. لم تكن هنالك حاجة للتدخل في تمارينكم».

قال سعيد: «أنا مسرور بالتعرف إليك. مع الأسف أننا في حالة التمارين».

قال داوُد: «كنت أظن أني سأسدي معروفاً لأخي. ولكن لا يهم. أودّ كثيرا أن يعرفوا ما الذي يدور في رأسك. أقسم بتراب هذا المسرح أنه سيكون مفيداً لهم».

قال سعيد: «أنا متحمس لسماعه. ولكن أرجوكم الآن أن تلتزموا الهدوء وتدعوا آيدن ليقود المخيلة».

خجل كاوة وقال: «الحقيقة ..».

ربت داوُد على ظهر كاوة: «كاوة! هذه تجربة جيدة. دعنا نجلس ونغمض أعيننا. يريد آيدن أن يصنع منا راسكولنيكوفاً ويرسلنا مع ساطور إلى العجوز. وأعتقد أنك تميل لذلك. لِنرَ إن كنت تملك جرأة إيقاع الساطور لتصبح بطلاً أم لا».

تقدم كاوة إلى الكراسي. همس في أذنه: «تريد إيقاعي في لعبة سيئة لأنسى؟ اطمئن لن أنسى ما فعلته اليوم».

قال داوُد متململاً: «هل قالت لك روكسانا؟».

قال كاوة غاضباً: «لا. لقد اتصل بي الدكتور. إنه يريد تقديم شكوى».

قال داوُد: «فليأكل خراء. لقد اتصل بك من خوفه. من يريد القيام بعمل لا يثرثر. يقدِم عليه لا غير. آه أي إنسان عديم الحياء. حسنا اتضح الأمر الآن. عليك التصرف هكذا، حكمت عليّ مسبقاً».

قال سعيد معاتباً: «أرخوا الأجساد. أغلقوا الأعين. صمت. آيدن ابدأ من أي مكان تودّ».

همس داوُد: «اجلس الآن واغلق عينيك يا صاحب المقالة المثيرة».

جلس كاوة ورفع ركبتيه وألصقهما بظهر كرسي. أغلق عينيه.

وأغلق داوُد عينيه أيضاً وغاص في كرسيه حتى لم يعد يراه من يقف على خشبة المسرح. مازال الضوء الأحمر يدور.

قال آيدن: «كانت العجوز تسير بعصبية متعثرة بها معها. تثرثر لماذا كل هذه الخيوط عالقة بها. لم يعد لكلمات العجوز من معنى. هي في حكم أصوات تشطر الصمت الذي يقف بينك وبين ذلك الرأس الذي سيستهدفه الساطور. تحرر الساطور من تحت المعطف. كم هو ثقيل وعكر ولا يتوافق مع جسد العجوز النحيف. هل هذا منصف؟ الساطور وهذا الجسد العاجز؟ لا عدالة بين الاثنين. تلمس الساطور تحت المعطف. تكلم نفسك من المقرر أن يسقط عليها. هل سيسقط بصورة صحيحة؟ هل سيفعل ما عليه فعله؟ تفكر أن لا دخل بين الساطور برأسه الحديدي والموت حيث خروج الروح. الحديد لا يؤثر أبداً على الروح. فقط بحجم ما ينزل بصورة قاطعة ودقيقة ليوقف الجسد عن العمل. الروح لا تبقى. لا تبقى الروح والجسد ممتزجان. فقط هذا، ما يؤلمك وساطة الساطور في محو الجسد. ليتني تصيبني قوة مثل هذا الجنون الذي يمر بك أحياناً، والذي يفصل الساطور دون وساطة الروح عن جسد العجوز. ليت. ولكن قد يكون القديسون وحدهم من يملكون ذلك. هؤلاء خارقو القوة. أفضل من نابليون ومجايليه. على الأبطال عدم دخول مثل هذه المعاناة. عليهم بالقوة وبالحديد أن يقتلوا. عبر التمزيق، الكسر. كانت العجوز مثلما هي دائما رأسها عارٍ. شعر لامع ابيضّ القليل منه في الخلف ومدهون قليلاً، وضفيرة مثل ذيل فأر. ومشط العظم الذي تمشط به شعرها. ترفع الساطور للأعلى. تنزع الخيوط

عنه. يحاول قطع الخيوط بأسنانه. فجأة تسمع رائحة. رائحة كل العجائز. تسمع هذه الرائحة في المسافة التي تفصل الساطور عن الشعر المعقود ويمر سريعاً من أنفك لتذكره فيما بعد. تعطيك العجوزة ظهرها. لم ترَ ارتفاع الساطور. تتمنى لو كانت لديها فرصة رؤية حياتها في ثانية ثم تسحب يدها منها. تعطيها فرصة رؤية حياتها المعدمة في لحظة ثم تموت. لم يعطها فرصة. لأن الساطور تهاوى على شقيقتها».

فتحَ داوُد عينيه وحدق في النور الأحمر الذي يمطر خشبة المسرح دون مواربة. نفس الدم يشبه كأساً عادت للتو لتنسكب؟ تناهى صوت بكاء من نهاية القاعة. كأن هناك شيئا وُضع في فمه لكي لا يسمع الآخرون بكاءه. مرت خمس دقائق على هذه الحالة. لم يخرج صوت من أحد. همس داوُد لكاوة: «أعتقد الآن أن الجميع يسعى إلى الحالة النفسية للعجوز. الجميع يسعى عبر خياله الركض خلف روح العجوز. ماذا عنك؟».

قال كاوة: «أنا أيضا أفكر بها. أشعر بألم في قحف رأسي. يبدو أنه قد وصلني قسم من ضربة الساطور».

قال داوُد: «هذا يكفي ليحصل آيدن الأبله على درجة سلبية. كان عليه القيادة بصورة لا ننتقل فيها من القاتل إلى المقتول».

قال كاوة: «قد أعرف السبب. لأن الجريمة مازالت عند آيدن ممزوجة بقيم إطلاق الأحكام. يترك اللاشعور أثره على صوته، وصوته يأخذنا إلى العجوز المظلومة في الحدث. مازال ينظر عبر

معايير راسكولنيكوف الأخلاقية. قد أكون أنا أيضا مثله. حسنا، بالتأكيد لا نريد أن نكون جناة».

قال داوُد: «تفضل، أنت أيضا تؤيد كلامي. لو قاد بصورة صحيحة لانتُزعنا من الأخلاق. هل تريد في مقالتك التعامل بأخلاقية؟ أظن أنك لا تريد ولذلك ترتعد فرائصك».

قال كاوة: «من قال إن لدي فكرة مقالة؟».

قال داوُد: «زوجتك روكسانا خانم؟».

قال كاوة: «هي لا تعرف بالتحديد ما أريد كتابته».

قال داوُد: «ولكني أستطيع التكهن بما تودّ كتابته. أنت رجل مجنون يا أخي وهذا ما يجعل مقالتك جذابة. هذا يجرف الإنسان إلى حالة فضول. مجنون يكتب مقالة».

قال كاوة: «اخرس الآن. مازلت تتقمص الجريمة. لقد شرحت عقل المرأة جيداً. مازلت أفكر بشعر العجوز الأبيض المضفور».

قال داوُد: «ولكني أفكر بالساطور».

سكتا، حشر كاوة رقبته في ياقته وغاص في فكره. حدّق داوُد مرة أخرى في النور الأحمر. فجأة رأى جسد سعيد في حوض النور الأحمر ينهض من تراب. مثل ميت يعود للحياة مرة ثانية. وقف سعيد واتجه إلى زاوية خشبة المسرح حيث استلقى آيدن. انحنى وأمسك يده ثم رفعها. لم تنحنِ يد آيدن، كانت مثل خشبة. تركها سعيد. قال: «مثل القطة يا آيدن، هل نسيت؟ هل تظن، ولأنك

قُدت الجريمة، أنه يجب أن تكون عضلاتك مثل ضميرك معذبة ومتعبة؟».

جلس على مقدمة المسرح قال: «حسناً؟ يا أصدقائي اخرجوا من العمارة المليئة بالدماء. أرجو إضاءة اللون الأصفر وإغلاق هذا النور الأحمر. الآن حانَ دور التحليل. من لديه رأي؟».

حمل داوُد نفسه من الكرسي وقال: «أنا».

التفت سعيد ونظر إلى داوُد. كأنه كان يَزنُ الأمور هل يسمح له بإبداء رأيه أم لا. في النهاية قال: «تفضل سنستمع».

قال داوُد: «قبل قليل سألتُ كاوة حين وصل آيدن إلى نهاية كلامه، ألم تذهب في خيالك إلى العجوز؟ قال نعم. وهو هنا يمكنه التحدث عن الموضوع. كان يفكر بشعر المرأة المضفور ويشعر بألم في قحف رأسه. وأرى هذا خطأ آيدن. كان عليه خلق راسكولنيكوف مرة ثانية ليذهب خيالنا إليه لا للعجوز. هذا ليس صحيحاً. غداً حين نقتبس من (الجريمة والعقاب) ونجعل منها مشهداً وعبر التحليل الذي قدمه آيدن لا يمكننا تقديم راسكولنيكف جيداً. سوف تتوزع حواسنا. نتجه إلى روح العجوز. في حال أني قرأتُ الرواية. كانت المرأة مجرد هامش. لا تشكّل شيئا».

قال سعيد: «اعتراضه وارد يا آيدن».

قال آيدن: «أعتقد أنه مخطئ. اسأل بقية الشباب هل مرّوا بما مررت به؟».

قال صوت نسائي من خلف الستار: «لم أكن هكذا. ولم تكن العجوز مهمة لي».

قال داوُد: «أليس هذا صوت بهار؟».

قال الصوت النسائي: «لماذا؟ نعم هذا أنا».

قال داوُد: «عن إذنِ سعيد يجب أن أقول أن رأيكِ ليس مهماً. لأنك فتاة ولا تهتمين ببنات جنسك، العجوز. جسارة وعنف راسكولنيكوف أكثر جاذبية لك أنت الفتاة. ثانياً لك فترة تقفين إلى جانب آيدن. وهذا نموذج».

رفع سعيد يده: «داوُد! انتهى دورك. هل هناك رأي آخر؟».

لم يتكلم أحد.

قال سعيد: «أؤكد مرة أخرى على الحياة والضرورة. أعتقد أن التقرير الذي قدمه آيدن كان جيداً ولكن تأملي أكثر من اللازم. الإنسان وقت الجريمة ليس بيده كل هذه الفرص للتأمل وليكون دقيقاً في الجزيئات. ولو تذكرون أن راسكولنيكوف يقول فيما بعد لصوفيا، لم أقتل العجوز. الشيطان قتلها. قتلتُ نفسي. أعتقد أنّ هذه الجملة قيلت مرة واحدة في الرواية وكان يجب أن تكون مفتاح تحليلك. كان عليك قيادة مخيلتنا عبر هذه الرؤية. كأنك تسرد انتحاراً. ولكنه انتحار ساطور برأس عجوز. ولو كان هناك تأمل فيجب أن يكون، دون أي تردد، تأمل الشيطان. لم تقدم لنا تقريراً عن الشيطان. أعترف أنه معقد، ولكن لو أنك حللته جيداً فسوف تقدم بيت القصيد. في أسلوب ستانسلافسكي يحوّل التحليل فضة

الممثل إلى ذهب. عن طريق فكرة جيدة ومعقدة عن الشخصية يمكنه الوصول إلى تمثيل راقٍ».

انطلق تصفيق من المكان الذي جلس فيه الأخوان. وحده داوُد من رأى نهوض كاوة وتصفيقه: «جميل! جميل!».

التفت الجميع حيث التصفيق، ولأن الصالة مظلمة فقد حدّقوا في جهة التصفيق. رفع سعيد حاجبيه: «لا حاجة للتصفيق. شكراً لك يا سيدي».

قال كاوة: «أعتذر ولكني معجب بتحليلك جداً. لقد استمعت إلى حدّ خوفي من نزول العذاب الآن، لتموت متعتي ولكي لا أطغى فلو حدث ذلك فلن أنجو. ها ها. هل كان هذا جيداً يا داوُد؟».

قال داوُد: «ممتاز. راق!».

قال سعيد: «هل يمكنني السؤال عن السبب؟ قد تكون نقطة تحتاج إلى تأكيد أكثر».

قال داوُد: «مهما استطعتم ادفعوا أخي للكلام. فقد حانّ وقت الاندفاع. صحيح كاوة؟».

تقدم كاوة إلى المشهد. لم يبارح داوُد مكانه. بات الآن النور الأصفر يضيء المشهد والعتمة مازالت كثيفة لتجلّي الجريمة. هذه الأجواء الثقيلة وتحليل آيدن وسعيد كانت أرضية للأذهان ليتحدث كاوة. خرجت بهار التي كانت مصممة المشهد من خلف الستار. إضافة إلى سعيد كان خمسة ممثلين مستلقين على خشبة المسرح. كان

من عادتهم إن لم يقف سعيد أن يبقوا في حالة استرخاء. توقف كاوة حين وصل إلى الخشبة وقال: «دعوني أقدم نفسي. أنا كاتب مقال وباحث أتعاون مع دائرة المعارف. إسمي كاوة وأخي داوُد وتعرفونه كلكم. هذا عني. ولكن ما جعلني انتشي هي الجملة التي قلتَها. قال راسكولنيكوف لم أقتل العجوز. الشيطان قتلها. كم هي مذهبة هذه الجملة. إضافة لذلك هو يعترف أمام مَن؟ أمام صوفيا العاهرة. وهذا من الروائع. وخرجت بنتيجة من هذا الاعتراف أنه كان نوعاً من الانتحار ولكنه ممتزج بالساطور الذي هوى على الرأس. هل تفهم صوفيا شيئاً من هذه الجملة؟ نعم. الحقيقة أنها هي من تفهم. لأنها مائدة الشيطان وتعرف جيداً مكان عمله. ولكن دعوني احدثكم عمن وردت الجملة على لسانه في القرآن. هل تعرفونه؟».

هزّ سعيد كتفيه وقال: «أنا أيضا لا أعرف».

قال كاوة: «قالها موسى. حينما قتل القبطيّ بلكمة. قال إن هذا من عمل الشيطان. أي أن موسى أدرك أنّ فعله إنسيّ، ولكنه من عمل شخص آخر. الشيطان. ولكن ما الذي آخذه من هذا الحدث؟ أسيّر ما سمعته لصالح نظريتي وأنتشي. تزيد ثقتي بديستويفسكي. أنا خادمه. الحقيقة خادم له. لأني أحبُّ المهاجمة. أعتقد أن هذا العمل القيم يوقعنا ويضعنا في العمل تحت حب المهاجمة. ما الذي يمكن تسميته؟ صدفة؟ ممكن. تخيلوا الرسام الذي يلقي الألوان على اللوحة. لأنه يعتقد أن ليس هو الذي يرسم، هناك طاقة أو شعور بأن آخر هو من يقوم بالعمل. تخيلوا لاعب كرة القدم، بدل

التفكير بأنه يسدد ضربة للكرة ويدخلها في المرمى، الكرة هي التي تلعب به وتأخذ التسديدة حتى تقع في طريقها المحتوم في المرمى».

قال داوُد بصوت عال: «ياه! لم يتوهج بعد ستكون كارثة، أكمل».

لم يحفل كاوة به، كان مشتعلاً. قال «أصدقائي! كم فتحتم المجال في تمرين المخيلة للهجمة أو ما تودون إطلاقه عليه من تسمية؟».

قال داوُد: «ممتاز. تحدث عن مقالك أيضا. الجميع يودّ سماعه».

قال كاوة: «لا تستخف وتتملق هكذا يا داوُد. دعني أكمل. أعتقد أنه عليكم اعداد أنفسكم من أجل الهجمة، وأعتذر فأسلوب السيد أستانيس ليس بجديد. مثلما يحدث في تعزية الممثلين والمشاهدين في تمثيل يطوون قروناً ليحضروا في ركاب الإمام الحسين وكأن العزاء استحضار لنفس الواقعة. إحضار الأرواح والأشباح التي كانت في كربلاء. صحيح؟ هل توافقونني؟».

قال سعيد: «أوافقك».

قال كاوة: «تفضل. أنت توافقني أيضا. ولكن لدي مقترح آخر أيضا. دعوا أشباحاً مجهولة، مجهولة كلياً، تهجم عليكم في مخيلاتكم. ما الذي سيحدث؟ لا أعرف. لا أحد يعرف. دعوا فقط المجهولين يهجمون على عالم مخيلاتكم. ودعوني أسأل سؤالاً مثيراً. حين تذكر مفردة النهب والغارة ما الذي يتداعى إلى أذهانكم؟».

قال داوُد: «المغول».

قال كاوة: «برافو! المجهولون الذين هجموا علينا من خلف

الأنهار وأحرقوا كل ما لدينا وحطموا وهدموا. هؤلاء كانوا بشراً في التاريخ. من هم المغول في عالم المخيلة؟ فليكونوا من يكونون، دعوهم يهجمون. ولكن لماذا يهجمون حاملين معهم جيوشهم؟ هل هناك حصيلة غير الدمار؟ عليّ القول أن تدعوهم يأتون ليدمروا. نحن جبناء إلى درجة أننا لا نستطيع معها من تدمير أنفسنا. قال صديقي: الحقيقة أن البطل هو من يقتل. يوفسكي يقول ذلك. أليس صحيحا؟».

قال داوُد: «فلنفترض أنهم هجموا وقتلوك؟ ماذا سيحصل حينها؟ قل لهم ما سيحدث؟»

قال كاوة: «حينها أكون راسكولنيكوف. سأقف عند كلمتي أو أصل إلى أنّ كلامي مجرد هراء».

قال داوُد: «أنا أحييك. هذا صدق غريب. أليس كذلك يا سعيد؟».

قال كاوة وكأنّه يحدث نفسه: «لذلك لا أستطيع نشر مقالتي. لأني لست متأكداً من أني إنسان مدمر لنفسه. ولكن لو استطعت تدمير نفسي لتحررت من الخلود إلى الأبد. لما بقيت بأيّة صورة في الخلود. هل أبقى؟ حين تملك شجاعة التدمير فبالتأكيد أن الحالة التي كانت معك في ذلك الوجود لن تبقى بمحاذاتك. وهذا يعني الرضا الدائم. أي الخلود في السعادة. تكلمتُ كثيراً. كنت دائماً مُقتراً في الكلام. أظن أني أُدخل المستمع في حالة ملل. من الأفضل أن أسكت لكي لا يعذبني ضميري».

قال داوُد: «ممتاز! يا آيدن كيف يمكنك الهجوم على ذاتك بسعادة؟ ألم يقل ستانسلافسكي شيئاً في هذا الباب؟ من ناحيتي أودّ كثيرا وسط قيادة الخيال أن أصرخ فجأة. جاؤوا. هجموا. ها ها ها».

اتجه سعيد إلى كاوة ووضع يده على كتفه: «أعتقد أن المخيلة التي تحدثت عنها تتعلق بعالم الشعر. يُلهم الشعراء. والإلهام هو نوع من الهجوم على حدّ تعبيرك. أنا أقبل أن أسلوبنا ليس بذكي جداً. ولا أعلم ما الذي يمكن قوله الآن. يجب التفكير. يا شباب، انتهت التمارين اليوم. داوُد، حضّر نفسك للجلسة القادمة. بوركتم».

قال هذا واتجه إلى غرفة تبديل الملابس. بقي داوُد صامتاً حتى يغادر سعيد. قال حينها: «أفتخر بك. لقد سرح فيّ الخيال. أصبت الهدف».

ضحك كاوة وقال: «لا. لم أصب شيئاً. أأصبتُ؟ ما أردت قوله هو أن الفن لا يتقيد بمثل هذه المخيلات».

نزل آيدن عن خشبة المسرح وقال لكاوة بكل هدوء: «لقد استمتعت كثيراً بحديثك. لا أعرف السبب. وإن لم أكن على وفاق مع أخيك. أعتقد أنه وقح جداً ولكن ... شكراً».

اتجه إلى بهار التي اتكأت على الجدار محدقة في كاوة. وجلس البقية جامعين أرجلهم بأذرعهم مشكّلين حلقة على خشبة المسرح.

التفت كاوة إلى داوُد وقال: «عليّ الذهاب. عليّ الذهاب الآن». وخرج من نفس الباب الذي دخل منه.

جلس داوُد في مكانه. في هذه الأثناء وضع شخص يده على كتفه. في العتمة، لم تكن ملامحه ظاهرة. قال: «أبارك لك. لو لم تصر على أخيك بأن يتكلم لما تحرك فينا كل هذا الخيال. أودّ رسمه».

نهض داوُد: «آه. أنت أستاذ قبة زرّين؟».

قال قبة زرّين: «بهدوء! لا أريد أن يعرفوا أني هنا. اشتقت عبر حديث البارحة للمسرح وتلك النظريات. وجدت زاوية مظلمة وجلست فيها لأرى ما يفعله سعيد هذا».

كان داوُد ينظر عبر النور المتسرب لوجه قبة، قال: «هل كنت جالساً طوال هذه الفترة؟ أشعر بالخجل».

قال قبة زرّين: «أعجبني حماسك الذي أشعلته. أنت من نوعية الرجال الذين لا يمكن توقع بعد دقيقة لقاء، معرفة هل هم أعداء أم أصدقاء. هل أقول الحقيقة؟ يمكن الشعور بوضوح أن سعيد يخافك. سعيد إنسان عنيد. ولكنه يستسلم أمام تعدياتك. عليك أنت أيضا القدوم في يوم ما لأرسمك».

قال داوُد: «لا أعلم ما الذي يمكن قوله. أنا خجول أمامك».

قال قبة زرّين: «حسناً، سيجلب لي هذا حسن طالع. ما دمتَ خجولاً فأنت وديع. ولكن لو تقربت مني أو من أي شخص آخر ستنزع عنك قيودك الأخلاقية. صحيح؟ لأني لا أودّ أن تضحك عليّ محدثاً نفسك على أن هذه هي علائم الكهولة. لا أريد أن تتيح لنفسك مثل هذا المجال. ولكن لتعلم الآن أن التقرب منك يحمّلني

رياضة تفوقني. لساناً لاسعاً. أنا في سن أحتاج فيه إلى دعم. وأحب الليلة أن تأتي إليّ لنذهب بجولة في الحارة الأرمنية. أود أن أريك علائم المسرح وكيف يقف بثياب بالية».

قال داوُد: «أعدك أني لن أتجاسر. وأنا لستُ كما تظن. لم أتجاوز قطّ على سعيد. أنا أُهمله فقط ولمَ لا. ولكن أن أتجاوز..».

أمسك قبة زرّين بيد داوُد: «تعال لنخرج قبل أن يضيئوا المكان. لا أريد أن يراني سعيد. سوف يحزنه جلوسي دون إذن مسترقاً للسمع».

خرجا دون علم فريق سعيد من الصالة. كان عليهما العبور من دهليز ضيق، وكان غروب وشيك يلوح عبر الدهليز.

قال داوُد: «يوشك الليل على أن يحل. كم مرّ الوقت سريعاً! أشعر أن لديّ أعمالاً كان عليّ القيام بها في النهار. ولكن السير على الرصيف في هذه الاجواء الباردة ممتع. خاصة معك».

ضحك قبة زرّين. قال: «كم تبدو مؤدباً. لو كنتَ مشغولاً لن آخذ من وقتك. هل ذكرتُ لك حكاية الفتاة؟».

قال داوُد: «نعم. نفس الفتاة التي رأيتها في حارة الأرمن؟».

قال قبة زرّين: «أية حالة طغت عليّ البارحة. لم تنسَ صحيح؟ كأني سكرتُ».

قال داوُد: «أرجوك. لا. وهل هو أمر يُنسى بهذه السهولة؟ أودّ كثيراً أن تريني أين وجدتها».

قال قبة زرّين: «ما الذي فعلته أنت؟ هل ذهبت للموعد؟ مازالت ثيابك خفيفة. واضح أنك لم تذهب؟».

قال داوُد: «ذهبت ولكني عدت بسرعة. الحقيقة أن الخوف اعتراني».

خرجا من الدهليز. سارا على الرصيف. يكاد الثلج القذر والرقيق أن يتجمد مرة أخرى والأجواء تسرع نحو البرودة بصورة عجيبة. كان قبة زرّين غارقاً في الفكر. فجأة قال بصوت يكشف عن فكرة كأنها بكرٌ جداً: «لو كانت هناك قسمة فسوف أراها مرة أخرى. لماذا خفتَ؟».

عقد داوُد حاجبيه. لم يود وصف خوفه بجملة مقتضبة. قال: «قد يكون الخوف من الأجواء الغريبة والعجيبة للدكان قد تولاني. كان مثل مخزن للثياب. من كثرة تراكم الثياب وهو يخلو من البشر. ذكّرني بفيلم قصير رأيته في طفولتي بالتلفاز ولم أستطع النوم. كان الفيلم يعرض رجلاً حوصر في كشك الهاتف. وكان باب الكشك غير قابل للفتح كي يخرج. ثم تصل رافعة وتحمل الكشك إلى خارج المدينة وتضعه في مخزن. المخزن مليء بأكشاك الهواتف وفي كل واحد منها هيكل عظمي. هل شاهدته؟ حين ذهبتُ للمكان خُيل لي أنّ كلاً من شماعات الثياب تحمل ميتاً وكان من المقرر أن أعلق على إحداها. لم أستطع إكمال مشهد الحياة الذي حدثتني عنه».

قال قبة زرّين: «آه! مشهد الحياة! الآن تذكرت ما قلته لك. من كثرة اتصالات شباب المسرح لا أذكر ما قلته لكل واحد منهم.

ليس إلى هذا الحد. لو أردنا عيش مشهد الحياة ليس علينا توقيف العقل. الاحتياط شرط العقل. حسناً ما فعلت. والآن بما أنه ليس لديك معطف فسوف تبرد. تعال لنذهب أولا وأشتري لك معطفاً ثم نذهب إلى حارة الأرمن».

قال داوُد: «لا. أنت متفضل. لو أردت فسأشتريه بنفسي. لا أعرف السبب في أن كل من يراني يعطف عليّ. هل لأنني أرتجف كثيرا؟».

توقف قبة زرّين، قال بصوت جاد: «يا شاب أنا أكره العطف. ومن أجل فراغ الذهن الذي أحمله معي أريد شراء معطف لك. لأنك لو أردت المجيء معي فسأبقى منتبهاً لك ولن استطيع التركيز. إضافة لذلك فإن عادة الاهداء لم تُمح بعد. تخيله هدية. تعال لنذهب».

وقبض على ذراع داوُد. أراد أن يتحدث مرة أخرى حين قال قبة زرّين: «اووس! استمع للكلام. بما أن اندفاعك في الوقت الحالي لم يتصاعد، فإن عليّ القيام بعملي. لن أصبح بعدها خصماً لك».

ضحك داوُد وقال: «ما الذي بدر مني اليوم لكي يعتريك القلق هكذا؟».

قال قبة زرّين: «أنت ترى الشعرة وأنا أرى التفافها. لا يفصلنا عن بائع الثياب أكثر من عشرين دقيقة، وبخطواتي الوئيدة هذه. ثم نتجه بعد ذلك إلى جهة مفترق شهناز وحارة الأرمن. علينا طيّ الطريق بحديث قصير. ابدأ!».

قال داوُد: «كيف رأيتَ أخي؟».

قال قبة زرّين: «وأما أخوك. فأعتقد أنه عاش في الظل كثيراً، وهذا جيد جداً».

قال داوُد: «ماذا تعني بالظل؟».

قال قبة زرّين: «هل تذكر هاملت؟ تراجيديا هاملت في دخول شاب إلى عالم الكبار. في عالم الكبار يقتل العمُّ الأبَ ثم يشارك الأم الفراش وهما لا يخافان من جر هاملت إلى الدمار. لا يستطيع هاملت تصديق ذلك وكل تردده كان هنا. كان أخوك بالنسبة لي تجلّي هاملت. ذهنية تربّت في الظل. تركض خلف القيم. خلف الإبداع. كأنه لم يسر يوماً في النهار بين الناس مطرقاً رأسه في الكتب. هو في المكتبات ظلٌّ صامت ليس إلا. ليت من هو مثلي ومثله يعيشان فترة مع بعضهما. نعدل بعضنا. بالتأكيد سيقول لي أنت جبان. لأني لا أريد للتاريخ أن يتقدم. على حدّ تعبير آيدن الذي كان قائداً، لا أريد أن أصبح بطلاً. أنا جبان. ولكني لن أتراجع عبر منح الألقاب. سأقول له لا تتعجل يا رفيق. تعال لندردش. حينها سأسأله هل تعرف ما هو الموت؟ هل أنت صديق للموت أم لا؟ هل نسيته؟ ها؟ يقول لي الموت عليك العيش هنا مرة واحدة. وحين تنتهي، امحُ مفهوم العودة عن ذهنك، فما بالك لو تريد العودة. حين يكون الأمر هكذا لماذا تهدر حياتك الوحيدة بالحرب. افترض أنك ربحت الحرب. نفذت أفكارك ودمرت كل شيء حتى تفتح المجال للجدد. حينها، لحظة وضع رجلك على خشبة المسرح، تتوقع من هؤلاء

الناس المتعبين والحيارى، من أجل أناس حاربت من أجلهم. أنا لست إنساناً متديناً لأتقبل أنك حاربت من أجل الله والقيم والشعارات. أنت حاربتَ من أجل بطولتك وتتوقع من الناس تقديراً لك. أن يقبلوك كبطل وأن لا يكرهوك بسرعة. لماذا تتوقع ذلك؟ لأنك صرفت حياتك القيّمة في المحاربة. لو أنك لم تحارب وأنك قد أكملت حياتك فما الذي سيحدث؟ لا تتدخل في حياة أحد ولا أحد يتدخل في حياتك. أردتُ اقتراح أمر عليه. ليحضر أفكاره إلى المسرح. ليحضرها لحياة المشهد. نحن من نُبقي المسرح حيّاً، إلا أنا الذي رأيت تهدّم أفضل مسرح في البلاد بأم عيني. كان عليّ أن أحزن وأترك كل شيء. أو مثل أصدقائي أن أترك هذه الأرض وأرحل. لكني بقيت. أعني بقي جسدي هنا، بيد أن رأسي ذهب إلى مكان آخر. وعلى ذلك، ما يقوله أخوك ليقنع المفلوكين(*) للمحاربة ويرمي بنفسه في الخطر، لا يعني لأمثالي سوى مشهد على الخشبة. انتهى. بعد نهاية المشهد ننفض التراب عن ثيابنا ونعود للمنزل. والآن ماذا تودّ أن أمثّل لك؟ الحرب؟ الثورة؟ الشعب؟ الإصلاح؟ الديكتاتورية؟ الديمقراطية؟ البرلمان؟ ماذا؟ قل لي لكي أحضّرها وبعد ستة أشهر أعرضها على خشبة المسرح. بالطبع ليس الآن لأني تقاعدت. حينها كنتُ شاباً. الآن نفس حضرة سعيد ينمي طلباتكم. حين يكون الأمر هكذا هل يحتاج إلى مقالة؟ هل يحتاج إلى تضخيم؟ أقسم بالله أنه لا يحتاج. اذهب وعش حياتك!».

(*) المفلوكون هم مَن يعيشون في قعر الفقر ومَن يصيبهم (الفلك) أي حوادث الدهر، ويجبرهم على العمل في أسوء المهن. وتستخدم بالفارسية كما هي.

كان داوُد يستمع جيداً. عبرا من بين صفي أشجار ردار تقف مثل كُور كبيرة تغطيها الثلوج. والآن وبينما يعبر رأساهما من بين كور ثلجية يبدوان كأنهما يمشيان في ثلاّجة كبيرة فيها جثث متجمدة. تؤلمهما آذانهما من البرد. سكت قبة وكان يخطو بهدوء. كأنه مع كل خطوة يختبر وضعية الانزلاق ثم يضع ثقله على الرجل الأخرى. تذكر داوُد فجأة العام الماضي. صالة سينما المعلمين واختتام مهرجان المسرح. في مسرحية (حديقة الآمال) للمسرحي شرمشير حين كان يمثل الدور الثالث وينادي باستمرار على السيد (له سه تو). وحصل، لعدة مرات بالأفضلية، على حاسبة (كاسيو). كان فريقهم يجلس في الصالة وكلما أعلنت لجنة التحكيم اسم حديقة الآمال يصفقون بجنون ويطلقون الصيحات. كان قبة أحد الحكام، جلس في الصف الخاص وصلعته تلمع إثر الضوء المسلط من الخشبة على الصف الخاص، كانت مثل مصباح يلتمع. لم يكن داوُد متحمساً كثيراً. كان يستمع للبيان الذي يُقرأ من المايكروفون ويحدق بصلعة قبة زرّين اللامعة. ذلك الرأس الدائري ذو البشرة اللامعة كأنه لم يدخل مثل رجل ارستقراطي في أية معاناة. كانت بقية الرؤوس من جانبي قبة فيها شعر أسود، وهم حتى لو كانوا من لجنة التحكيم فلم يلفتوا انتباه داوُد. حين قرؤوا اسمه كأفضل ممثل رأى تلك الصلعة تلتفت وتبحث عنه وسط الحشد حاملة عينين لامعتين من شدة الفرح. وصلت جملة إلى حلقه ليطلقها، ليعبّر عن تلك الصلعة الباهرة التي يشع منها حنان نسوي غريب. حنان انحصر في أربع حاسبات مهداة. لكنه أرجع الجملة، خوفاً من الاشارة إلى صلع قبة وليطمئن قبة حول اندفاعه. بعيداً

عن ذلك عرف الآن معنى الحصول على جائزة. قبلها لم يكن لها من معنى. كان يرى آلات حاسبة ملفوفة بورق الهدايا وانعكاس أضواء الكاميرات ووجهاً ضاحكاً لمعنى (الأفضلية)».

قال: «إذن وفقت في عيش مشهد الحياة؟ كل هذه الاعوام؟».

قال قبة زرّين: «لا ليس أن أغرق في حياة وهمية كاملة. لا. لدي حياة طبيعية أنا وزوجتي وأطفالي بالطبع، منذ فترة خرجوا من البلاد وتركوني وحيداً. ولكن للجنون الذي يصل لذهني أعرف مكاناً واحداً فقط، وهو خشبة المسرح».

قال داوُد: «ماذا عن البورتريه؟ أأنت ترسمه».

قال قبة زرّين: «نعم. بات رسم البورتريه بعد التقاعد عملاً جاداً. هل تعرف كيف أقوم به؟».

قال داوُد: «كلا».

قال قبة: «تعال لندخل من هذا الزقاق».

دخلا زقاق بيع الحديد. امتلأ الهواء برائحة الحديد الصديء، وأدخل البرد حموضته فيه. كانت دكاكين بائعي الحديد كلها مغلقة. كانت الأبواب شبكية وخلفها كان يقبع الحديد. حقيقة الزقاق أنه قسم خلفي لبنايات جديدة وباهرة تقع على الجانب الآخر من الشارع، مضاءة بجلال. من يرى هذا الزقاق يفهم أنّ تلك البنايات المهيبة كلها ذوات جدران رطبة وعمرها أكثر من أربعين سنة. كان في الزقاق لوكاندات قليلة تفتح نوافذها على مخازن الحديد ومساء

تعيش حالة صمت، ولكن في النهار تهتز الأرض على صوت سقوط الحديد من شاحنات (النيسان) الزرقاء الصغيرة.

قال قبة: «وحدهم أصدقائي المقربون يعلمون. إنه سرّ على نحو ما». في الزقاق كان لصوته صدى أكثر. يبدو الحديث وكأنه بات جدياً. قال: «أُجلس الشخص على الكرسي وأرسم خطوط وجهه الأساسية. ثم أضع على كفي، بنحو لا يراه، صورة حيوان تليق بملامح وجهه. ثم أرسم البورتريه من الوجهين».

ضحك داوُد عالياً. قال: «عجيب! على هذا النحو لن تحتاج إلى عدو. فلا ريب أن الشخص لو رأى الصورة فسوف يحقد عليك».

كان صوت خطواتهما على الثلوج يكسر الصمت بين الكلمات.

قال قبة: «قد لا تصدق. ينصدم الجميع بما أقوم به. يتفاجؤون من أنفسهم. بيد أني لم أصادف شخصاً اشتكى مما أقوم به. يظنون أن عملي حداثوي جداً. وقد يكون أنهم يغلقون أفواههم خوفاً من اتهامهم بالرجعية. ولكن ليس هذا أيضاً. أعتقد أني أذكّرهم بشيء غريب ومدهش. كأن كل هؤلاء الناس يريدون أن يكونوا في مكان آخر. مكان مثل كتاب العطار، الطيور فيه تتكلم ونفهم كلامها. لا أعلم. لم يُكشف لي لماذا يرى الشخص حين أصور وجهه إلى حيوان أنه عمل خشن وغير رحيم، ولكن فيما بعد يعجبه. أود أن أستفسر من أخيك ماذا كان اسمه. يعني أريد رسم بورتريه له بهذا الأسلوب ثم أسأل ذهنه الوقاد عن الحالة التي يمنحها الرسم إياه».

قال داوُد: «ولأنه مجنون فهو أفضل شخص يمكنه مساعدتك».

قال قبة: «مازال ضميري يعذبني لأني أقوم بذلك بملامح الوجوه. أي أنه لو أراد الشخص الجلوس حتى النهاية فأنا أتألم. لا أريد أن يرى أني أمسّ ملامحه بسوء».

قال داوُد: «الليلة سوف أسأله».

قال قبة: «لا مشكلة من أن تسأله. أنت تعرف لغته أفضل مني. هو في النهاية أخوك».

قال داوُد: «سأسأله. ولكن لو أردت رسم بورتريه لي فأية صورة لحيوان ستضعها بكفك؟».

قال قبة «لا أعلم، ممكن أن يكون شامبانزي».

غطى داوُد وجهه بيديه وقال وهو يضحك: «يا إلهي. لا. أنا لست بالموافق. اختر حيواناً آخر. أرجوك حيواناً آخر».

قال قبة: «لم أرسم بعد يا فتى. هل تريدني أن أضع طائراً. سوف أترفق بك. أكثر الناس تحب الطيور. تخيّل أن تترك وجهك يطير إلى أعلى الجبال. أرسم وجهك لتُجبر على أن تكون أعلى الأمازون للأبد. مدهش. ولكن لا. دعني أكمل المعروف. وحيد القرن أفضل. يظهر وقاحتك بالقرن الذي على وجهك. وجلده يليق بك. إن لم يمتلك الوقح جلداً قوياً فما الفائدة منه؟ هل رأيت جلد وحيد القرن؟ هناك درع معلق في قصر صاحب قرانية طهران. وحيد القرن بالنسبة لك ممتاز... لقد أسعدني الآن. مع ذلك القرن ما الذي لا يمكن فعله. يذكرني بأوجين يونسكو. أي عمل قام به في بيس».

كان داوُد يرتجف، قال: «هل تعلم كيف أودّ أن ترسمني. أودّ الرجوع إلى القرن التاسع عشر. عصر العربات والقبعات الرسمية. أخذت من السيد ورقائيان رواية الدكتور جيفاكو، ولقيادة الصف عليّ الذهاب إلى نهايتها. لا يمكنني بعد الآن رمي الأمور خلفي. فسوف ييأس مني سعيد. لا أريد إيلامه. لأني أعرف أنك لست الشخص الذي يمكن للآخرين أن لا يعيروه أهمية. لذلك فإن الاندفاع الذي ذكرته أضعه جانباً من أجل الآخرين. ولكن إلى جانب كل هذا الكلام، أمان من القرن التاسع عشر. كان كل شيء جيداً. الثورة العلمية والصناعية والسياسية، عصر الثورات. أو لو توافقني فهو عصر الوقحين».

خرجا من الزقاق ومشيا على الرصيف. قال قبة زرّين: «ما أراه فيك وفي أخيك هو بحثكما عن الثورية. ولكنه ليس مثلك في الوقاحة. والسبب هو أن لك عائلة أكبر. دائماً ما يكون المتبقي في آخر الجرة أكثر تدفقاً». فجأة وقف تحت مصباح خفيف النور وضيق عينيه: «أعتقد أننا وصلنا. هل ترى ذلك الدكان، فوقه لافتة. مارشال، صحيح؟».

نظر داوُد إلى الشارع. كُتب بحروف كبيرة (مارشال). أخذ نفساً عميقاً حتى يسكّن ارتجافه. قال: «صحيح مارشال».

قال قبة زرّين: «هو نفسه! فلنذهب. إن المعطف الذي نريده هنا. إلى المعطف!»، وضحك.

يدفأ داوُد الآن في معطف من نوع (جيري) اشتراه له قبة زرّين، وهذه نهاية لارتجافه. وهو حين يمشي الآن منطلقاً، فإنه يعرف أنه كان يشدّ عضلاته دائماً، وطالما تعب من البقاء في تلك الحالة، وحين يسترخي يبدأ بالارتجاف. يشعر الآن أنه يرتدي درعاً يقيه من الأضرار. قد يكون سرّ إصرار الرجل المهيب على شراء المعطف هو هذا، الابتعاد عن الخارج والطمأنينة في الاختلاء. لماذا لم يدرك ذلك قبل ارتداء المعطف؟ هل كانت مخيلته ضعيفة إلى هذا الحدّ؟ ولو كان الوضع هكذا فكيف يريد أن يصبح فناناً؟

قال: «والآن إلى أين ؟». وضع قبة زرّين سيجارة في فمه وأخذ نفساً منها. ابتلع الدخان: «الليل في بدايته. ألست جائعاً؟».

قال داوُد: «اليوم تناولت غداء دسماً. أبقاني في حالة شبع إلى الآن».

قال قبة زرّين: «حسناً، هذا جيد. إذن حارة الأرمن تبدأ من هذا التقاطع. لنذهب. كم يليق المعطف بك. حين أنظر له أشعر بالدفء».

قال داوُد: «الحقيقة أشكرك. تمنح الثياب الجديدة شعوراً عجيباً. ولكننا اشتريناه بثمن غال».

قال قبة زرّين وفمه يمزج البخار الصاعد ودخان سيجارته: «الثياب سلع غالية يا فتى في كل أنحاء العالم. أكنا قد أنفقنا مالاً كثيراً؟ أبداً، ولكنه شعورك العجيب، أنت في بداية طريق المسرح. سوف ترتدي ثياباً متعددة حتى يضيع منك عددها. وستغير ملامحك مع ما يناسب الثياب منها. هو عالم. بدأت المسرح من حراسة مخزن الثياب. وضعكم أفضل منا، أنتم من البداية تقرؤون التمثيل ولا تخدمون أحداً».

عبرا باحتياط من وسط الشارع. كانت الدكاكين تغلق أبوابها. وحدهم بائعو السجائر هم الباقون. إنهم يبقون حتى منتصف الليل يبيعون السجائر ويدفّئون أرجلهم بأوعية من الصفيح فيها جمر. عرّجا على زقاق. هنالك إلى الجانبين مقاهٍ مملوءة بالناس يحكي زجاجها عن تراكم بخاري وصخب يأتي من الأبواب المواربة.

نظر قبة زرّين للمقاهي وسار بضعة خطوات، وفجأة توقف وتوقف داوُد معه أيضاً. وضع قبة زرّين يده على قلبه: «هل ترى؟ تصاعدت ضربات قلبي ما أن دخلت في هذا الزقاق اللعين. بعد مضي ثلاثين سنة لا أجرؤ على دخول هذه الحارة. لا لا أستطيع». أشار إلى المقاهي: «مرحى لهم وقد جلسوا يدخنون الأراجيل».

وضع داوُد يده على ظهر قبة زرّين: «صدور هذا الكلام منك عجيب. قلت البارحة أن الفتاة..».

قال قبة: «أتذكر ما قلته. لا تواجهني بكلامي».

قال داوُد: «ماذا إذن؟».

هزّ قبة زرّين رأسه وسكت واتجه بنظره جهة الجدران. قال، وكأن الماء تجمع في فمه وهو يوزّع نظراته: «يمكنك النظر للموضوع بتعقيد أكثر. ليس من المقرر أن يؤمن الإنسان بكلام البارحة. أليس لي الحق في التردد؟ أليس لي حق في الإنكار؟». وأكمل طريقه بعجلة داخلاً في عمق زقاق مظلم. تبعه داوُد وغاص في الخدر الذي سببه له دفء المعطف. من العجيب أنه لا يرتجف. لم يتقدم وترك قبة زرّين يتقدمه. بهذه المسافة قطعاً المقاهي ودخلا في القسم المظلم من الزقاق. على الجدران الصخرية علائم الصليب غير واضحة المعالم وغير مُضاءة. تقدما عابرين من دكان لشواهد القبور وقد أسندت على الجدران شواهد كتب عليها باللغة الأرمنية. وصلا إلى شبه ميدان دائري أحاطته منازل طينية قديمة ذات طابقين.

رفع قبة زرّين يده وقال بصوت عال: «كانت هناك يا إلهي!».

أشار بإصبعه صوب الزقاق. كان نور أصفر يخرج منه. لم يتقدم: «كانت تقف في بداية هذا الزقاق».

ترك داوُد الرجل العجوز وحيداً واتجه إلى الزقاق. ليس فيه غير مصباح بقوة مائة واط معلق على عمود خشبي. نهاية الزقاق مغلقة وأبواب المنازل كلها خشبية. رفع رأسه. كانت اللافتة صدئة إلى درجة لا يمكن معها تمييز ما كُتب عليها. فجأة فُتح أحد الأبواب ولاحت تنورة خلفها ساق امرأة على العتبة. ثم خرجت امرأة

ترتدي شادوراً مودعة المرأة صاحبت التنورة واتجهت إلى داوُد. فسح داوُد لها الطريق ليتيح لها العبور ويرى صاحبة المنزل. ملأت المرأة المرتدية الشادور الزقاق بصوت خطواتها، وما أن رأت داوُد حتّى غطت وجهها أكثر وأطرقت برأسها وعبرت من جانبه. ألقى مصباح العربة التي كانت تحاول الخروج من الميدان الضوء على وجهها. كانت شابة بشعر أشقر ووجه غير ممتلئ وعينين غائرتين.

ومع اختفاء ضوء العربة، أغلقت الفتاة الباب. عاد داوُد وخرج من الزقاق. نظر حوله ولم ير قبة زرّين. ركض إلى المقاهي وتملى النظر فيها، لم يكن هناك أيضاً. وصل إلى الشارع ونظر للجهتين. لم يكن هناك أثر لقبة زرّين. عاد إلى داخل الزقاق. عبر من أمام المقاهي وعاد مرة أخرى إلى الظلمة. لا أحد. وقف أمام شواهد القبور وصاح: «أستاذ قبة زرّين؟».

تردد صدى صوته في الحارة. وكأنها في الدقيقتين اللتين غادر الميدان فيهما قد خلت بصورة كاملة، وأن من كانوا فيه من بشر اختفوا. اتخذ قراره بالعودة إلى البيت. لم يبقَ مكان لم يذهب إليه. فجأة تذكر الصالة الرياضية. قال لنفسه من الأفضل لو مررت على الصالة الرياضية دون أن يشعر بي أحد لأرى هل يجلس الرجل المهيب هناك أم لا، ثم أغادر. مرّ من أمام المقاهي. كان الدخان والصخب يتكاثران خلف الزجاج كلما اشتدّ الليل.

حين خرج قبة زرّين وداوُد دون توديع أحد، وبعيداً عن أعين الفرقة خارج المسرح، اقترب شاب أصلع وسط الظلام من خشبة المسرح. كان يضغط على قبعته القابعة بين يديه. وقف منتظراً حتى يبدّل المخرج وبقية الفرقة ثيابهم. طال انتظاره. تعب الشاب وجلس على الكرسي. تعب من الجلوس على الكرسي فصعد من الدرج بحذر وانسلّ من الستارة فدخل الخشبة. كانت خشبة المسرح مضاءة بالنور الأصفر وهذا ما دعى عينيه إلى الاعتياد على الضوء وعدم رؤية الصالة. رفع رأسه ورأى المصباح الكبير في السقف ترقص حبات التراب أمام فوهته.

- ها أنت هنا؟

كان هذا صوت سعيد الذي فاجأ الجندي.

قال: «نعم. أنت من أعطاني العنوان».

خرج سعيد من بين الستارة مادّاً يده للجندي: «خير ما فعلت. لم أكن أظن أنك ستأتي».

ضغط الجندي على يد سعيد وقال: «لدي تذكرة قطار في الساعة السابعة. قلت لنفسي فلأزُر المكان».

سحب سعيد يده من يد الجندي: «لماذا جئت متأخرا؟ لقد انتهى التمرين».

قال الجندي: «لا، لقد جئت منذ البداية. لكني جلست في النهاية».

قال سعيد: «حقا؟ أنا أتركُ الصالة مظلمة لكي يركز الشباب. لم أرك».

قال الجندي: «كان رجل آخر يجلس أيضاً. لقد رحل».

قال سعيد: «حسنا، كيف كان؟ هل أعجبك؟».

قال الجندي: «جداً. جداً. لم أر شيئاً مماثلاً حتى الآن. وبعد أن رأيت لا أزال غير مصدق. إضافة لكل ذلك فأنا لا أجرؤ على ذكر ما حدث لأحد. ألا يؤنبونك؟».

وضع سعيد يديه على صدره وقال: «مثل ماذا؟».

قال الجندي: «لا أعلم. ما نفع مثل هذه الأعمال؟»

قال سعيد: «يطلق على هذه الأعمال كلمة مسرح. ولو فهمت هذا الموضوع فسوف يساعدك بقية أيامك ولن تصيبك حالة ملل في القصر. هل رأيت كيف أُخرج الشعرة من العجين؟ يمكنك أن تجعل ناصر الدين شاه موضوعاً لك وتشغل ذهنك به».

قال الجندي: «وماذا سيحدث حينها؟».

قال سعيد: «ماذا بالتحديد؟».

قال الجندي: «ألا تخاف؟».

قال سعيد: «مماذا؟».

قال الجندي: «لا أعرف. يبدو أني خفتُ قليلاً».

قال سعيد: «من ماذا خفتَ؟ أمن الغرق في التخيل والابتعاد عن هويتك الحقيقية وأن لا تعود لها؟».

قال الجندي محتداً: «ممكن. ألا تخاف؟».

قال سعيد: «لنفترض حدوث ذلك. أين ما يخيف في الأمر؟».

قال الجندي: «قسماً بأبي الفضل إنه مخيف. حينها ما هو مصير والديه؟ سيبيتان مسكينين».

ضحك سعيد: «الوالدان! هل تعرف ما أخافني في المرة الأولى؟ أول مرة حين دخلت المسرح وأرعبني ما كنتُ سأقوم به، كان ذلك دوراً عليّ إزالة حاجبيّ فيه. اقتضى الماكياج ذلك. كنت أصارع نفسي لمدة أسبوع فيما سأقبل الدور أم لا. وفي النهاية أقدمت على إزالتهما. ولم تأخذ إزالتهما مني بالموسى غير دقيقتين. في تلك الليلة كانت المرة الأولى التي أخرج بها دون حاجبين. خفتُ، كان خوفي نابعاً من فقدي حاجبي إلى الأبد. هل أزلتَ شعر رأسك قبل ذهابك إلى الخدمة العسكرية؟».

قال الجندي: «لا، لم أفعل».

قال سعيد: «إذن فأنت تعرف إلى حدّ ما ما عانيته. رغم أن

حلق الرأس ليس بعيداً عن الروتين. الكثير من الناس حين يكبرون يصيبهم الصلع. ولكن الحاجبين. عدم وجود الحاجبين أمر مخيف. مثل السمعة السيئة. لن يقبل أحد من العائلة أو الأقرباء تبريراتك. سوف يبتعدون عنك. لماذا؟ لأنك مددت يدك على حاجبيك ومحوتهما. هذا هو الظاهر. ولكنهم لو علموا أنك تريد فعل ذلك في شخصيتك فأيّ غضب سيجتاحهم ضدك. ستتحول دفعة واحدة بالنسبة إليهم إلى ظلام. ظلام دامس. أعتقد أنك خفت من هذا».

قال الجندي: «أصبت الهدف. لو كان أبي قد علم فسوف يأخذ العصا ويمررها على جسدي. من الآن اعترف أن هذا العمل لا يمكنني القيام به. الحقيقة إن وجودي هنا يخيفني. كأن أنفاسي تضيق، وكأن رأسي يمتلئ بالظلام».

قال سعيد: «خاصة وأن الدور الذي تريد تأديته هو دور ناصر الدين شاه».

قال الجندي: «مخيف. سوف أرحل. هل تدعني أرحل؟ ألن تتدخل لو أردت الذهاب؟».

قال سعيد: «كأنك تخوفت؟ وما دخلي في منعك».

قال الجندي: «هل يمكنك البقاء على خشبة المسرح حتى أرحل من هنا؟».

قال سعيد: «لا ترعب نفسك هكذا يا جندي! اذهب. لا دخل لأحد بك».

تراجع الجندي خطوتين وقال: «حقا أنت متفضل. في أمان ... الله».

رفع سعيد يديه كأنه يريد أن يريه محايدته. قال: «حفظك الله».

نزل الجندي من خشبة المسرح وركض جهة الباب وخرج. بقي سعيد في مكانه حتى انقطع صوت ركض الجندي. عاد الصوت مرة أخرى. فتح الباب ونظر إلى خشبة المسرح. ومن الخوف الذي تسرب إلى نفس سعيد فهو لم يبارح مكانه ناظراً للظلمة. قال الجندي: «نسيت حقيبة ظهري». وارتفع صوت ركضه في الصالة.

وقف سعيد مثبتاً نفسه مثل صورة. وجد الجندي حقيبة ظهره وخرج من الصالة. ترك سعيد يديه تسقطان وزفر نفساً.

الليلة، وخلافاً للبارحة لم يتساقط الثلج، وهذا ما أزاد البرد قرصاً. جلس كاوة في غرفة داوُد وكان يراجع مقالته. اختار للمقالة عنوان «الجدار». لم ينهِ صفحتين منها وتعجب من قراءة ما كتبه. تعجّبه من مراجعة كاتبها للمقالة لا تقارن مع مراجعة المقالات والرسائل التي كتبها الكتّابُ الميّتون. مادام الكاتب على قيد الحياة فلا قوة فيما يكتب. قال: «إذن عليّ أخذ أمل شهرة المقال معي إلى القبر لأشهد هناك أي جدل ستثيره. ها؟ لماذا ترتجف يدي مع فكرة هل أنشره أم لا؟ لن يأخذ أحد المقالة بجدية مهما كان ثورياً. ولكن لحظة. يُطرح سؤال هنا. ماذا عن قادة الثورة الذين كتبوا الرسائل وعبرت رسائلهم من يد إلى أخرى حتى وزعت كمناشير ليلية وتسببت بثورة وحركة؟ هل شهدوا نتائج أعمالهم؟».

وضع المقالة على الأرض ونهض وأخذ يمشي في الغرفة. كان كلما أراد الهروب من التعمق في الفكر يمشي. وهو لو جلس فسيتعمق في الفكر. هل هناك أسرار صنعة لإدخال الإثارة على

المقالة والرسالة لا يعرفها؟ قضى أعواماً منكباً ومتهالكاً في كتابة وقراءة الأفكار؟ كلما وصل إلى النافذة يمسك الستار وينظر إلى الليل والباحة المليئة بالثلوج ويعود. فجأة خطرت له فكرة. من أين نعلم أن هذه الرسائل المفجرة للثورة هي لقادة الثورات؟ هو كلام لناس ماتوا واليوم يأتي كلامهم على أنه لقادة الثورة. القضية هنا. نعم. الموتى جعلوا القادة أفواهاً لهم وقد لا يكون القادة على علم بهذا. هذا هو. وردت هذه العبارة مرات في القرآن (من حيث لا تشعرون). وهذا نوع من عدم الوعي. أصبح فماً لكلام قوي عن طريق ميت. تطير الأرواح فوق رؤوس أحياء البلاد ويجدون فماً يتوافق مع مزاج الثورة، يختارونه ويضعون فيه كلمات عتيدة. ومثل الشيطان الذي يبيّض في العقول ويرقد عليها، يمكن للأرواح أن تختار أحداً وتضع في رأسه إلهاماً.

ما أن قال ذلك حتى هدأ. انسحب من المشي وجلس إلى جانب أوراق المقالة. هو يعلم جيداً أن ما قاله في المقالة لم يتفوه به أيّ ميت. نعم. هناك نقاط أشار لها القدماء ولكنهم لم يكملوها. فهي إذن إذا نُشرت سوف تثير ضجة بحجم كلام الموتى وتصنع ثورة. ولكن بقية الكلام والتسطير والاستنتاج النهائي في المقالة فهو منه. يجب ألا يتوقع أنه ما دام حياً ويتدخل في المقالة أن يكون مؤثراً. عليه أن يصبر حتى لحظة موته. حتى يلتحق بالأرواح ويبحث عن رأس ليبيض فيه. ضحك على هذه الفكرة عالياً حتى سمعته روكسانا التي كانت في المطبخ وقالت: «مع من تتكلم؟».

صاح كاوة: «مع لا أحد».

اشتدت هذه المرة الرائحة وباتت ثقيلة الوطء على الصدور. بات صوت الصراخ ووقوع الرجال على الحلبة يغدو أكثر شدة ثم يسكت. وسط الصرخات التي تأتي من غضب تتخللها ضحكة. اقترب من الواجهة الزجاجية ذات البخار الوسخ الذي بات أكثر ضبابية من ليلة البارحة ومدّ رأسه ورآه في كرسيه الذي جلس عليه البارحة، غائصاً في أوراقه. أحيانا حين تعلو صرخة من الرياضيين يرفع رأسه ملقياً نظرة على كل مساحة الحلبة. وحين يرى أن لا خبر جديد والجميع على أحسن حال ولم يبق أحد على الأرض إثر الضربة يعود مطرقاً برأسه في الأوراق وأحيانا يكتب.

كان داوُد متعجباً من حالة الظهيرة التي أصابته بخوف وفرّ هارباً وتصوّر القبو المخيف في دكان مختار لبيع الثياب، لماذا أُصيب بتلك الحالة؟ لو تقرر أن يحدث له سوء لما كان يجلس الرجل المهيب مرة أخرى مثل البارحة بأوراقه في نفس المكان. كأن التصفيق لجريمة الرجل المهيب يتنافى مع جلوسه على الكرسي. أليس

كذلك؟ لو كان قاتلاً محترفاً فليس أمامه غير برودة الأعصاب. إذن ما وجه الاختلاف بين القيام بجريمة في قبو مختار والحضور في الصالة الرياضية؟ هو يعلم أن ليس هناك تناقض بين الاثنين، ولكن طريقة تعامل الرجل المهيب في ذلك الصباح البارد وإصراره على شراء المعطف، فهمُ هذا يشبه مواجهة الرجل المهيب دون تقييم. هذا هو. إذن لماذا هرب منه؟ سحب نفْسه من مخبئه خلف الباب الضبابي للصالة الرياضية ودخل. مرّ من بين أرضية الحلبة والأرجل الممدودة والموضوعة واحدة على الأخرى. كان الرجل المهيب منشغلاً ولم يشعر بداوُد الذي يقترب منه ويحدق فيه، اقترب منه حتى توقف بجانبه.

كان الرجل المهيب يدخل أرقاماً في الآلة الحاسبة يجمعها ويضربها ويسجل النواتج على ورقة. رفع رأسه وتلاقي مع وجه شاب يرتدي معطفاً. بالتحديد حيث يقف داوُد وقع خلف مصباح يرشّ النور على مؤخرة رأسه. مما دعا الرجل المهيب إلى النظر لفترة إلى الوجه شبه المظلم، وفجأة صرخ: «أنت!».

قال داوُد: «جئت لأعتذر عما بدر مني في الأمس. لم أستطع البقاء أكثر».

نهض الرجل المهيب من مكانه: «أي محبة هذه التي بدرت منك. كدت أموت من القلق. ولكن من دلّك على هذا المكان؟».

قال داوُد: «أتيت هنا البارحة ورأيتك ولكني لم أظهر نفسي لك».

جمع الرجل المهيب أوراقه وحشرها في جيب معطفه: «عجيب. رأيتني البارحة هنا؟».

قال داوُد: «نعم رأيتك».

احتار الرجل المهيب من سماع هذه الحقيقة وقال: «لماذا لم تظهر نفسك؟ لماذا تهرب مني؟ من أين أتيت بهذا المعطف؟».

قال داوُد: «اشتراه لي أحد معارفي. وكنت قد استشرته عن المجيء إليك. وحين رآني آتياً دون معطف من دكان الثياب تفضل عليّ بهذا. لم تمر سوى سويعات على دفء جسدي ولم أعد أرتجف».

ضحك الرجل المهيب: «عجيب! لم أحظَ بهذا الحظّ. والآن إلى أين ستذهب؟ ليس هذا مكاناً مناسباً للحديث أبداً؟».

قال داوُد: «جئت فقط لكي أعتذر منك».

قال الرجل المهيب: «ألست على عجلة؟ يمكنك البقاء على الأقل نصف ساعة. صحيح؟».

قال داوُد: «لا يمكنني. سوف يقلق عليّ أخي. فهو لا يعلم أين أنا. ولكن لماذا؟».

قال الرجل المهيب: «ليتنا نستطيع الخروج ونجد مكاناً منعزلاً لتبادل فيه الحديث. أودّ أن نتعرف على بعضنا أكثر. اذهب الآن ولكن اقطع لي وعداً أنك ستأتي مساء غدٍ. إذا لم أكن مدعواً في مكان فأنا آتي كل ليلة هنا. منذ فترة لم أرَ إنساناً جديداً. أردت عبر شراء المعطف أن أبدأ معك صداقتي. ولكن لا أعلم ما الذي حدث

لتفقد ثقتكَ بي. هل عليّ العمل كثيرا لترميمها؟ أعرف أن أجواء دكان مختار لبيع الثياب مخيفة».

قال داوُد: «سأحاول المجيء. ولكن قد لا أتمكن. لأن الفصل شتاء والنهار قصير. لا يمكنني البقاء لوقت متأخر في الخارج. لو جئت أنت أفضل. بيتنا قريب من حديقة (لالة)».

قال الرجل المهيب: «ها. أنت لا تسكن بالقرب من هذا المكان، والذهاب من هنا في وقت متأخر صعب عليك. حسناً. أعطني العنوان بدقة».

كتب داوُد عنواناً على الورقة التي قدمها الرجل المهيب له وخرج من الصالة الرياضية. وما أن وضع رجله في الشارع الذي خلا من السيارات ولفه الصقيع، حتى تذكر المرأة صاحبة الشادور. كأنّ لهذه الذكرى يدين قويتين قفلتا على قدميه وثبتتهما. نسي برودة الهواء للحظات. وقف بعيداً عن الصالة الرياضية بضعة أقدام وغاص في أفكاره. مصباح السيارة المفاجئ التي كانت تتحرك في الميدان وقع ضياؤه على وجه صاحبة البيت وعلى وجه صاحبة الشادور. ولكن كلام قبة أخذ ذهنه جهة الفتاة الأرمنية، وهذا لا يعني طرد المرأة صاحبة الشادور من مجال رؤيته. لا، لقد رأى تلك المرأة أيضاً ويخالجه الآن شعور غريب إزاءها. مازال يعيش أجواء ذلك المشهد. في عيش لحظة المشهد يدخل كل شخص الحدث ويحاول عقد علاقة مع بقية أشخاص المسرحية. في المسرحية لا يمكن فصل شخصين بصورة كاملة، وهو الآن غارق في عيش المشهد، فعلى الأقل إحدى

الفتاتين اللتين رآهما في الزقاق هي فتاة الزقاق القريب من السينما. أيّتها سخرية هذه! قال: «أقبل أنه ليس دليلاً. ولكنه تخمين ويمكن تحويل الحدس إلى إطار استدلالي تقنع به الآخرين. إذن عليّ بأيّة صورة كانت اتباع هذا الحدس. يمكنني هكذا تقوية حالة عيش لحظة المشهد فيّ. عليّ دخول الزقاق».

اتجه إلى الزقاق المحاذي للسينما. نظر أولا إلى داخل الزقاق. كان خالياً. دخله وتقدم حتى نافذة المرأة. كانت ستارتها مُزاحة والمصباح مضاء. أرضية الزقاق لا تُرى في الظلمة. مسح يده على الأرض ورفع حجراً صغيراً. رماه على النافذة. أصاب الحجر الصغير الزجاج وأصدر صوتاً. في نفس اللحظة ندم على فعلته. أوصل نفسه في العتمة تحت النافذة. خفف من أنفاسه وألصق جسده بالجدار. سمع صوت صرير النافذة. رأى ظلّ امرأة على الجدار المقابل له. بقي واقفاً فترة ينظر إلى داخل الزقاق. أُغلقت النافذة مرة أخرى وسُحبت الستارة. قال داوُد: «ما الذي أفعله هنا؟ ما الذي يحمله هذا الزقاق لكي أهرب منه أحياناً، وأحيانا أُسحل نحوه مثل مجنون؟ اللعنة على قبة! لماذا تركني وحيداً. لا، لمَ ألعنه؟ لقد اشترى لي هذا المعطف. لا يمكنني التظاهر بالنسيان. لماذا اختفى فجأة؟».

خرج من الظلمة وسار بهدوء حتى نهاية الزقاق. كان الشارع خالياً. وحده صراخ الصالة الرياضية الضعيف يتناهى للشارع. صعد الرصيف متجها إلى محطة الباص.

استلقى كاوة في غرفة داوُد وكان مازال يعمل على «الجدار». كانت الغرفة مظلمة والمقالة تحت ضوء مخروطي ينساب من مصباح القراءة وقد أضاء قسماً من الغرفة بالأبيض والأصفر. ما أن دخل داوُد الغرفة ورأى كاوة ينظر إلى مقالته حتى قال كاوة: «هل حسمتَ أمركَ؟».

قال داوُد: «أولا السلام عليكم، ثم أي حسم تقصد؟».

قال كاوة: «عن الأبوة والبنوة».

قال داوُد: «آه. نعم، لا يحتاج الأمر إلى تفكير. عمرك أكبر من عمري وأنت أكثر نضجاً مني. هل رأيت اليوم كيف أعلنت عنك. ما قلتَه أفحمهم. وحتى سعيد صاحب المزاج البارد فقد تأثر. حسناً، واضح أن لديك عليّ حق الأبوة. بل أنت ملجئي. ولكن وبما أننا أخوان وقريبان من بعض لم تتح لنا فرصة لنتصارح، ولأنها لم تتح ولم أعترف بأنك الأكبر فتخيلتَ دون داعٍ نفسي أكبر عقلاً منك. خطأ محض. أنت أبي».

التفت كاوة وبعينيه اللتين أعماهما ضوء المصباح المنعكس على أوراق المقالة، نظر للظلام، للصوت الآتي حيث يقف داوُد. مرت فترة حتى اتضح له داوُد وهو يغير ثيابه: «في النهاية اشتريت المعطف؟».

قال داوُد: «نعم. لم يكن هنالك داع لتغضب. اليوم ذهبت إلى روكسانا للحديث عن هذا الموضوع. لم يكن لي دخل مع ذلك الطبيب الأبله. تدخّل فيما لا يعنيه فمنحته حقه».

قال كاوة: «إنه يبحث عن حجة. لديه معي حساب قديم. كان يكتب نصوصاً عن أخلاق الطب ولكنه يقدمها على أنها ترجمة ليكسب مبلغاً أكبر. كان يختلق أسماء روسية وتركية من نفسه ويحشرهم كمؤلفين للمقالات. أخرجت قعر القضية وسلمتها لرئيس تحرير المجلة. قطعوا علاقتهم به ولم يقبلوا منه أي نص حتى ولو كان من تأليفه. منذ ذلك اليوم بات عدواً لي. إنسان حقير. لذلك أجتنب تقربه من روكسانا وأحتاط. ولكنك اليوم ذهبت هناك وفعلت ما فعلته معه».

قال داوُد: «وما الذي سيفعله؟ لا أراه إلا جباناً. لا تقلق».

وضع كاوة رأسه على الأرض وألقى بذراعه على جبهته وقال وهو ينظر إلى السقف: «ما الذي قالته روكسانا عني؟».

جلس داوُد: «خلاصته هي أنك في الفترة الأخيرة تريد كتابة مقالة. تخاف من تبعات نشرها. أي أنك تخاف من وصولها إلى العوام الذين لا يدركون فحواها ويلصقون بك تهمة قبل فهمها.

نعرف ما هو أسلوبهم. إساءة فهمهم متسربة. وهي بغمضة عين تعمّ كل الأماكن. حينها تُلصق باسمك مثلاً صفة مجنون أو مريض نفسياً. لذلك أنت حساس هذه الأيام وتصّر على إفهام الآخرين أنهم سبب خوفك الداخلي. وبالتأكيد أني أحدهم. مع الدليل العجيب أني أريد أنّ ألعب دور الأب لك وأقف أمام عملك. في حال رأيت اليوم كيف امتدحتك. لديك ذهن وحشي ومجنون. ومن يعلم ما يدور في عقلك سينبهر بك. لا تقلق من هذا الجانب. من ناحية كوني أب دع الزمن يلعب دوره. يجب حدوث أمر وأقع في عجز حتى ترى بنفسك أني سألجأ إليك. سترى. حدث يجردني من كل شيء. يحدثني قلبي بحدوث هذا الأمر عن قريب وسأحتاجك. هل رضيتَ الآن؟».

أخذ كاوة نفساً عميقاً وقال: «يكفي. في النهاية سأنشر هذه المقالة. الوضع الحالي الذي بات فيه الجميع محافظين وباسم الاصلاحات لا يفعلون غير تبادل الابتسامات ويوصلون كل الأمور إلى العفن هناك حاجة لضربة. وأنا من سيوجهها. وليفعل العوام ما يحلو لهم».

رأى داوُد أن كلام كاوة قد انتهى، نهض واتجه إلى المطبخ. كانت روكسانا في غرفتها العلوية تشاهد التلفاز. تناول عشاءه وعاد للغرفة. أراد قبل أن يهجم النوم على كاوة أن يسأل عن قبة. ما أن دخل الغرفة قال: «أغلق الباب».

أغلق داوُد الباب. نهض كاوة من مكانه واتجه إلى النافذة وفتحها. أخرج سيجارة من جيبه وأشعلها. أخذ نفساً منها وقرّب

فمه من النافذة ونفخ الدخان للخارج. قال داوُد: «أردت طرح سؤالاً عليك».

قال كاوة: «اسأل. ما الذي يليق بهذه الغرفة المظلمة غير الكلام الذي نتبادله».

قال داوُد: «أعرف شخصاً هو ممثل متقاعد. وقد كان اليوم جالساً في نهاية الصالة. بعد مغادرتك رأيته. هو يشغل نفسه في البيت برسم البورتريه. وأخبرني أنه يود رسمك. ولكن طريقته في الرسم غريبة».

نظر كاوة إلى باحة البيت ونفخ الدخان من النافذة. قال: «كيف؟».

قال داوُد: «يدمج ملامحك مع صورة حيوان. ولقد اختار لي صورة رأس وحيد القرن. سيدمج صورة رأس وحيد القرن مع ملامح وجهي. بالطبع في البداية يرسم ملامح الوجه ثم يودعك، وحينها سيضع صورة وحيد القرن أمامه ويرسم بقية وجهك مستلهماً الرسمة من وحيد القرن».

التفت كاوة وحدق في داوُد وقد اتكأ على الجدار بجانب المصباح الذي أغرق وجهه من الأسفل بالنور: «لماذا يفعل ذلك؟ وهل يرضى الشخص بذلك؟».

هزّ داوُد كتفيه: «على العكس. أولاً يذهب إليه أشخاص لديهم عقلية منفتحة ويمكنهم الفصل بين البورتريه وبين أنفسهم. ثانياً يقول أنهم يتفاجؤون بداية ولكن بعد ذلك يفرحهم العمل. لا

يعلم أحد لماذا يحدث ذلك. لماذا يفرح المرء من بورتريه حيواني خاص به. لقد اعتقدتُ أنك تستطيع فهمه. صحيح؟».

ضحك كاوة. أخرج عقب السيجارة من النافذة للخارج ونفض رمادها. تراجع مرة أخرى وقال: «أتراني خبيراً بكل أمر عجيب وغريب تصادفه؟». ثم أطرق برأسه وقال: «بالطبع الحق معك. قد أعرف السبب».

رفع داوُد يده وفرقع إصبعه. قال: «هل رأيت؟ هناك أمر في هذا الحدث يدغدغ الذهن. ولكني لا أعلم ما هو. ومن جانب آخر أنت الوحيد الذي لا تضجرك هذه الأمور وأنا أعرفه جيداً. ولذلك كل ما تقوله أؤمن به، والفحوى هو أنك قلته. لأن ليس لديك منافس يعارضك. لأنه مع الأفكار التي تحملها تبدو وكأنك داخل في زقاق عزلة لا أحد يقارعك فيه».

رفع كاوة حاجبيه: «أي لسان لاذع هذا الذي تحمله! تمدح وتهجو في وقت واحد. أنت لا يؤخذ بكلامك لأن ذلك المعنى ليس محدداً في ذهنك، فكل ما أتفوه به تطبقه وترضى به».

قال داوُد: «لا تصعّب الأمور. أنت تتفوه بالهراء. علاوة على ذلك ليت كل من يتفوه بالهراء مثلك».

قال كاوة: «حسناً... سوف أقول رأيي. لأني الآن أفكر في المقالة وكل ما سأقول عن البورتريه فهو تحت تأثير مقالتي. هل هناك من مشكلة؟».

قال داوُد: «وما المشكلة يا رجل؟ لمن لا يفهم مقالتك مثلي فهذه

غنيمة. قد يكون نصيبي من فهم المقالة هو البورتريهات وتكون مؤثرة على الناس. لماذا يسعد الناس من بورتريهاتهم الحيوانية؟ عليهم الخوف والقلق من إلقاء ولو نظرة عليها لا أن يأخذوها للبيوت».

رمى كاوة عقب السيجارة على الثلج. غاصت السيجارة فيه واختفت، أغلق النافذة وقال: «أعتقد أن البروتريهات هي رسوم الناس في سقر. أي ما سيصبحون عليه حين يسكنون سقر أو من يسكنونها الآن. ولكن قد تسأل وهل سقر مكان جيد لكي يفرحوا بصورهم فيها؟ القضية هنا نعم، سقر للناس منطقة مثيرة».

تقدم داوُد وقال: «أيعني هذا أنّ قبة زرّين يرسم ملامحنا السقريّة؟».

قال كاوة: «يحاول أن يفعل ذلك. أي أن جمالية هذا العمل تأتي من سقريّة الأشكال. لذلك عليّ القول يجب أن يرسمني هذا الإنسان. لأني كتبت هذه المقالة».

قال داوُد متفاجئاً: «وهل مقالتك سقرية؟».

كان هذا التفاجؤ مصطنعاً لكي لا يشكّ كاوة بكبر حجمه.

أطلق كاوة ضحكة عالية: «لم يحدث شيء بعد لكنك وضعتَ له عنواناً. نعم. هذه المقالة بطريقة ما سقرية. أي أنني لدي رؤية جديدة عن سقر، سقر خلف جدار غير مرئي».

قال داوُد: «على الأقل يجب أن أشغل ذهني عشرة أيام لفهم كلامك. كيف يفرح الناس من سعيرهم؟».

قال كاوة: «فكّر به. قد أساعدك على فهمه. عليّ الذهاب الآن لأنام».

قال هذا وجمع أوراق مقالته وخرج من الغرفة. أطفأ داوُد مصباح القراءة ثم خطرت له فكرة؛ أن يفترض أن الغرفة سعيراً. سار على أربع مثل وحيد قرن. وعبر من الوسادة ومصباح القراءة ومسح أنفه على السجادة بصورة يعْلَقُ بها قرنه مثل محراث. ثم تخيل حلول الليل وكيف أن على وحيد القرن النوم، تمدد على الأرض ووضع رأسه بصورة حتى لا يعلق قرنه، قرنه الوقح، بشيء. هذا ممتاز. هذا عيش لحظة مشهد الحياة لحظة بلحظة. يمدّ برأسه أحياناً على القرن التاسع عشر ويذهب إلى الضاحية بالعربة، وأحيانا يسير بشكل وحيد قرن في أجمة مظلمة. كان تعباً من نشاط اليومين وعيناه كانتا مثقلتين بالنعاس. ارتاح لعلمه أن كاوة وروكسانا نائمان الآن. حين ينام البقية ينام مرتاحاً. ولكنه لا يعلم أنّ كاوة ارتدى ثيابه وخرج من البيت دون أن يعلم به أحد. هي ساعة زحام مقهى الحمير بعد منتصف الليل. الليلة تعود مقهى الحمير بعد عطلة دامت شهراً، وعلى كاوة التواجد فيها.

استيقظ داوُد فجأة بعد مرور نصف ساعة من نومه، وكان مهما حاول النوم لم يستجب له. أضاء مصباح القراءة. أخذ رواية الدكتور جيفاغو وشرع في القراءة. قطع طوال ساعة ونصف مائة صفحة ووصل إلى مكان حيث يوري، أي الدكتور جيفاغو المستقبلي، تقرر أن يكتب مقالة عن (بلوك) المؤرخ الهولندي المولد في ١٨٥٥ لمجلة كلية الأدب. كان كل الشباب يحبون بلوك. ولكن الكاتب في الصفحتين القادمتين كتب عن يوري في ليلة الكريسمس وبرؤية أشجار الكريسمس والنوافذ المتجمدة المضاءة. «فجأة فكر أن بلوك هو وصول عيد الكريسمس وهو داخل في كل شؤون حياة الشعب الروسي تحت السماء المليئة بالنجوم. شارع العصر الحالي وفي صالة هذا القرن حول أطرافه أشجار الصنوبر اللامعة، تدخل في هذه المدينة الشمالية وأيضاً في الأدب الجديد. فكّر أن كتابة مقالة عن بلوك لا طائل منها. ما يلزم هو كتابة مقالة تحت عنوان (عبادة سحرة روسيا) بأسلوب المدرسة الهولندية، مع الثلج والذئاب وغابة صنوبر مظلمة».

تراجع عن القراءة هنا وتذكر كاوة. أثاره هذا المقطع إلى درجة أنه ودّ النهوض ليوقظ كاوة. يجب أن يرى كاوة كيف يجري موضوع المقالة خارج المقالة وذلك بقوة حفل ليلي، لن تبقى بعدها كتابة المقالة ذات أهمية. لو جاء فقط ولمرة واحدة أصل ليل الكريسمس في مقطع الرواية لكاوة لرأى عدم فائدة كتابة تلك المقالة، ولراح يخرج نفسه من اضطرابه. أيّة ليلة يمكنها أن تتجلى فيها مقالة كاوة؟ أيّة ليلة؟ وقعت عيناه على الهاتف. ما الذي يفعله في غرفته؟ تحركت يده دون إرادة منه صوب الهاتف ثم رفع السماعة واتصل على رقم قبة زرّين. لم يرفع أحد الهاتف. أعاد سماعة الهاتف وأكمل قراءة الرواية. وصل في الرواية إلى مكان تموت فيه آنا إيوانوفنا. كان ليلاً. كان يوري جيفاغو طالب طب ويفكر في موت آنا إيوانوفنا وفي نفسه مواجهة الموت، وتذكر موت أمه قبل اثني عشر عاماً. ما اختلاف حالته الحاضرة أمام موت آنا إيوانوفنا وحالته أمام موت أمه قبل اثني عشر عاماً؟

وقف حزيناً لساعات طوال. فراق النوم. صوت هادئ وعميق خاص بالموتى. ضوء الشمع المحترق ليل نهار، والحمى التي ابتلي بها هذه الأيام. إنه حزن لذيذ. إنه إحساس مريح وهمي. هناك شغف وإثارة نحس قائمتان في روح يوري. كان صغيراً قبل عشر سنوات حين دفنوا أمّه في التراب. هذه الدموع التي لا تغني تذكره مرة أخرى، ويرى نفسه ثانية وهو يتهالك من الحزن والوحدة. في تلك اللحظة لم يكن في وجوده نقطة أصيلة أو أساسية. في ذلك الزمان كان يفهم بصعوبة، أنه يوري، اسم معزول عن كل شيء هناك فائدة وقيمة مبهمة وغير محددة تشمله. في تلك اللحظة هناك نقطة أساسية

ومهمة تحيط به. العالم الخارجي مثل الغابة؛ واضحة ومحسوسة، وهي بالنسبة له لا يمكن عبورها ولا يمكن إنكارها، أحاطته من كل صوب. لذلك ضاع في هذه الغابة وفجأة بقي وحيداً. هذه الغابة، كانت العالم كله. الغيوم، لافتات المدينة، سلالم الحريق. الأخوان الدليلان الراكضان أمام دبابة مريم، وبدل وضع قبعة نوم، وضعا قماشة على رأسيهما. هذه الغابة هي نفس أقفاص الدكاكين في الطريق. في مقام رفيع ولا يمكن الوصول إليه مثل السماء الليلة، يسكنها الله محب القديسين والنجوم. كانت هذه السماء الرفيعة في غرفة طفولته تنطوي كثيراً وتنزل حتى تلامس رأسه. في تلك اللحظة التي يتحدث فيها عن الله كانت السماء قريبة جداً وأليفة. مثل مقدمة شجرة بندق تحني أغصانها في جدول. كأن السماء تغتسل في حوض معهم وتغير شكلها ممزوجة بالنار والذهب حين تأخذه الداية إلى الكنيسة الصغيرة لينشغلا بالدعاء والصلاة. تظهر النجوم بصورة مصابيح قليلة النور مضيئة تماثيل القديسين، ويظهر الله بصورة حضرة القسّ وينشغل كل الناس حسب أهوائهم. ولكن أساس العالم الحقيقي كان أشخاصاً كباراً ومدينة مثل غابة ضبابية تحيطه. حينها كان يوري يؤمن، مثل حارس غابة، نصف إيمان روحاني بإله هذه الغابة.

«تغيّرَ كلُّ ذلك. درس يوري في الأعوام الاثني عشر المرحلة المتوسطة والمتقدمة والعصور التليدة وأصول المسيحية والأساطير والشعراء والعلوم القديمة والعلوم الطبيعية مثل دفتر يوميات لعائلة أو مثل علم الأنساب. والآن لا يهاب شيئاً. لا من الحياة ولا من الموت. كل ما هو موجود كان كلمات في قاموس اللغات

التليد وجدت نفسها في العالم. الأسلوب الذي اتخذه لإحياء ليلة عزائية لموت آنا إيوانوفنا مغاير تماماً للّيلة العزائية التي أحياها لأمّه. في تلك اللحظة جُنّ من الألم والعذاب وبات يخاف ويتضرع. والآن يستمع لدعاء الأموات وكأنه رسائل موجهة له وتتعلق به مباشرة. كان يستمع للكلمات بدقة، مثل إنسان جاد ينتظر أخذ المعنى الصريح والمفهوم لها، وبات يشعر بقدسية وفهم القوى العليا للأرض والسماء في ذاته التي لا ترابط بينهما. كان وارثاً لهذه القوى. يعظّمها. كما أمام الأسلاف الكبار المعروفين».

مع قراءة داوُد لهذه الفقرة ودّ من أعماق قلبه أن يغوص في الليل أكثر مما هو عليه ويفكر بكلمات الكاتب. تذكر صباحاً كان يقف فيه على الرصيف ويداه ترتجفان من البرد. قال لنفسه: «فائدتي من هذا البرد هي هذه الارتجافة. لم أكبر إلى الحدّ الذي يوجه العالم فيه خطابه لي. كنتُ فرحاً بتلك الصعوبة والبرد الذي أحتسيه وتلك الرجفة الدائمة. ولكن الحقيقة أن الكلمات كانت تنزلق من رأسي وتذهب. لقد دمرها الرجل المهيب. من الممكن أنه جاء ليقتلعني من فترة حياة واضح فيها الارتجاف لأدخل في فترة جديدة. فترة أكون فيها بعيداً عن الهواء الخارجي، وأكون أنا وهذا المعطف مثل جدران قلعة تحميني من الآخرين».

لم يستطع البقاء في دكان الثياب ليعيش لحظة المشهد كما أوصاه قبة زرّين. فهِم بإلهام من سطور باسترناك لمَ يصبح قريباً من هذه الثياب وشماعة الثياب بعد. أنِسَ الرجيف وهذه الثياب

العدوة للارتجاف. ذلك الزقاق وذلك الدكان وما فيه من أدوات هي الغابة الغريبة عنه وقد أحاطته. لو كان كبيراً مثلهم لما ساوره الخوف والقلق. كانت الرواية في الواقع تعيد كلام كاوة، فقراءة الرواية مثل فهم الموت أسرع بالنسبة إليه. يجب أن يمرّ الزمن وإلا ستكون الرواية مثل تلك الغابة التي أحاطته.

أطفأ المصباح ونام وهو يشعر بتقدير لرواية الدكتور جيفاغو.

أين اختفى فجأة قبة زرّين في ذلك الزقاق؟ كانت الليلة الأولى من يناير. كان قبة واقفاً يراقب من بعيد داوُد الذي أخذ يقترب من الزقاق. وفجأة قبض شخص على كتفه من الخلف ضاحكاً بصوت جش. كان يضع قبعة استراخانية(*). قال: «قبة ما الذي تفعله هنا؟».

تعجب قبة واستدار حول الرجل الطويل ليرى وجهه في النور. قال: «سيرغي! الكاتب اليائس! أين كنت؟ بعد عُمر جئتُ إلى حارة الأرمن فظهرت لي فجأة. كلّ هذه الأعوام! كلّ هذا التجاهل!».

ضحك سيرغي: «تجاهلُكَ أنت لا أنا!». فتح أزرار معطفه وأراه من تحت المعطف رأس قنينة: «ولكن لديك حظ يا أقرع! تعال لنذهب. كنتُ أسير هنا لساعة باحثاً عن شخص ليشاركني كأساً. والحمد لله أن الجميع باتوا أصحاب عوائل وتراكموا في البيوت

(*) نسبة إلى مدينة استراخان الروسية.

ليلة العيد وتركوني وحيداً أنا أعزب أوغلي(*). تعال لنذهب».

لما رأى قبة القنينة أخذه الشوق. ليس للسكر فقط، بل لتجديد ليالي الشباب التي كانت تمتد حتى الصباح. التفت وألقى نظرة على الزقاق فلم يرَ داوُد. قال: «إلى أين سنذهب يا سيرغي؟ كنت مع شخص هنا..».

رفع سيرغي رأسه معترضاً وقال: «لن نذهب إلى مكان سيّء. سنذهب للكنيسة. وجدتك ولن أدعك تغيب عن عيني».

قال قبة: «ولكن لماذا الكنيسة؟ أليس لديك بيت؟».

وضع سيرغي يده على ظهر قبة ودفعه. سارا: «لأن رفيقك بعد قضاء عمر من ادعاء الكتابة تحوّل إلى حارس كنيسة لكسب لقمة العيش. الحقيقة أن الأسقف الأعظم اقترح ذلك عليّ. وجدتُ نفسي دون زوجة وعائلة وعاطلاً وأقضي ليلي أرِقاً حتى الصباح، فقلت لنفسي لماذا لا أقبل هذا العمل؟ هذا أفضل من الكتابة في الصحف الموشكة على الموت. لم أقم بعمل سيّء، أليس كذلك؟».

مازال قبة يلتفت أحياناً ويلقي نظرة على الزقاق. قال: «وما السيّء في ذلك؟ بالتأكيد أن لديك الوقت. وفي الليل لا شيء يحدث هنا».

قال سيرغي: «لا، لا شيء هنا، ولكن في بعض الليالي مثل هذه

(*) أوغلي نسبة إلى أوغلان وهم من الأزبك. وهو مَثَل يضرب للأعزب العاطل عن العمل والحياة.

الليلة، أُجبر على اصطحاب أحد معي. تذكر أن لدي ابن أخ يأتي إليّ. ولكنه الليلة لم يأتِ. الجميع منشغل بنفسه. والأسقف الأعظم الليلة هناك. وأخاف البقاء معه وحيداً في الكنيسة».

ضحك قبة وقال: «لماذا تخاف يا ضخم الجثة؟».

قال سيرغي: «لأنه أسقف. لم أرَ طوال حياتي رجل دين عن قرب، فما بالك في البقاء معه ليلة بين جدران. أرتجف حين أسمع صدى خطواته وهو ذاهب للمرافق».

قال قبة: «تباً لك. الإنسان الديني لا يخيف. عليك الخوف من إنسان مثلي دون دين. تعال، وأنت الذي تُعتبر كاتب هذه المدينة».

غيّر سيرغي مكان القنينة تحت المعطف وقال: «أخاف وليس أمامي أي حلّ. ألا يخيف الإنسان ما لا يمكن توقّع ما سيفعله؟ وهم إذا حدث لهم إلهام يدفعهم للإقدام فهذا أسوء. عليّ الهروب».

توقف قبة، قال: «انتظر. لا يمكنني المجيء معك الآن. أعرف أين تقع الكنيسة. اذهب أنت وسآتي خلفك».

رفع سيرغي صوته: «لماذا لا تستطيع؟».

أمسك قبة بكتفي سيرغي وقال: «لدي عمل، هناك من ينتظرني، ومن المعيب تركه دون إخباره بمتجهي إلى منادماتي».

قبض سيرغي على ياقة قبة: «أتريد أن تتركني معلقاً».

هزّ قبة رأسه: «مع ما تخفيه تحت معطفك لا يمكنني أن أرتكب مثل هذه الحماقة».

رمَش سيرغي: «حسناً. سأذهب وأنتظرك. إذا وصلت اضغط على الجرس الصغير. مكتوب عليه الحارس».

قال قبة: «حسناً حسناً. لا تخف سآتي».

عاد قبة إلى الزقاق وتريث سيرغي واقفاً فترة ثم مرّ من أمام المقهى عابراً للشارع. أسرع قبة في سيره للوصول إلى الزقاق. عبرت من جانبه امرأة ترتدي شادوراً. بدت كأنها خرجت من الليل تواً ومرّت من أمامه ثم اختفت في الليل. سار قبة من جانب عتمة الزقاق حتى وصل إلى المكان الذي قبض فيه سيرغي على كتفه، ولكنه رأى من بعيد أن لا أثر لداوُد. اقترب بخوف من الزقاق وألقى نظرة للداخل، لا أحد فيه. تذكر تلك الليلة. ابتلع ريقه وتنفس الصعداء وأوصل نفسه بالتحديد حيث وقفت الفتاة في تلكم الليلة. غطى فمه بيده واتّكأ على الجدار ثم جلس. عذّب نفسه كل تلك الأعوام متخيلاً الفتاة، لائماً نفسه على عدم الاستجابة لها والابتعاد عنها. والآن مع ذلك الاحتمال الذي تعلمه من الشاعرة الروسية، فمن المحتمل أن تكون تلك الفتاة هي المسرح المهدم. سقط بعض ما كان يحمله. مسح عينيه وألقى نظرة على نهاية الزقاق. همس: «أين أنت يا مسرح القلعة؟ هل يمكن أن أراكِ مرة أخرى؟ لو كنت سأراكِ يجب أن تكوني شابة مثل تلك الأعوام، ولكني كبرتُ وتساقط شعري. لو كنتِ ذلك المسرح يجب أن تكوني شابة مثل الصورة التي بقيت عالقة في ذهني. هذا فعل الدنيا. عشتِ في داخلي حتى هذه الليلة لكنك لم تكبري. لو رأيتك مرة ثانية لعدتُ شاباً. لا أعلم. قد أكون عاشقاً لماضيّ وما أنت إلا حجة. ولكن لا ريب

أنكِ كنت جميلة تلك الليلة. ولكن لو حدث وظهرتِ مرة ثانية هنا، فما الذي ستقولينه لي. أراهن على أنك ستبكين. من ماذا؟ من كل هذه الأعوام التي مضت وكنتُ فيها أمثل المشاهد دونك ولم أخجل من تنقلي من المشاهد من دونك. نعم. هكذا تنزلق دموعك على وجنتيك الناعمتين الطريتين».

يبدو الزقاق وكأنه فُرِشَ بشواهد القبور. لم تظهر علامة على الهمس. لم يُفتح باب. لم تظهر فتاة. ليس هناك سوى برد قارس في الهواء وضوء أصفر من دون روح يصل حتى ظهر الجدار. فجأة سمع صوت خطوات خلفه. استدار فرأى بابا نوئيل يقترب منه بهدوء. نهض ومرّ من أمامه بابا نوئيل بلحية بيضاء وقبعة حمراء كما ثيابه وقال: «الجو بارد جداً الليلة. أنت لست أرمني صحيح؟».

حرّك قبة رأسه نافياً. هزّ بابا نوئيل يده له وأكمل سيره. كانت في يده هدية مغلفة. ذهب وضغط على أول جرس صادفه ووقف ينتظر. التفت إلى قبة باسماً. فُتح الباب ودخل بابا نوئيل. أدخل قبة يديه في جيبيه وسار إلى الكنيسة مستعيداً الفتاة. حين مرّ من أمام المقاهي لمح شخصاً شبيهاً بداوُد يعبر من الرصيف بسرعة. بنفس المعطف الجديد. ناداه: «داوُد!»، ولكن القامة العالية لم تسمعه، ومرّت من أمام بائع السجائر مبتعدة. وصل الشارع، أكمل سيره إلى الكنيسة. حين وصل إلى الكنيسة وجد سيرغي واقفاً أمام الباب رافعاً رجلاً ومنزلاً الأخرى. قال: «لماذا تقف هنا؟».

قال سيرغي: «كنت انتظرك. أخاف الدخول وحدي».

قال قبة: «ياه. كلما كبرت تعود أكثر طفولة. لندخل بسرعة».

وضع سيرغي المفتاح في القفل ودخلا. أضيئت الباحة والبستان والكنيسة بأنوار أعمدة النور. شجرة صفصاف كبيرة زينتها كرات فضية وذهبية والثلج فوقها. ثلج البارحة. أشار سيرغي إلى غرفة. قال: «غرفة الحارس هناك. لا تقلق. سوف ندفأ الآن».

قال قبة: «أين أسقفكم الأعظم؟».

أشار سيرغي إلى الكنيسة وقال: «أعتقد أنه مازال هناك. لا تقل أسقفكم أنا لست منهم».

اتجها إلى زاوية في الباحة. كان الثلج يُضغط تحت أرجلهما مصدِراً أنينا. تغيّرت ملامح سيرغي. اتسعت عيناه وانفصلت شفتاه. انتبه قبة لحالته. قال: «ماذا بك؟ ما الذي حلّ بك؟».

لم يجبه سيرغي. كان ينظر إلى بناء الكنيسة. تابع قبة حيث كان ينظر سيرغي فرأى ظلاً لشخص بلحية طويلة، يقع على نافذة الطابق الأول. كان ظل رأسه مطرقاً وينظر إلى كتاب في يده. ثم ابتعد عن النافذة وغاب.

قال: «لماذا كل هذا الخوف؟».

فتح سيرغي باب الغرفة ثم نزع حذاءه ودخل. أخرج القنينة ووضعها على الثلاجة. قال بصوت شاكٍ: «يقولون الكلام مرة واحدة لا غير. قلتُ لماذا أرتعب حين أراه. لا أقصد أنه إنسان سيّء. هو إنسان طيب جداً. هو قديس محض. ولكن، وكما كُتبَ في لوقا،

حين أوقف المسيح الإعصار خافوا منه، وأنا أيضا أخافه. علاوة على ذلك أنا لستُ منهم. لا أعرف ما يؤمنون به. هل ذكرت لك ذلك؟ أنا من فرقة (الانتظاريون)(*). هل تعرف كنيسة الآدونتيسستين؟ كان عليّ الذهاب الليلة هناك».

قال قبة: «يبدو أنها أغلقت. تمرّ أعوام وأبوابها موصدة».

وضع سيرغي يده فوق المدفأة، ثم أدخل يده في جيبه وأخرج مفتاحاً: «مفتاحها معي. أنا فقط من بقي من (الانتظاريون) في هذه المدينة، لقد هاجر الجميع. كان يجب أن أكون الليلة هناك مشعلاً الشمع. هل ترى حظي العاثر؟».

أغلق قبة الباب واقترب من المدفأة وقال: «حسناً، سأبقى هنا حتى تذهب وتشعل الشمع وتعود. هل يرضيك هذا؟».

قال سيرغي: «ليس الآن. دع الوقت يمرّ».

جلس قبة على كرسي مقابل نافذة فُرش عليها مخمل متهرّئ. أصدر الكرسي صوتاً. كانت بينه وبين النافذة طاولة صغيرة. وضع سيرغي القنينة عليها. ثم حمل كأسين صغيرين كانا في المطبخ بجانب الثلاجة ووضعهما على الطاولة. حينها جلس على الكرسي مصدراً صوتا مرة أخرى. فتح سدادة القنينة وسكب منها في الكأسين الصغيرين.

قال قبة: «أطفئ المصباح!».

(*) فرقة ظهرت في تبريز، وهي متفرعة عن البروتستانت.

نظر له سيرغي متفاجئاً، وحين رآه ينظر إلى الكنيسة استجاب له وضغط على زرّ المصباح. تشخص الآن الكنيسة أمامهما بنوافذها المضيئة في الطابقين الأول والثاني. كان الثلج قد تراكم على السقوف المحنية. وكان الطابوق بصليّ اللون. كان مشهداً يشبه بطاقات معايدة دكاكين الأرمن. كل هذا والليل والسكوت في الكنيسة وانتظار السكَرة، جعله متحيراً.

قال قبة: «هل تراه؟».

قال سيرغي: «الآن، وبما أنك هنا نعم. ولكن حين أكون وحدي لا أجرؤ على النظر. أأشغّل التلفاز».

رفع قبة كأسه إلى فمه وأخذ جرعة منه. أطلق نفساً وأنزل كأسه: «دعني أقول لك. هذا أسقفكم الأعظم حضرة توبوزيان يلعب خلف هذه النوافذ لعبة الظل. وهذا ما يخيفك. وإن كنت تراه لما أصابك كل هذا الخوف. الظل مخيف حين لا ترى صاحبه. عليّ إدخال ذلك في بورتريهاتي».

عبّ سيرغي كأسه دفعة واحدة. قال: «أشعر الآن بدبيب الخمرة وأنا مع ما ستقترحه».

جلسا يحتسيان في الصمت ويراقبان ظلّ الأسقف. كان ظلّ الأسقف يظهر من تلك النافذة أحياناً، وتمرّ فترة لا يظهر فيها، ثم فجأة يظهر من نافذة أخرى. مرة بكتاب في يده. مرة دون كتاب حاملاً شمعداناً. وكأنّه كان يغير ديكور الغرف. كان يحرك الأشياء بصورة مستمرة ثم يغيب ويعود حاملاً شيئاً آخر خلف نافذة أخرى.

قال قبة: «هل ترى؟ يذكرني بشدة بمسرح الظل في شبابي. لماذا يطلقون عليكم الانتظاريون؟».

قال سيرغي: «لأننا ننتظر ظهور المسيح».

أخذ قبة مرة أخرى جرعة وقال: «آه. الانتظار. هل تنتظرون حقيقة؟ يعني سوف يرنّ في أحد الأيام الهاتف ويقول شخص من الجانب الآخر بصوت هادئ أنا المسيح الذي تنتظرونه؟ هل أنت كذلك؟».

ملأ سيرغي كأسه. أمسكه بيد وقال: «لا أعرف ماذا أقول. لو كان قصدك الانتظار الذي يجعل حياتنا عرجاء؟ فلا. ليس هذا الانتظار. ولكن يسعدنا أن نكون منتظرين. إضافة لذلك أعتقد أننا كلنا منتظرون. أنت أيضا منتظر. ألست كذلك؟ بالتأكيد أنك منتظر. ولكن قصة رنة الهاتف فلا. لم أفكر بها. لا تتطابق مع انتظارنا. بُنِيَ انتظارنا على الأناجيل. بنَته أعمال الرسل. ليست عودة المسيح فيها هكذا. على الأقل ليس عبر رنة هاتف. يجب أن يكون أعظم من ذلك. أوليس كذلك؟».

قال قبة: «لا أعلم. يبقى الإنسان المتدين منتظراً، ينتظر شيئاً عظيماً يحول كلّ شيء إلى كن فيكون. الحق معك. لا يمكن حدوث ذلك عبر الهاتف. وما الذي تنتظره من كل هذا التحديق في المستقبل؟ ألِكي يأتي المسيح؟ يأتي ويصحح الوضع؟ أنا أستمتع أكثر مع هذه الأوضاع المتدهورة. كأنّ جرحاً لديّ أدفن فيه إصبعي لكي ينزف مرة أخرى. ولماذا أريد أن تتحسن الأوضاع؟ تباً فلتبقَ. لقد عشت

حياتي. كم أنت هائج مع الخوف الذي تحمله؟ وبافتراض أنه قد جاء المسيح، فهل ستبقى خائفاً من الأسقف الأعظم؟».

قال سيرغي: «لو جاء المسيح؟ لا سمح الله».

ضحك قبة. قال متحمساً وهو ينحني على سيرغي: «يا رجل ألم تقل قبل قليل إنك من الانتظاريين؟ والآن تقول لا سمح الله».

ملأ سيرغي الكأس الثالثة. امتلأت عيناه بالدموع وصارتا تلتمعان. قال: «أريد قول الحقيقة. لا أعرف أيّة حالة هذه التي أصابتني. أريد قول الحقيقة لك».

التفت قبة وهو ينظر إلى لعبة الظل وقال: «فلتقل، لأنه كما قِيل الصدق في السكرة».

مسح سيرغي وجهه وقال: «جئت في وقت متأخر. كنت أنظف تلك الكنيسة. كانت فيها تصليحات وقد انتهت، وقد انشغلت منذ العصر بتنظيفها. عدت متعباً ومتهالكاً وفتحت الباب. لم أنتبه في البداية. كنت تعباً إلى درجة عدم اعتنائي بشيء. ظننتُ أن عينيّ من شدة التعب لا تحددان ما ترياه. ولكن داخلني الفضول ودقّقت. يا إلهي! لم تكن الكنيسة في مكانها. كأنها لم تكن».

تراجع قبة للخلف وحدق في وجه سيرغي من زاوية: «ما الذي تقوله؟».

قال سيرغي: «قسماً بالله. لم يخرج صوتي من شدة الخوف. تراجعت للخلف وخرجت من الباحة. لدي عمّة في منطقة جلفا.

ذهبتُ إلى الكاراج لأخذِ سيارة والذهاب إليها. لم يطاوعني قلبي. قلت لنفسي أخاف إذا أصبحت بعيداً كل هذه المسافة أن يتضاعف خوفي عشرات المرات. عليّ البقاء بالجوار حتى الفجر، ثم أذهب بعدها لأرى أين ذهبت الكنيسة. بقيت حتى الصباح في الشوارع. حتى أني أتذكر أني ذهبت إلى مسجد وجلست حتى نهاية الصلاة ثم خرجت. كانت السماء شفقيّة حينما عدت إلى الكنيسة مرة أخرى، وضعت المفتاح في القفل خائفاً وفتحت الباب، انقضت ربع ساعة حتى استطعت أن افتح الباب بمقدار شبر وألقي نظرة على الباحة. رأيت الكنيسة في مكانها. دخلت بهدوء. كان الجو منعشاً. والكنيسة كيف أشرح ما رأيتُ؟ كأني كنت أنظر إلى حَمل وُلد للتوّ. كانت رائحة شبيهة برائحة الحليب في الجو. كانت الحديقة والأشجار كلها ريّانة. آه. الشفق يدمر بني آدم. وقفت أنظر إلى الكنيسة متحيراً وفجأة رأيت الأسقف الأعظم يسير مسرعاً. سألني عن حيرتي. تجمد لساني في فمي. قلت لم تكن الكنيسة البارحة هنا. قال لا تمزح. قلت رأيتها بنفسي لم تكن هنا. أنكر، قلت سأخرج للشارع وأصرخ وأخبرهم أن الكنيسة لم تكن هنا. قبض على يدي وقال حسناً، فلتهدأ. افترض أن سيدنا جاء هنا. يكفي. أنت من الانتظاريين وعليك إتمام واجبك. هذه الكنيسة وكل ما فيها ما هو إلا عروج السيد إلى السماء. لو كان لما احتجنا لكل هذا المراسم. اذهب الآن لتنم. وأنا أيضا مغادر. ومنذ تلك الليلة صرت أخاف من البقاء وحيداً مع هذا الإنسان».

قال قبة وقد احمرت وجنتاه: «ألا تتوقع أن التوهّم انتابك في تلك الليلة ؟ مثلاً مخّك وفعلك وانفعالك وتوهمات..».

جمع سيرغي قبضته أمام فمه وتجشأ دون أن يصدر صوتاً، قال: «توهمات؟ تباً للتوهمات. من أين لي بمثل هذه التوهمات. إن كنت لا تصدّقني فاذهب إلى الأسقف الأعظم واسأله. إنه هنا. تراه مثل خفاش محاصر في غرفة، يتحرك من نافذة إلى نافذة. هل ترى تلك النافذة؟ إنها مطبخ. ولو لبث فيها حتى الصباح فغالباً ما سيُعِدّ الشاي لنفسه. لا أعرف كيف يحتسي كل هذا القدر من الشاي ولا يذهب للمرافق».

أطلق قبة ضحكة وقال: «الشخص الذي يمكنه أن يخفي كنيسة في قبعته ألا يمكنه أن يعبّئ بطنه بعشرة أباريق شاي؟».

قال سيرغي بعينين خائفتين: «ألا تخاف التطرق لذكره على هذا النحو؟».

ضحك قبة وقال: «فكّر بنفسك، فأنت تحتسي معي الخمرة».

قال سيرغي: «هل تراه عاد مرة أخرى للمطبخ. حان الوقت الآن ليفرغ الإبريق ويعدّ الشاي مرة أخرى».

قال قبة: «أرى. وأراه جيداً».

ملأ سيرغي كأس قبة. رفعا كأسيهما وتبادلا الأنخاب. اتكأ كلاهما وأخذا ينظران إلى نوافذ الكنيسة المضاءة. كان قبة يغمض عينيه أحيانا. قال وكأنه يهمس لنفسه: «ما الذي يدعو لغياب الكنيسة حين يأتي عيسى؟ لماذا ظهرت الفتاة حين هُدم المسرح؟ لماذا يقع هذا دائماً؟ عليّ رسم بورتريه لعيسى؟ لماذا لا أرسمه؟ سيرغي فلتعطني

صورة عيسى من هذه الكنيسة. سوف أضعه في البورتريه. وبما أني الآن ثمل يجب أن أسجله. فأنا حين أصحو سأنسى. تتداخل كل ملامح الوجوه في بعضها. صحيح؟ إذن ماذا. لدي الحق في خلط الملامح. لأن حينها نفس الشخص تأتي روحه. يأتي ويقف في الحطام الذي خلقتُه من ملامح وجهه. أفهم الآن أي خطأ فادح ارتكبته بالبورتريهات يا سيرغي. الآن أفهم. لا، لا أفهم. إذا كانت الكنيسة تختفي مع قدوم المسيح إذن عليّ أنا أيضاً رسم الوجوه حين تكون الروح. ولكني أريد الرسم. لا، أريد أن يكون لي وجه. ما دخلي بالروح. فلتجد هي حلاً لنفسها».

يقع مقهى الحمير في داخل بازار تبريز القديم. كل من يدخل المقهى عليه رفع معنوياته لتحمّل ما سيلاقيه. فمن المقرر أن يُسخر منه. ليس هو وحده، بل من كل شيء. وحين يحلّ الليل فلا يدخله إلا نخبة لهم أذن بالدخول أو إن لديهم تزكية. النخبة هم أساتذة السخرية.

على روّاد المقهى المرور من طرق البازار المظلمة طارقين على باب خشبي كبير بكل راحة بال. يعرف الحراس النخبة. ينام أحد الحمّالين ممسكاً بإطار في ليالي البازار. أحد أبناء البازار القديم عاش حياة الأثرياء، وحين توفي والده خسر كل الأموال بسهولة وتحوّل إلى حمال. اقترب من الباب بقدمين ارتدى عليهما جوربين صوفيين ونظر من بين شقوق الباب إلى الطارق، حينها ارتفع صرير تحرك آلة وفُتح منفذ من الباب. انحنى القادم وعبر من المنفذ ودخل في أجواء المكان المظلمة، كان يعبر من فوق سجاد ومن بين فوانيس وكان يقترب من ضجة تزداد اتضاحاً كلما دنا منها. كانت الضجة عبارة عن أصوات

الحناجر والأفواه الرجالية، كلام بصوت عالٍ وضحكات انفجارية. كان الضحك منغماً، وكأن رواد المقهى يطلقون انفجاراتهم دون تنسيق مسبق. ترتطم هذه القهقهات بالسقف المحدب فلا يدعها تصل لسكان المدينة. وهو من هذه الناحية شبيه بوديان جبال شمال تبريز حيث يمكنك الصراخ فيها دون أن يسمعك أحد. هذا الطراز البنائي الخانق للصوت استغله لصٌّ قبل أعوام خلت، فسرق كل ما في بازار أمير من ذهب. ولو حدث أنك قطعت كل أبواب تلك الغرف بمنشار حديدي فلن ينفذ الصوت منه.

لم يصل كاوة إلى الباب بعد، وكان يسير بخطى وئيدة في ظلمة البازار. في داخل البازار لم تكن هناك لسعات برد الخارج، ولكن الهواء مافتئ يعذب أطراف الآذان والأنوف. في الطريق كان كلب يتمدد، ومع اقتراب كاوة نهض من مكانه وركض جهة العتمة. كان كاوة يعبر من أمام الأبواب المقفلة وكان بإمكانه أن يقرر عن طريق الرائحة المتسربة من ثقوب الأبواب من أي دكان في البازار سيعبر. إنها بازارات القماش والقرطاسية والخردوات، وبازار النحاس. وهو كلما عبر هذه الأروقة المظلمة والضيقة مقترباً من المركز طغت رائحة السجاد والحرير على بقية الروائح. لم يبقَ الكثير على بوابة المقهى، وكان قد دخل محيطها حين كانت رائحة الحرير تعمّ المكان. فجأة صفع وجهه هواء دافئ. توقف عن السير. عاد مثل من يسير على الثلج ولا يريد أن يقتفي أحد آثار خطواته. مرة أخرى صفعه الهواء الدافئ. نظر إلى الجدران وألواح الخشب. ليس هناك من ثقب أو منفذ لهذا الهواء الدافئ. رفع يده حتى يلمس مرور الهواء الدافئ.

حرّك يده في الهواء وقرّبها من الجدار ثم مررها على الألواح الخشبية، ولكن لم يكُ هنالك منفذ للهواء. نظر إلى الجهتين المظلمتين وأصاخ السمع لكي لا يصادفه عابر أو حمّال خوفاً مما قد يفاجئُه به. في النهاية لم يصل لشيء. صار يحدق في الطريق الذي أخذ يسير فيه، ولكنه لم يتقدم أكثر من عشر خطوات حتى سمع صوت خطى خلفه. استدار ونظر من خلال ضوء القمر الخفيف المتسرب من ثقوب السقف فرأى جسداً يشبه الظل مثل بياض يقترب منه. حشر نفسه بين الجدار فرأى الجسد يقترب منه؛ رجل خمسيني شارباه كثيفان، يرتدي شروالاً فضفاضاً وفانيلة داخلية ذات أكمام طويلة. في إحدى يديه عصا ثبتت على رأسها مسامير تلتمع تحت النور الخفيف. كاد كاوة أن يصرخ مما يراه ويسلم عليه. كيف لهذا العابر أن يخرج في شتاء صعب بفانيلة داخلية. كان كاوة لايزال في صدمته حين توقف العابر أمام نفس المكان الذي صفعه فيه الهواء الدافئ. وضع عصاه على الجدار ونزع فانيلته وجمعها بكلتا يديه. تساقطت قطرات ماء من فانيلته. قال كاوة لنفسه: «هذا من عجائب المخلوقات. تعجبت من ارتدائه الفانيلة وها أنا الآن أراها مبتلة».

أبقى العابر فانيلته في الهواء حتى يجففها الهواء الدافئ. نور القمر الخفيف يلعب على عضلات جسده. مرت عشرون دقيقة ولم يعبر أحد. لم يكن بمقدور كاوة تحريك قدمه. كان يخاف من الصوت الذي ستصدره قدماه فيعلم العابر بمكانه ويأتيه بعصاه. لم تخلُ المدينة من هؤلاء العابرين. بالقرب من حارتهم هناك مكان يُطلق عليه (ديزل آباد) تصطف فيه الشاحنات صفوفاً طويلة في

الشارع أو في الكراجات، ومع تغير درجة الحرارة تتغير زمجرة أجساد الحديد، كان يُرى مثل هؤلاء العابرين حاملي العصيّ الغليظة. ولكنه غريب عنهم كلهم. من يسير في هذه الأجواء الباردة بفانيلة داخلية مبللة وفي يده عصى مطعمة بالمسامير هل سيفهم كلام البشر؟ تذكر مقالته وأنّب نفسه، أيّة ظنون هذه التي يلصقها بالرجل؟ فهو مهما كان إنسان، وخلف ظاهره الخشن هناك على أيّة حال حركة حياة. كان يفكر ويكاد يرتجف من البرد حين لبس العابر فانيلته وعاد من الطريق الذي جاء منه في عمق ظلمة البازار. حين انقطع صوت خطواته خرج كاوة ورفع ياقته للأعلى وغرق مفكراً في تيار الهواء الدافئ وسار. فجأة وجد نفسه أمام المقهى. طرق الباب بقبضته. صرير باب وانفتاح منفذ. انحنى كاوة وعبر. وزعت الفوانيس على طول زقاق صغير خفيّ. حشر كاوة يده في جيبه وأخرج ورقة نقدية سلمها للحمّال. أغلق الحمّال المنفذ وأخذ المال وقال بكل هدوء: «بارك الله بحمير هذه المدينة. لو لم يكن هذا المقهى وكل هذا الاستحمار لما استطعت إعانة ابنتي لتكمل دراستها».

قال كاوة وهو يفكر: «ألم تنهِ دراستها بعد؟ قلتَ إنها تدرس الطب؟».

قال الحمّال: «نعم يا سيدي. تقول بقي لها ستة أشهر. ولكنها غيّرت معزوفتها. تريد نيل الاختصاص».

قال كاوة: «لا بأس. إذا انتهت الأشهر الستة هذه يمكنها أن تعمل، وستخفف عنك عِبأك».

قبض الحمّال على ذراع كاوة: «لماذا أنت مستعجل يا مهندس؟ لا سمح الله من أن يتلاشى محفل الاستحمار هنا. أبداً. حينها يجب أن تُزال هذه المدينة بزلزال».

قال كاوة: «أنا شخصياً من مريدي هذه الحلقة يا نديمي».

قال الحمال: «أعرف. أنا صيرفي بشر. اقضِ وقتاً طيباً». وأرخى ذراع كاوة.

عاد كاوة وبخطوات وئيدة ليعبر من بين الفوانيس. في الظلمة لا تُرى نقوش وانحناءات المقهى القريبة من السقف. ما هو إلا نور أصفر حائر ينعكس على الأعمدة والجدران. عبر الطريق الذي ترسمه الفوانيس اقترب من ضوء مبهم. وفي نفس الوقت كان الصوت يشتدّ ويميل هواء الممر إلى الاعتدال. قال: «آمل أن روكسانا لم تستيقظ بعد وإلا فإنها ستخاف. قد يستيقظ داوُد من النوم ويبحث الاثنان عني». أقنع نفسه بفكرة أن روكسانا نائمة لأن عملها في النهار متعب. ليس الجميع مثله إذ أن عمله طوال النهار هو القراءة والتفكير، وهو ليس لديه نشاط جسدي مثلهم، فهم يجافيهم النوم ليلاً ومع أقل صوت يستيقظون منه. وصل إلى ساحة الضوء. كان الضوء يتسرب من قبو. وضع يده على الجدار ونزل السلالم. مرّ من الباب فصفعه عطر الشاي والتبغ القويين. مع دخوله قال شخص: «أهلا! جاء الزيطة!».

سمع ضحكات، ولكن الدخان لم يتح له التحقق من الوجوه. كان يبحث عن مكان يخلو من الوجوه ليجلس فيه. الزيطة لقب منحه أولئك الحمير له.

في زاوية هناك مكان خالٍ يجلس فيه رجل مع قفص فيه كناري، وقد وضعت بجانب قفصه أرجيلة يدخنها وينفخ الدخان في الجانب الآخر لكي لا يتجه إلى الكناري. جاء لبيع الكناري. توضع الكناريات في المقاهي حتى تغرد، وحين تسكت يفطن صاحب المقهى إلى أن عليه فتح النوافذ حتى تخلص من الدخان. جلس كاوة ونظر إلى الوجوه. كأن الوجوه كلها أخذت اللون البرونزي من شدة البرد.

- سيأتي الليلة مستجاب.

قال هذا صاحب الكناري.

التفت كاوة إليه ورآه، ورغم أنه أنهى جملته لكنه أبقى فمه بقرب أذن كاوة. قال كاوة: «حقاً. من الجيد حضوره».

قال بائع الكناري: «أقول لك الحقيقة. الليلة ليلة الافتتاح بعد شهر من الإغلاق. من المقرر أن يفتتحها مستجاب. ألا ترى الجميع صامتين؟ إنهم ينتظرون. ليس هناك رئيس للحمير غير مستجاب».

أحضر النادل شاياً لكاوة وقال: «خانسار أم كاشان؟».

قال كاوة: «سأكتفي بالشاي». ثم التفت إلى بائع الكناري وقال: «سوف يموت هذا الحيوان وسط الدخان. لماذا أحضرته؟».

قال بائع الكناري: «من أجل الأمير مستجاب. وهل يتاح له سماع تغريد الكناري؟ دعه على الأقل يسمعه هنا».

عاد كاوة إلى الجهة التي جلس فيها رجل آخر يضع على رأسه

قبعة صوفية ويضحك دونما صوت ويمتص حبة سكر. وهو على حدّ تعبيرهم يقلقل في داخله. قال: «ما سبب ضحكك يا عمي؟ دعنا نشاركك الضحك».

حشر الرجل منديلاً في فمه حين سمع كلام كاوة لما اشتّد ضحكه وأحمرّ أكثر. ثم انتهى من ضحكه وقال: «لا شيء. تذكرتُ كلام مستجاب والأوضاع قبل شهر، أي أستذكرها حبة حبة وأضحك. الجميع هنا في الوقت الحالي في حالة خرس. ولو ضحكتُ عالياً فلسوف يرمونني للخارج. قلت لنفسي لأكتفِ بما أنا فيه ولا أصدر ضجة. هذا ما أمر به السيد أديب».

قال كاوة: «كأنكم جميعكم أصبتم بالخبل؟».

قال معتمر القعبة: «لا، لا. من المستحيل أن يصاب أحد هنا بالخبل. الخبل هنا لعبٌ بالموت والحياة. من يجرؤ على الخبل؟». وأعاد المنديل المبتل إلى فمه لكي يكتم ضحكاته.

قال كاوة: «ليجعل الله الأمور هكذا وأصل أنا أيضا إلى غايتي. من هو السيد أديب؟ أنا لا أعرفه».

قال معتمر القبعة: «لم يأتِ بعد. ياه! هل ترى ذلك الرجل الذي جلس قبالتنا؟ الرجل ذا اللحية البروفسورية؟».

نظر كاوة من بين الدخان فوجد رجلاً في الأربعين يرتدي بذلة وربطة عنق. يمسد بصورة مستمرة بيده اليمنى شعر رأسه ويهمس إلى من يجلس بجانبه. قال معتمر القبعة: «لحيته شبيهة بحجر المرحاض.

وضع حولها قرميداً بدقة متناهية، أنا أتحدى أن يبقي ساعتين أمام المرآة ممسكاً بالموسى». ثم حشر المنديل في فمه مرة أخرى وأخذ يضحك.

أحضر النادل الشاي لكاوة. ثم قال بصوت خفيض لمعتمر القبعة: «لا تحشر المنديل كثيراً في فمك. ستخرج الضحكات من مكان آخر».

أخرج معتمر القبعة المنديل وجمعه في يده. قال: «لا خوف أن أغرد من هناك كي لا يشعر الكناري بغربة».

في هذه اللحظة دخل المقهى سيد يرتدي عباءة. اتجه النادل إلى القادم الجديد وأمسك بذراعه ثم أجلسه بجانب السماور. ألقى السيد نظرة على الجمع وقال بصوت عال: «السادة الأراذل والأوباش المحترمين السلام عليكم! ألا تشعرون بضيق المكان ؟ ليتكم تجدون مكاناً آخر لنجتمع فيه».

قال أحد الجالسين: «هل جبل (العينالي) مناسب؟».

قال أديب: «ليس ذلك المكان، فهو بارد جداً. ومن المحتمل أن فيه ذئاب سوف تخل بمنادمة السادة».

قال آخر: «قلعة علي شاه».

قال أديب: «أنا موافق. تمسكوا جيداً سوف ننطلق». وأخذ يمثل دور السائق.

قال كاوة: «أين تقع هذه القلعة؟».

قال أحدهم من بين الدخان: «ها هي!». وتموج الدخان إثر ضحكته. لم يحفل أديب. فجأة أخذ المقهى بالاهتزاز. أصدرت الأراجيل على الطاولات والأكواب والسكريات أصواتاً. ارتعبت قلوب الجميع. قال أديب: «فلتشهد! ويقولون إن أديب دون كرامات».

قال صاحب اللحية البروفسورية: «كان زلزالا».

قال صوت آخر: «أيها الحمير الأعزاء!».

أخرج أديب مسبحته وانشغل بحباتها. كأنه لم يسمع شيئاً. فجأة حدق في كاوة وقال: «ألا تعرف أين تقع القلعة؟».

بلعَ كاوة ريقه وقال: «لا، لا أعلم».

ضحك الجميع. كان حضور أديب مبعثاً على راحة الجميع. كأنهم يستطيعون الضحك عالياً في حضوره ولا يخافون من عدم حضور مستجاب. قال: «هل أنت من هذه المدينة؟».

قال كاوة: «لا.. ولكن لي عشرة أعوام أسكنها».

قال أديب: «لا يهم. هل ذهبت في يوم إلى المصلى؟».

قال كاوة: «لا لم أذهب».

تبدو المقهى كأنها سائرة على طريق حجري. اهتزت بشدة إلى حدّ خروج غبار من السقف.

قال أديب: «حسناً، لا تسمح الجدران في أطراف المصلى برؤية القلعة. ولا يمكن الاقتراب منها. ليس عجيباً أنك لم ترَها. ومن

الممكن أنك قد رأيتها ولكنك لم تودّ الاعتناء بها. هل تأتي كثيرا إلى هنا؟».

قال كاوة: «لي عام. وجئت الليلة لكي أطرح فكرة مقالتي. أنا باحث في مجال تاريخ الفكر. الفكر الذي مات أصحابه. كلهم ماتوا. وأريد استخراج الفكر. أعرف أني بهذا العمل سوف أُقحمُ في شؤون الموتى».

انفجرت ضحكة. ظلال الضحكات تنحني وتستقيم على الطاولات.

التفت كاوة إليهم. ثم قال لأديب: «لم يزعجني هذا الكلام ولن يؤلمني. أستغل مثل هذه السخرية لصالحي. لقد ألقوا بأنفسهم وسط السخرية والتهريج ولكنهم يفهمون جيداً ما أقوله. إنني عادة إذا ما أردت كتابة نص كاسر للقواعد آتي هنا لطرحه. إن هؤلاء لا يعرفون إلا أمراً واحداً. يسخرون مني. سوف أدعهم يذهبون إلى أقصى نقطة ليسخروا حتى التخمة. إلى الحدّ الذي ينتهي فيه كل شيء. لهذا الأمر فائدتان. الأولى هي إزاحة الخوف من طرح الفكرة. والثانية هي أن لا يتركوك لوحدك لتنبهر بنفسك. هكذا استفدت من مقهى الحمير».

قال أديب: «ماذا تعني بانتهاء كل شيء؟».

قال كاوة: «يعني لو تركنا الاستهزاء ليسير هكذا شاملاً كل شيء فلن تبقى هناك ضرورة. وحين تنتهي ضرورة كل شيء نموت كلنا. لقد جاء في القرآن أن المنافقين يسخرون من الله. أنا أردّ بالطبع

بضاعتك إليك. أعتقد أن الإنسان إذا ما سخرَ من نفسه إلى أقصى حدّ فإنه سوف يموت».

ضحك أديب وقال: «ولماذا يموت؟».

قال كاوة: «ما قصدته هو نوع من السخرية يحيط بكل وجوده. أستبعدُ بالطبع مَن لو قضى عمره بالسخرية فيمكنه بعد ذلك السخرية من كل وجوده. هذه المقهى تفتح مساءً فقط، وهي سرية. ولو أراد الإنسان أن يجعل السخرية كليةً، فعليه الجلوس بصورة مستمرة في هذه المقهى. عليه أن يدعو الرفقاء والحمير الحاضرين هنا دائماً إلى السعي وإلا فإنّهم سيهلكون. إضافة لذلك فإن من المحال إنهاؤه. لا يمكن. عليه أن يسخر من شكله حتى من دقات قلبه. مثلاً ما أن تتضارب دقات قلبه فعليه أن يبتسم ساخراً منها. كل شيء. أعتقد أن الضراط وحده لا يمكن السخرية منه. أنت مثلاً، رغم المهارة التي تمتلكها واضح أن روحك متهالكة لتنقذها وتدير هذا المقهى. صحيح؟ أليس ما أقوله صحيحاً؟».

عقد أديب ذراعيه وقال: «إدارة المقهى؟ نعم نعم».

قال كاوة: «ينشأ هذا من علم مختلف. إدارة المقهى. صحيح؟ حسناً، تقوم الآن بدور الملاك. عفواً أليس من المؤسف أنك تذهب للمراحيض دائماً ويصيبك الإسهال ومجبر على تناول الطعام ثلاث مرات يومياً؟ كل هذا سخرية. أي أنه يجرّ الإنسان إلى السخرية». وضحك لأول مرة.

ضرب أديب كلا كفيه على الطاولة وقال: «حسناً يا صديقي

العزيز. وصلنا الآن بالتحديد تحت القلعة. أردت الدخول من طريقٍ أقصر لكني انشغلت بالكلام. بات واضحاً أن علينا دعوة حضرة مستجاب ليأتي. وها هو».

أشار أديب إلى وسط المقهى. لبّى مستجاب الدعوة بجسد هرقلي كأنه زجاج شفاف تُرى الملامح عبره. التفت كاوة إلى أديب وقال: «أأنت الذي أحضرته، كيف؟».

قال أحد الجالسين في الزاوية المظلمة للمقهى: «ساحر ويعرف عمله جيداً».

قال أديب: «دعنا من كيف. والآن يجب أن تغلي الجلسة. هل تستسيغ أن تخبرهم بمزح فجّة. ويمكنك أن تطرح مقالتك. أتمنى أن تصل إلى هدفك».

ألقى مستجاب نظرة على الجميع وأشار إلى اثنين من رواد المقهى ليفسحا له المكان. فابتعدا عن بعضهما. جلس مستجاب بينهما. التفت إلى كاوة. الصوت الذي تردد في المقهى يعرفه الجميع. نفس الصوت الذي سُجّل على الأشرطة. كأنه صوت شريط قديم يُبث من جهاز تسجيل تجمّع الغبار على مغناطيسه. قال صوت مستجاب: «أنت، قل لي، ماذا تريد أن تكتب؟».

قال كاوة: «ما أريد قوله يجب أن يُبقى المرء ثورياً للأبد. ليس هذا أمراً سيئاً. لأنه ليس من اللازم أن تُضرب وتُكسر من أجل الثورة، أو تُحرق. نحن نعيش في مرحلة بين الثورة وبين الحطامات مثل هذه التي تضع جداراً حديدياً فاصلاً. جدار حديدي ولكنه غير مرئيّ».

أطرق مستجاب برأسه وأخذ يسمع ما يقوله كاوة. قال: «حدِّثني أكثر. أي جدار هذا؟ هل تعلم معنى الحديد؟».

قال كاوة: «أعرفه. يُنزّل الحديد علينا».

التفت مستجاب إلى الحاضرين. قال «ما الذي تنتظرونه؟ اضحكوا!».

فجأة ضحك الجميع. حرّك معتمر القبعة منديله في الهواء مثل الراقصين وفتح فمه على اتساعه ضاحكاً. نهض الجمع الذي كان خلف الدخان وبنوا جداراً لحمياً وساروا على طول المقهى ثم عادوا.

قال مستجاب الدعوة: «حسناً. يكفي. تفضل أكمل».

جلس الجميع صامتين. كان أديب يسبّح بمسبحته.

قال كاوة: «إشارتي إلى جدار ذي القرنين. بُني جدار حديدي بيننا وبين مساوئ الثورة. علينا ألا نخاف من بقائنا ثوريين أبديين. إضافة لذلك، علينا قراءة تاريخ الحروب بصورة أخرى. أهم حدث تاريخي يدعم رؤيتي الجدارية هو هجمةُ المغول. أريد أن أثبت أن المغول لا يستحقون اللعن. كان المغول أفضل أصدقاء لنا. هجموا علينا وهدموا كل ما بنيناه. وكل من قاومهم قُتل أو أُحرق. مرحى لهم كلهم. والآن فإن أيّة قوة تريد الهجوم علينا سنستفزها. هل يريدون قصفنا بالصواريخ؟ مرحباً بالسعادة. ليقصفوا. أقول لكم هذا ظاهر القصة. لا يمكنهم العبور من الجدار الحديدي. إذن لن

تصلنا سيئاتهم. جاء في كتب كل المفسرين أن قوم يأجوج ومأجوج هم المغول الذين هجموا على الحدود الشرقية ووصلوا حتى بغداد ولفوا الخليفة بلَبِدٍ وقتلوه. أعتقد أنَّ هذا التطبيق ليس صحيحاً. علينا إذن الطرق على طبل ثوريتنا حتى يغضب أحدهم ويقصفنا بصاروخ».

رفعَ مستجاب الدعوة يده. سكت كاوة. نهض مستجاب وسار في المقهى. قال بجسده الزجاجي وصوته المذياعي: «ما تقوله جيد. ولكن ما الذي تتوقعه منا ومن مقهى الحمير؟ ماذا تنتظر منا؟ هل نقول إنه جيد أو سيّء؟ لا يمكننا ذلك يا حمار! إنظر اليّ فأنا جاد معك الآن. اعتنوا في البرزخ بفمي جيداً حتى استطيع الحديث كما أفعل الآن. وهؤلاء الذين على هم قيد الحياة انسَ أمرهم. إنهم لا يدركون إلا واحداً من اثنين. إما أن يغوصوا في ذواتهم ويتقرفصوا عاقدي حواجبهم ويدخنوا أراجيلهم بصمت ويحدقوا في حفرة مظلمة، أو إنهم إن حصلوا على مجنون فسيخرجون من حالة الذبول ويسخرون منه. في هذا المكان وفي هذا الوقت المتأخر جاؤوا ليخرجوا من ذبولهم. اذهب للبازار نهاراً، ولو أنك رأيت الحجر ينطق فهم سينطقون. افعل ما يحلو لك في مقالك. لا يمكن لأحد أن يتحدث معك. ولكن لو أردت إشراكهم وإشراكي في الموضوع فعليك إدخال نفسك في الجنون. ولو فعلت فكلنا سنكون في خدمتك».

نظر كاوة إلى أديب: «كيف يمكنني الظهور مجنوناً؟».

عقد أديب حاجبيه وقال: «اسأل مستجاب. هو الخبير وصراف الحمير لا أنا. أنا محضر فقط».

التفت مستجاب الذي سمع الحوار إلى المقهى. قال: «هل لديك برسيم؟».

قال النادل الذي كان يقف بصعوبة أمام ضحكه: «ميرزا محسن الآن فصل الشتاء. هل مسّتك النار لتتخيل أننا في الصيف».

قال مستجاب الدعوة: «لا تتحامق. ماذا عن التبن؟ هل لديك تبن؟».

قال النادل: «نعم»، وركض فرحاً جهة المخزن.

صرخ مستجاب بصوت ثمل: «أحضروا مِخلاة(*) للرجل. ها ها».

أحضر صاحب المقهى من المخزن الخلفي مخلاة حصان مملوءة بالتبن لكاوة. أشار مستجاب لكاوة لكي يحني رقبته. أحنى كاوة رقبته. علّق النادل المخلاة في رقبة كاوة وربطها. أشار مستجاب: «انهض لتمشي في المقهى»، وبدأ بالغناء. حرّك الجميع القسم الأعلى من أجسادهم يميناً ويساراً وسايروا الغناء. صرخ مستجاب: «ها ما شاء الله. ها. وهذا جنون ليلتنا. وفيما بعد قولوا إن مستجاب سيء. لا يمكن مقارنة حِرَفيّتي بأحد. والآن كل من لديه ما يقوله عن مخ الرجل فلينهق».

(*) المخلاة هي كيس العلف الذي يعلق في رقبة الدابة.

بدأ كاوة بالسير في المقهى والمخلاة في عنقه مصغياً لما يُقال عن مقالته. ولكي يقدح أذهانهم غمس رأسه فيها. طرق روّاد المقهى بقبضاتهم على الطاولات من شدة الضحك. يكررون النظر لكاتب المقالة ويصرخون فيه انشر المقالة فنحن نقف خلفك. نهض صاحب اللحية البروفسورية وقال صارخاً: «أيها السادة الحمير! الثورة جيدة! أنا أتفق مع هذا الحمار المفكر. ولكن النقطة هنا هي، مع الثورة، مع أيّ ثورة لعينة، أننقطع عن الواقع. ها؟ ومع الثورة فإن نفس هذه الواقعية التي تشكلت عبر سنين سوف ندهسها. وعلى حد تعبير نهيق أصدقائنا مرحى للسعادة! ولكن حين تتهدم الواقعية سوف يحلّ مكانها شيء آخر. الكابوس! أنا من جماعة الكابوس. لدي قوة تحمله. أحبّ البقاء في الكابوس. إذا هجم عليّ المغول وبتّ في يدهم فالكابوس يخلق بديله. هل اعتدوا على أمي وأختي؟ ماذا عني؟ هذا النسب هو الذي يعيقني. يا سادة، الثورة لا تعرف القرابة. الثورة عاقة. تحرق الأنساب بالسجن والنفي. ولكن دعونا لا نتجاوز الحقّ، إن الحبّ يضع أوزاره، الحب للفتيات ثورة. ولو فعل ووصل إلى الزواج فهي عائلة سببيّة. حب في عالم كابوسي. هذا النهيق حقير. أنا مع رفيقي الحمار هذا في المخلاة. هذا عني. ولكن في نهار الغد أرجوكم لو رأيتموني في المدينة لا تذكروني بما قلته هنا. لدي زوجة وأطفال. لدي أمّ. صحيح ما قاله مستجاب. لو أردتم تذكيري سأشكوكم وأقول هذا السيد آذاني وعائلتي. سأعدّها مشكلة شرف وأرشو القاضي ليصدر حكماً في صالحي».

ضحكوا.

قال مستجاب: «إذن ماذا سيحلّ بالكابوس يا بروفسيور؟».

قال البروفيسور وهو متحمس: «الكابوس؟ الكابوس يعني هذه القهقهات الراكضة هنا. إلى أين ستصل هذه القهقهات؟ إلى لا أحد. الجميع الآن نائمون، وغداً حين يصحون سيخرجون بوجوه عابسة وكارهة. وبما أني الآن هنا في هذه الساعة من الليل فهذا يعني سقوطي من الحياة. ثورتك وعبر حضوري في هذا المكان أسخر منها. ألم أفعل ذلك؟ نفس حضرة مستجاب عجوزنا الذي أخرجه حضرة أديب من القبر. مبارك. بوجوده هنا يبول على فكرك. أليس هذا جيدا؟ أقول إنها أكثر روعة».

قال هذا ومسّد بيده لحيته. جلس وأخذ نفساً بخرطوم الأرجيلة مصدراً صوتاً. وصل كاوة قرب أديب. ألقى أديب نظرة على كاوة ونهض وأمسك بيده وأخذه حتى الباب. قال أديب: «فكّر فيما لو اعتدوا على أمّك فهل ستبقى ثورياً؟».

مدّ كاوة يده للمخلاة وقال: «من الصعب أن يفهم أحد ما أقوله. كيف أشرحه. الخلل بي لأني لا أعرف أن أوضحه جيداً. أنا ذو ثقافة مكتوبة ولست خطيباً. أنا أشكو من جُبننا. قرأتُ قروناً متمادية من تاريخ خوف الناس. الإنسان الجبان لا يمكنه تعلم السباحة. يجب أن يدفعه أحد في المسبح. الثورة بالنسبة لي هي الدفع. وحين أقول إننا جبناء لا تظن أني أشتم. الموضوع هو القوى الإنسانية. الثورة للشجعان. في حرب اليونان وإيران هُدمت المعابد اليونانية على يد الإيرانيين. هل تعرف ماذا كانت النتيجة؟ تقدم فن

الرسم والنحت اليوناني. لو لم يقم الإيرانيون بالهدم لما جاء التقدم. وأي جاهل يمكنه إنكار تقدم اليونانيين؟ ولكن هل يقبّل أحد ما يدَنا نحن الإيرانيين على التهديم؟ لو جاء يوناني ليقبل يدي ألا يصفوه بالخائن؟ أنا أيضا مثل اليونانيين. أنا أشكر المغول وتنحصر شجاعتي في هذا».

يبدو أنّ صاحب اللحية البروفسورية سمع الحديث. رمى الأنبوب على الطاولة ونهض مرة أخرى وقال بصوت يشبه الصراخ: «وهل ستبقى الشجاعة معهم؟ هل ستبقى هذه القوى فوق الإنسانية دون أن تهرم أو تُقلع؟ لا يا رفيق. لن تبقى. لو كان هناك معارض لكلامي فلينهق. إن أصحاب الثورة كلّما مرّ الوقت عليها تقلّ حدتهم. يعِدونك ولا يفون بوعودهم. يدعونك إلى منازلهم ولكن لا يفتحون لك الباب، يرونك في الشارع ويتلافونك كأنك لست موجوداً. وكأنك لم تكن معهم لأعوام في خندق واحد. تقول لنفسك ما الذي حدث للشجاعة الثورية؟ ألا تملك شجاعة مواجهتي؟ كنت معي رفيقاً لأعوام؟ لماذا حين يراني يختبئ خلف زوجته وأطفاله؟ لذلك قلتُ حين تراني نهار الغد لن أذكرك. لا تزاحمني. لم أعد شجاعاً وطليق لسان هذا المقهى. من أجل مهزلة الثورة وجدت شجاعة وجرأة. وقد يكون من أجل حضور مستجاب. ولكني غداً كائن سافل وجبان. لا تأتني وتخيفني. ولكن لا تطلق عليّ الأحكام. أريدك أن تعرف أنني ومن شدة ثوريتي وصلت إلى ما أنا عليه الآن. لقد وصلت إلى هذا الحطام من تلك الشجاعة التي أظهرتها».

لم يدعه السعال يكمل وأخذ يتنفس. جلس مرة أخرى في مكانه.

لم يجبه كاوة. أراد رفع المخلاة من رقبته ثم تراجع عن الفكرة. ألقى نظرة على صاحب المقهى الذي كان يضع إبريق الشاي في الرماد ولم يكن منتبهاً لضجة مستجاب. حينها ألقى نظرة على الوجوه. كان يرى الأفواه ملتصقة ترضع من حلُمات أراجيله. يثمل من زينة الحمير في هذا الهواء الملوث. أشبع عينيه ثم فتح باب المراحيض. كان كلا المرحاضين مشغولين وسمع شخصين يتحدثان عن بناء قلعة: «أنا في حالة بناء برج أفعواني». توقف واستمع لبقية الحديث. «أفعواني؟ إذن أنت في حالة رقص الآن». فهم أن هناك منافسة من سيبني أفضل برج أفعواني. الحكم رجل كهل طويل بشعر منفوش. وقف خلف كاوة يدخن سيجارته. فطن متأخراً على دخول كاوة. التفت وحين رأى كاوة يضع المخلاة في فمه لم يتعجب. وضع إصبعه على فمه ودعاه إلى الصمت. ثم بنحنحة عدل من صوته وقال بصوت رجولي موجهاً كلامه إلى سقف المراحيض: «صديقيّ! بقيت لكما دقيقتان لا غير. فكرا بتزيين قلعتيكما. دائماً ما كان التزيين مهماً».

ثم سار على أطراف أصابعه جهة كاوة وقال: «آمل أن تتفهم الموقف. لقد قدّما مراهنة كبيرة. ولو كنت متضايقاً لتوجب عليك أن تنتظر قليلاً. سوف ألقي نظرة وحينها تستطيع الجلوس. نظرة واحدة ليس إلا. أخاف أن يفلت منهما تركيزهما. خلق العمل الفني لا يكتمل إلا بعضلة شرج قوية وحساسة».

هزّ كاوة رأسه موافقاً وطمأنه إلى أنه يفهم حجم المراهنة والمسؤولية. خرج من المراحيض ثم من المقهى. قال لنفسه: «هنا سقر بأمّ عينها». مرّ قرب الفوانيس. كان هناك حمّال على مصطبة بجانب باب خشبي يجلس متكئاً على سرج الحمار. في يده مذياع يقرّبه من أذنه وباليد الثانية يمسك بسيجارة. من النور الخفيف الآتي من الفوانيس كان جالساً بهدوء ووقار كأنه جزء من بناء الزقاق الضيق الخفي. ومع رؤيته لكاوة وهو يضع المخلاة مغطّية فمه وضع المذياع أرضاً وقال: «لا إله إلا الله»، ثم نهض وفتح نافذة. وضع كاوة يده على ذراع الرجل العجوز وقال بصوت ضخّمته المخلاة: «سأراك». ووضع قدمه في الطريق. أُغلق خلفه الباب الخشبي. أطرق كاوة برأسه وسار تحت أعمدة نور القمر الخفيض. كانت ضعيفة إلى حدّ انمحائها بين الأرض والسماء. مجرد إنسان في رقبته مخلاة بين كل ثلاثة أمتار يخفّ بريقه ثم يومض.

كان الوقت فجراً حين استيقظ داوُد من النوم. فتح عينيه بحيطة خوفاً من النور الذي ربما يكون قد وصل لئلا يضرب عينيه. ولكنه من بين عينيه نصف المغمضتين رأى النور الباهت والثلج على شجرة الكرز في باحة البيت. قال محدثاً نفسه بما أن الشمس لم تشرق بعد فلأقرأ بضع أوراق من الرواية. لأنه إذا نام مجدداً فإن أحداث الليلة الفائتة غير المنتظرة ستكون قد انتهت. من الأفضل له أن يقلب الرواية في ما بقي من ليلة البارحة الفوضوية و«يشحن» مشهد حياة الدكتور جيفاغو. أضاء مصباح القراءة. منح النور الأصفر رمقاً لليل مرة أخرى.

الأحداث عن الساعة العاشرة من ليلة نهاية أكتوبر. مدينة موسكو والثلوج والعاصفة وحالة الحرب مستقرة، يصر يوري على السير مسرعاً. يريد رؤية صديق. يتبدّل الثلج إلى موج والموج إلى حلقات ثلجية على شكل دخان، وتتلوى تحت قدمي يوري وهي مفروشة والأرصفة موحلة. كان في التقاطع فتى يحمل صحفاً

صادرة حديثاً يمرّ بقربه مطلقاً صرخات عالية: «آخر الأخبار!». يشتري الدكتور صحيفة ويغيب الفتى في الأمواج. بدا وكأنّ الخبر قد أحضر العاصفة ويجب أن يتوافق مضمونه معها. كان في قلبه عتاب على كاوة لماذا يقول إني لا أفهم الرواية؟ الصحيفة ورقة واحدة، إعلان من حكومة بطرسبورغ يعلن عن تأسيس سلطة ولجان ودكتاتورية من البروليتاريين. وكذلك أول أوامر الحكومة الجديدة. تتعبُ العاصفةُ عينيه والخطوط تتغطى بحبات الثلج. ولكن ليس هذا ما يقف ضبابياً أمام عينيه. هزّته عظمة هذه الدقيقة الأبدية ودفعته لينفعل. كأنه فقدَ عقله. أينما استدار يأمل في إيجاد مكان مضيء ليأمن من البرد والثلج. يصل إلى تقاطع خطر، يصل إلى باب زجاجي لبيت ذي خمسة طوابق يؤدي إلى دهليز واسع منير. يدخل، وفي نهاية الدهليز، وتحت مصباح ينشغل بقراءة الأوامر. يسمع فوق رأسه أصوات الخطوات. هناك من ينزل. أحيانا يقف، كأنه متردد. يتغير رأيه ويصعد السلم مرة أخرى. يتناهى إليه صوت فتح باب. صوت شخصين يتحدثان. ولكن، ولأن الصوت ينعكس في ممر السلّم، فلا يمكن تمييز إن كان الشخصان رجلين أم امرأتين. ثم ينغلق الباب. من صعد عاد نازلاً بخطىً ثابتة. تعلقت عينا الدكتور جيفاغو بالصحيفة. لم يودّ إبعاد عينيه عن الورقة لمتابعة الغريب. فجأة توقف الغريب. كان شاباً في حدود العشرين يرتدي سترة من جلد ظبي بدت خشنة. في سيبيريا يرتدون مثل هذه الثياب. كانت قبعته من نفس النوع. وجهه داكن وعيناه قرغيزيتان. تختفي خلف هذا الوجه علائم ارستقراطية. كانت للضوء الخافت القادم

من البعيد نعومة عميقة وهو يقع على الشخصيات المهجنة. حسِب الشاب الدكتورَ شخصاً آخر. نظر إليه بخوف وتألم. بدا وكأنه يعرفه لكن قلبه لم يطاوعه على الحديث معه. ولكي ينهي الدكتور هذا اللبس يلقي عليه نظرة باردة جداً. يتفاجأ الشاب ودون أية كلمة يتجه إلى الباب. يلتفت قرب الباب ليلقي نظرة أخيرة. يفتح الباب الثقيل ويغلقه بمقدمة حذائه ثم يختفي.

أغلق داوُد الكتاب، ويمكن القول أنه رماه. لا يمكنه قراءة المزيد. همس في نفسه اللعنة عليك يا قبة زرّين مع ما قلته عن تلك الشاعرة. ولكن أنت يا كاوة، كاوة الملعون، لماذا قلتَ لي أني في سنّ لا أفهم فيه الرواية. انقطعت انفاسي للقراءة في هذه الليلة. وهذه ضربات قلبي! لماذا تصاعدَت فجأة. ما الذي يمكنه حبس الأنفاس غير الفهم؟ أنت لست سوى مثرثر. أيّة ليلة كانت. في الشارع عاصفة والزقاق ضاجّ. وصول صحيفة ليد جيفاغو هو وحده صخب ما بعده صخب. يبحث جيفاغو عن مكان مضيء وهادئ، وفجأة يظهر ممر من وسط العاصفة بباب زجاجي. آه. يمكن للإنسان أن يتقرفص لساعات في هذا الممر تحت المصباح لقراءة هذا الخبر. هذا الممر الذي كتبه باسترناك شيء أزلي. اتضح الليل حتى يتحول الخبر إلى مطرقة تسقط على رأس جيفاغو. من الممكن لو كان في يوم ثان يخلو من العاصفة، ولم يكن بائع الصحف فيه ليعبر دون شعور بالممر. الممر «تشكيل ديكتاتورية البروليتاريا ونهاية الملكية». لنرَ! ينزل أحد الإرستقراطيين من السلم. إرستقراطي ملفوف بجلد ظبي خشن. بجلد الظبي هذا يبقون في أمان من العاصفة.

كاوة أيها اللعين، هل ترى كيف أفهم. هل قرأت الكثير من الكتب؟ حسناً. وأنا أيضا إنسان رأى الكثير، هذا إزاء ذلك؟ لتنسَ كاوة. التصق بهذه العاصفة. بتُّ عاشقاً لهذه العاصفة. بتُّ أعشق قراءة خبر مزلزل في العاصفة. يا تبريز اعصفي! امتلئي بالممرات ذوات الأبواب الزجاجية! امتلئي بالممرات الأزلية الأبدية!

في هذه اللحظة تناهى إليه صوت. رفع رأسه ورأى روكسانا تقف مثل شبح، ينعكس عليها النور الفضي الآتي من جهة النافذة. غّير جلسته وقال: «ماذا حدث؟».

قالت روكسانا: «ألم تسمع صوتاً؟ كنتُ غارقة في نوم عميق ولم أسمع».

قال داوُد: «تفضلي للداخل. أيّ صوت؟».

وضعت روكسانا قدماً في داخل الغرفة ووضعت يديها أعلى المدفأة. أضاء النور الفضي كل وجهها وأظهر خديها كما لو كانا أكثر نحافة.

قالت: «لا أعلم. أشعر أن كاوة ذهب إلى مكان ما وعاد. تفوح من ثيابه كلها رائحة دخان. ورائحة أخرى لا أستطيع تمييزها. أضأتُ المصباح ونظرت إليه. كان هنالك سويق تبن في لحيته».

قال داوُد: «تبن؟».

قالت روكسانا «ها هو». وسلّمته له.

أخذ داوُد سويق التبن تحت المصباح. ثم شمه. كان يمنح رائحة

حيوانية كثيفة. قال: «لم أسمع. من الممكن أنه قد صعد للسطح وتعامل مع المدخنة. دائماً ما يخاف من عكسها للهواء».

قالت روكسانا: «لا. ليست رائحة دخان المدفأة. إنها شبيهة برائحة دخان التبغ».

نهض داوُد وقال: «هل يمكنني الذهاب إلى غرفتكما. إبقي هنا».

قالت روكسانا: «حسناً».

اتجه داوُد مسرعاً ودخل الغرفة وزحف على السرير بهدوء في المكان الذي بقي غائصاً حيث كان جسد روكسانا، وقرّب أنفه -قرن وحيد القرن- من كاوة وتشمّمه ثم نقل أنفه إلى المكان الغائص وشمّه وتسارعت ضربات قلبه ثم ابتعد عن السرير وعاد. قال هامساً: «هذه رائحة تبغ. ربما ذهب للمقهى أو أي مكان آخر. ولكن من الممكن أنه قد حمل الرائحة منذ البارحة ولم تفطّني لها. ليست هناك من مقهى مفتوحة بعد منتصف الليل. يتحتم على المحلات كلها الإغلاق بعد الساعة الثانية عشر عدا الفنادق والنُزل. لماذا أنت قلقة؟». قالت روكسانا: «لا أعرف ما الذي يدور في ذهنه. بات عملي التضرّع. أردّد دائماً لا إله إلا الله حتى تنمحي الأوهام من رأسه، من رأسي ورأس كاوة».

قال داوُد: «لا تصعبّي الأمر. اذهبي لتنامي الآن. دائماً ما يتوهم الإنسان ليلاً ويظن أنها نهاية العالم. وما أن تشرق الشمس حتّى تتلاشى كل هذه الأوهام مثل ضباب».

ابتسمت روكسانا وقالت: «ليت كاوة هادئاً مثلك. إنه غارق في القراءة والكتابة. ولو قام بعمل جسدي لما كان متشنجاً كما هو الآن. أفتخر أني مع شخصٍ صاحب فكر وكاتب. أتذكر أني كنت أقف أمام مكتبته أبكي من شدة القهر. أقول لنفسي هل قرأ كل هذه الكتب قبل أن أدخل حياته. كل هذه الكتب دوني أنا. ولكني لم أكن أعلم أن الحياة مع مثل هذا الإنسان قد تؤدي إلى قلق وفوضى دائمين. الإنسان الذي يفكر يكون دائماً غير مستقر. كاوة ليس مثل بقية الناس، إنه يقرأ الكتاب مثل صحيفة ويرميه. ومع كل قراءة يتحول. إنه مثل عبّاد الشمس، يغير لونه من كتاب إلى آخر. هذا مخيف. أحياناً أوسوسُ لنفسي لأخفي بعض الكتب حتى لا يقرأها. ولكني أعرفه أنه سيعلم فيزداد الطينة بلّة. لا أعلم ما الذي أفعله. لا أعلم».

بلّ داوُد شفتيه وقال: «لماذا لا تنجبين طفلاً يا سيدة روكسانا؟».

أطلقت روكسانا آهةً وقالت: «لماذا هذا السؤال؟».

قال داوُد: «لأنه أمر مفيد. أنا الذي سيصبح عماً أكاد أطير من السعادة، فما بالكما أنتما. أودّ من كل قلبي أن يكون لي ابن أخ أتجول معه وأربيه. هذا حالي أنا فما بالك بحال كاوة الذي من المقرر أن يكون أباً واقعياً. لكاوة طباع نارية. لا يستقر. سوف يسخره الطفل ويزيل ذكاءه».

قالت روكسانا: «حين تتحدث عن الطفل تتغير ملامحك. ألهذا الحدّ تريد أن تصبح عمّاً؟».

قال داوُد: «في هذه المدينة الكثير من الأزقة والأزقة الفرعية والأسواق. ارتجفتُ في كل الطرق. أودّ من كل قلبي أن أذهب إليها مع ابن أخي. أريده أن يصيخ السمع ويفتح عينيه. أن أملأ سمعه بكل الأحداث التي وقعت هنا وأن أريه كل هؤلاء الناس الصامتين والمطرقين الجالسين في البيوت القديمة. لم يفعل أحدٌ معي ذلك. كنت أحبُّ أن يمسك يدي من هو أكبر مني ويأخذ بي إلى كل أماكن المدينة. لم يفعل أحد ذلك. والآن أنا مجبر للمرة الأولى لأن أقصد كل الشوارع والأزقة. ولو كان أحد قد رافقني في طفولتي، لوجدتُ الشوارع أكثر اتساعاً والجدران أعلى ارتفاعاً، وحين أكبر فيما بعد وأذهب إليها، حينها أعرف أنّ ما رأيته في طفولتي انتهى، فأحزن. أحب هذا النوع من الحزن. حين تتجولين في الطفولة داخل المدينة تشعرين كأنكِ في مدينة ثانية. مدينة لجدرانها شكل آخر. النور والألوان. ولكن الآن لا. هل تفهمين ما أقوله؟».

قالت روكسانا: «لا أصدق أنك الشخص الذي قام أمسِ بجرح الدكتور المسكين. حسنا يا عمّ المستقبل. سوف أفكر في الأمر. لا يسوؤني عبر تسعة أشهر من تحمل الحمل أن أغسل ذنوبي. حينها ستُستجاب أدعيتي. دعائي لكاوة. أودّ لو يخلو ذهن كاوة من كل فكرة أو ذكرى. أودّ مرة أخرى أن تمتلئ عيناه برؤيتي. لا أن ينظر إليّ وعقله مشغول بأفكاره ومقالاته».

ابتعدت روكسانا عن المدفأة ودخلت في طيف من النور الفضي.

وضع داوُد سويق التبن على ورق الكتاب وذهب ليتوضأ، ثم

عاد للغرفة ووقف للصلاة. صلى وحين أراد الانتهاء شعر بأحد يقف في الباب. كان يسمع أنفاسه. كبّر والتفت ليجد روكسانا. وجنتاها محمرتان وكأنها كانت تبكي. قال داوُد: «ما الذي حدث لك؟».

قالت روكسانا: «عليّ أن أخبرك بأمر. أنا متأكدة أنه تأكد من نومي وخرج ثم عاد. ولكن ما يعذبني هو عدم معرفتي للمكان الذي ذهب إليه وأخاف. ورغم ذلك تقول لي أن ألدَ له طفلاً؟».

قال داوُد: «لماذا تخافين؟ أنا أعرف أخي. لا مكان لديه ليذهب إليه».

وضعت روكسانا كفها على جبهتها وقالت: «هل تريد إقناعي ليصبح كاوة أباً؟ لا. أنا لا أريد لوالد طفلي أن يتجوّل ليلا. من هذه اللحظة لا تذكر لي بأنه يجب أن يكون في حياتنا طفل. مادام كاوة على هذه الحال فليس لديه الحقّ في أن يكون أباً. ولكني سأبدأ منذ اليوم بأمر. وهو أن أتضرّع لكي أرزق بطفل. لو أراد الله سوف أرزق بطفل. إن الله الذي منح مريم العذراء طفلاً سيسمع صوتي».

أراد داوُد أن يتدخل لكنه تذكر كلام كاوة في المسرح وأسلوبه. إنه يعرف أفضل من الجميع ما تقصده روكسانا. تحبّ أن تكون أمًّا ولكنها لا تريد أن يكون الأب كاوة. خطرت له فكرة. قال بصوت هادئ: «هل فتحتِ قلبك وتبادلت الحديث مع طبيب قسمكم؟».

ارتبعت روكسانا. قالت بحدة: «ما الذي تقصده؟».

قال داوُد: «مثلاً إنّ كاوة ليس بالرجل المتزن. ليس هناك من

رجل يظهر فضولاً بالنسبة إلى امرأة غريبة عنه كما رأيته البارحة وهو يمثل دور الغيور. لو فتحتِ قلبك له فأخبريني. كوني صريحة معي. أنت بمنزلة أختي، جميلة جداً وعفيفة. لا يرضي هذا طمع الطبيب. يجب أن يرى الضوء الأخضر منك. على قدر مكالمة هاتفية أو حديث في مقهى أو حديقة. صحيح؟».

قالت روكسانا وقد اصفر وجهها: «ليس لديك الحقّ في أن تفكّر بي هكذا. ليس من حقك. لو خطرت لك مرة أخرى مثل هذه الأفكار فليس لديك الحقّ في البقاء هنا».

قالت هذا وصعدت الدرج راكضة. التفت داوُد إلى المدفأة وهزّ كتفيه وقال: «أصبح عمرك خمسٌ وعشرون سنة ومازلت لا تعرف كيف تتبادل الحديث مع الناس. هكذا تدّنسُ كل شيء بسهولة».

دخل كاوة غرفة داوُد حاملاً كوب شاي. قال: «هل تعرف أين تقع القلعة؟».

كان داوُد الذي وصل إلى منتصف الرواية، قد ظهرت على جبهته خطوط إثر انهماكه في النص، قال دون أن يرفع رأسه عن الكتاب: «أعرف».

قال كاوة: «أيمكنك إسداء خدمة لي؟ تعال لنذهب معاً لتريني إياها. لم أرَ مكاناً باسم القلعة في هذه المدينة».

رفع داوُد رأسه من الكتاب وحدّق في أخيه. رفع حاجبيه وقال: «أكلّ هذه السنوات ولم ترَ القلعة؟».

ارتشف كاوة رشفتين من شايه وقال: «لم أرها. ومن الممكن أني رأيتها ولكني لا أتذكر لانشغال ذهني».

ابتسم داوُد ابتسامة ساخرة: «ألم تخرج البارحة؟».

قال كاوة: «لم أخبرك لكي لا تقلق».

قال داوُد: «هل يمكنني أن أسألك إلى أين ذهبت؟».

قال كاوة: «لتجمّع ليلي. كان لدي عمل مع بعض أفراده. متعلق بمقالتي. هل علمت أني خرجتُ؟».

قال داوُد: «فهِمَت السيدة روكسانا ذلك من ثيابك التي كانت تصدر رائحة تبغ».

تقدم كاوة إلى المرآة ورتّب شعر رأسه. قال: «البارحة رأيتُ السيدتين وقد ارتدت كل منهما ثياباً بيض، ومثلما كانتا دائماً، ممسكتين بيد بعضهما وقد انزوتا تنظران إليّ جانباً. أي أن وجهيهما كانا جهتي وكأنهما تستحيان من الحديث معي. تقذفان كلمة وتضحكان. أتحسر لأنهما ماتتا بسبب مرض. هل هذه هي حرقة فقدان الأخت؟».

أغلق داوُد الكتاب ووضعه جانبا. قال: «كيف كانتا؟».

قال كاوة «جيدتان ويانعتان. كأنهما لم تعانيا من ألم المرض. كانتا تصران على أن أقول أيّهما هي الأجمل. كأن قد حدث بينهما جدل وهما تنتظران أن أنام لأكون الفيصل لشجارهما. كان أمراً عجيباً في حلم. تبدوان وكأنهما ليستا أختيّ، ومن المقرر أن أتزوج بإحداهما. هكذا كانتا. يحدث لي هذا للمرة الأولى، ولكنني في النوم كنتُ وكأنني أعلم أننا في عالم آخر وقد أُلغيت القرابة العائلية. هل تعلم؟ كلما أراهما في الحلم أعود لا أخاف من الموت لفترة. حين أذكر أني مع الموت سأذهب إلى مكان ستنظر السيدتان فيه إلي بعينين تشعان وتستقبلانني بخجل الأخت وعتاب أموميّ، أحنّ للموت. ولكن حسناً لا أعلم لماذا تغفلان عن ذكر الموت،

ونفس هذه الغفلة تسكب الخوف في روحي. أيّما أختين كانتا لي! اللعنة على الحمى التي سرقتهما منا. حقيقة أن الحمى هي سجن الله في الأرض. لم تستطع أختانا المليحتان والبريئتان الهروب من هذا السجن».

قال داوُد: «أنت تتذكر أفضل مني. كنتُ صغيراً. ألم تخبر روكسانا عنهما؟».

قال كاوة: «كلا، قلتُ لك. لا أود اقتسامهما مع أحد. حتى لو كانت زوجتي. هل تعتقد أني على خطأ؟».

قال داوُد: «أنت تصعّب الأمر على نفسك. لو كنت أنا مكانك لذكرتُ كل شيء لزوجتي، وحتى لأختي اللتين ماتتا. تأكد أني لو تزوجتُ فإني سأقول لزوجتي إن عائلتي مكونة من ستة أفراد. أبي وأمي وأخي وأنا وأختين. ولو سألَت عن أختيّ سأخبرها أنهما ماتتا ولكن ذكراهما مازالت باقية في البيت. إن هذه الذكرى ليست مجرد ذكرى. إن لهذه الذكرى غرفة. غرفة لم تُمس منذ موتهما. وهي في كل عيد تُنظف ثم ترتب حسبما كانت. لماذا لم تعد حميماً مع زوجتك مثل السابق؟».

قال كاوة: «لماذا تسأل؟ هل شككت فيّ؟».

قال داوُد «لا، أنا أعيش معكما. ألمس ذلك بنفسي».

قال كاوة: «لا مشكلة لديّ. في الفترة الأخيرة شغلتني هذه المقالة وهذه الأفكار المتعددة. وعلى هذا أتجادل مع روكسانا.

قبل عدة ليال قرأت شعراً من آنا إخماتوفا. وأنت في هذه الأيام منشغل بالأدب الروسي. أتذكّر نفسي. أتذكر حين أصبتُ بهوس الروس. تصف إخماتوفا زوجة لوط حين تعود إلى المدينة وكيف كان الناس يهربون منها، لقد التفتت وألقت نظرة للخلف، وبهذه النظرة تحوّلت إلى ملح. عمود من الملح. ها؟ أتقول من سيبكي على مصير هذه المرأة؟ أليست جزءاً من المنكوبين؟ ولكن لن أنسى فقدَ حياةٍ إثر نظرة. حسناً؟ أسألك لماذا حين كان لوط وقومه يهربون من المدينة أُمروا ألّا ينظروا خلفهم؟ أعتقد أن هناك عدة أدلة. أهمها أن لا يروا عذاب الله. في ذلك العصر لم تكن رؤية العين متقدمة مثلما هو الحال الآن لتفرّق بين الخشونة والتهديم وبين النور والرحمة. لذلك لم يودّ الله حين يهدم مدينة ويقلبها ويقتل ناسها أن يراها الآخرون ويحملون عن الله ذكرى هادم. ثانياً لم يودّ أن يرمق الهاربين لمن انقلبت بهم المدينة بنظرة عطف، إذ لو حدثت مثل هذه النظرة لفعلت فعلها ولأُوقف العذاب. أذكر ذلك لأننا نردّد أنّ المذنب الدائم لا يتوافق مع رحمة الله. أتتوقع روكسانا مني أن أقضي العمر في النواح على ما قمتُ به؟».

قال داوُد: «كلّما تحدثتَ على الإنسان أن يقاطعك، لأنك مع كلّ دقيقة تتسارع وتبدو أكثر غرابة. عليّ التفكير في إلقاء نظرة خلفي. دعني أسألك. هل تعتقد أنها لو أصبحت أمّا أن لا تكون، على حدّ تعبيرك، حجة بيدها لتسامح نفسها وتخرج من هذه الحالة؟».

جلس كاوة فرحاً إلى جانب داوُد. قال: «هذا ما كان يجب أن يذكر. وجدتَ مناسبة بين كلامي وبين أن تصبح هي أمّاً. أودّ من

كل قلبي أن أرى زوجتي حاملاً. لن تصدق؟ أنا صريح معك. أنت تعرف كل شيء عني. أريد أن ينتفخ بطن زوجتي إلى حدّ لا يوصف. أعتقد أن الأشهر التسعة شيء غريب لا نفهمه أبداً. أودّ لو يتغير شكل زوجتي فتخرج من شكل الفتاة التي رأيتها في المرة الأولى. وإن كانت الأنوثة ترتفع في المرأة الحامل، ولكنه أمر يستحق. تمرّ علينا الآن خمس سنوات من زواجنا ولكن روكسانا لا تقبلني إلى الآن كأبّ. هل ترى، يا إلهي؟ دعني أخبرك. أن تصبح أبا بالنسبة إلى إنسان مثلي قضى كل سنوات حياته في القراءة والبحوث ومحتم عليه أن يصبح أباً. كأني فقدت علاقتي بالواقع من كثرة قراءة الكتب واستئناسي بها. هل تعرف تشيخوف؟ يجب أن تكون كتبه موجودة عند ورقائيان. لقد ترك عمله مرّة وذهب إلى جزيرة ساخالين بين المنفيين والمحكوم عليهم بالأعمال الشاقة. وهناك تساءل الجميع لماذا فعل ذلك؟ أعتقد أنّ كل من يتعامل مع الكتابة، وخاصة المبدع، يودّ من كل قلبه لو أن عقله يوماً يتوقف ويدخل في قلب الواقعية. حملُ روكسانا وبعده انجابها هو بمثابة ذلك الحكم. نفس الثورة التي أتكلم عنها. آه، كم هو أمر عجيب يا داوُد! مثلاً نفس هذه الجملة أن روكسانا تلدُ لي طفلاً، هل ترى؟ إن هذه الأفعال بالنسبة لي مثل الموسيقى.. ولدت وتلد. كأنها موسيقى زلزال. زلزال بالنسبة لي. زلزلتني روكسانا وأخرجت لي جسداً إنسانياً. إن عقلي اللعين يسوقني إلى انشطار جبل وخروج جمل منه. ها ها. هل ترى؟ لقد تحول إلى شِعر:

لقد تمخّض الجبل فولدَ لنا الجمل!».

لوى داوُد رقبته وحدّق في وجه كاوة. كان يلعق بنظراته وجه كاوة المتحمس. قال: «ماذا عني؟ لو وقعتُ في خانتك هل يتحتم عليّ أن أحبل؟ أعليّ أن أتحول إلى جبل وأنجب جملاً؟». ضحك وقال: «أنت لا تحسب الإنسان إنساناً إلا إذا آذى نفسه وعبر من زلزال».

أطرق كاوة برأسه يفكر. قال: «مهما حدث فأنت أخي. ولكن لا أخفيك أني أكرهك أحياناً. لا تعجَب. روكسانا أيضاً أكرهها. وأكره نفسي. لا أعرف السبب. ولكن هذه الكراهية تلازمني مثل مرض مزمن. ولو وجدَت مجالاً لها فإنها ستخرج وتنصبّ في عينيّ. حينها سأكره كل من تقع عيناي عليه. في إحدى المرات كنتُ أتصفح رسالة الجهاد في العصر القاجاري. رأيتُ أن بعض الفقهاء يفرضون الجهاد مرة في العام. تخيّل، تضع البندقيّة على كتفك مرّة في العام وتذهب للحرب. خطرَ لي أنه فقط عبر هذه الأفكار العجيبة والغريبة تتلاشى كراهيتي. ولكنني أيضا لا أعلم هل تتلاشى أم لا».

قال داوُد: «ولماذا تصاب بالكراهية؟ أنا لا أفهم. لماذا تحيط هدوءك وسكونك بالكراهية؟».

أطلق كاوة ضحكة عالية. حرّك رأسه وقال: «هل ستسخر مني لو أخبرتك؟ ولكني سأخبرك. أكره لأنّك هكذا تصبح قاتل الحلاج. أنت وروكسانا وأنا. هذا حدث خفي ونحن لا نشعر به مثل دوران الأرض. فهو بالهدوء نفسه يمنحنا شارة عسكرية على قتلنا السهروردي والحلاج. أعيش مع من؟ هذه سخرية القدر. مع

قاتلي الحلاج. أنا عاشق للحلاج لأنه فجّر حمّامات من الدم. كيف يمكنني العيش تحت سقف واحد مع قاتله؟».

مع سماع داوُد لكلام كاوة تصبب العرق من جبينه. أمسك يد كاوة وضغط عليها: «يكفي كاوة! يكفي. ما دخلي أنا بقتل الحلاج يا رجل؟ روكسانا زوجتك ويحسدونك عليها. امرأة بهذا الجمال، كيف يتبادر إلى ذهنك القتل حين تنظر إليها؟ عليك أن تذوب في جمالها لا أن تستدعي الموت، إنه محال في وجودها. أنت غريب. ولكن أنا، مالي أنا والقتل؟ أنا أكمن خلف تأملي. خلف حياة خيالية. خلف مدينة من القرن التاسع عشر أرضيّتها حجرية وتضّج بأصوات وقع حوافر الخيل التي تجرّ العربات. لا أسمع فيها صوت المحركات. تأخذنا العربات إلى البنايات وإلى ذلك القصر، إلى المحافل والتجمعات. يأتي كبار الفن والعلم ليتحدثوا بكل هدوء عن أشياء صغيرة ويغنوا مقاطع صغيرة. أنت وحش هذه المحافل. أيجب الحديث معك عن صوفي شاذ مثل الحلاج وأنا ألحق وأقتله. من أتمنى أن أكون بصحبتهم وهم أناس هادئون، مثل قبة زرّين؛ لا يشعل ضجيجاً. وروكسانا أيضا كذلك. إنها تبحث عن زاوية متروكة وعن القليل من النور والظل. هؤلاء القتلى الذين تذكر أسماءهم هل كتبوا رواية يأخذها الإنسان ويجلس في زاوية ما ليقرأها ويلوّن خياله؟ لم يكتبوا. هل مثلوا مسرحية تربك الإنسان عند مشاهدتها؟ لو فعلوا أخبرني. ليس علمي علمك. ولكني أعتقد أنك اجتزت حدوداً لا أفهمها. أنا لا أبحث يا كاوة عن بشر نباتيين. أبحث عمن يفكر ويدوّن فكرته. من هو مثل هؤلاء يعمل

دون ضجيج. لا يدّعي ولا يتحدث عن أنا الحقّ. يجلس أمام آلته الطابعة ضاغطاً على أزرارها. وحين يتعب يحتسي كأساً من الشاي ويذهب ليتمشى. لا يبحث عن ضجة. نفس الحلم الذي ذكرته عن الفتاتين. أيّة ضجة كانت فيه؟ لا شيء، كان خيالاً. كانتا أختين لنا. أو الفكرة عن المرأة الحبلى. ضجة؟ أقسم بالله أنها ليست كذلك».

تجرع كاوة آخر جرعة من شايه، قال: «ليست ضجة. أنا لا أناقشك. لا أدخل في نقاش مع أي شخص. والآن هل نذهب أم لا؟».

نهض داوُد من مكانه واتجه إلى المرافق: «رأسك عاصٍ. لنذهب».

اتكأ كاوة على جدار المرافق وأطرق برأسه. قال: «البارحة كانوا ينظرون لي بصورة عجيبة. كأني كنتُ أحمقاً جداً لأني لا أعلم أين تقع القلعة».

لم يجبه داوُد. جلس فوق الحفرة يفكّر، لماذا لم تعد روكسانا مهمة لكاوة؟ هل جذبه شيء استولى على جمال روكسانا عنده؟ أليس هو نفس الشعور الذي يبحث عنه؟ نفس ما قاله ستانسلافسكي الذي يجب أن يكون، ودون أن يتمرّن كاوة، قد توصل إلى تمرين المخيلة؟ فجأة فكّر في أن لديه أخاً. أخاً عمره واحد وثلاثون عاماً وطوله مائة وخمس وثمانون سنتيمتراً، مع نبوغ جنوني وعمى بالنسبة إلى القلعة. عليه أن يعرف قدر ما لديه.

اغتسل وارتدى ثيابه ومعطفه وخرج مع كاوة. عبرا من حديقة أخلاها الثلج وجعلها أكبر مساحة مما هي عليه ووصلا إلى محطة

الباص. وصل الباص في موعده. ركبا وجلسا على كراس جلدية ممزقة. خرج الباص من موقفه قبل أن تدفأ الكراسي بمؤخرات الركاب. كلاهما كان غارقاً في فكره ينظر إلى الطريق. ذابت ثلوج الشارع بيدَ أن أطرافه ظلت مليئة بالثلوج، وتجمّد الصقيع على أسطح البيوت كتلال صغيرة. كانت طبقة حجمها عشرون سنتيمتراً من الثلج على سقوف السيارات، ويبدو أن السيارات لم تتحرك من مكانها منذ يومين. انتهى الطريق وهما يراقبان ثلوجه والناس العابرين منه. وصلا إلى تقاطع (شهناز)، فنكز داوُد رجل كاوة قائلاً: «فلنترجّل».

ترجل كاوة خلف داوُد. وضع داوُد رجله على الرصيف وأطرق برأسه ثم أخفى رقبته في ياقة قميصه وسار وكأنّ كاوة ليس معه. لم يحتج إلى كاوة. إنه يعرف أخاه وعالمه الداخلي الخيالي وأحيانا يصطدم بهذه الحالة. أوصل نفسه ليحاذيه كتفاً لكتف وسار صامتاً. لكنه رأى شيئاً لا يمكن السكوت عنه. ضرب داوُد بخاصرته وقال: «انظر أمامك!».

رفع داوُد رأسه ونظر أمامه حيث يعبر الناس. قال كاوة: «هل ترى ذلك الأصلع؟ هو نفس الكاتب الذي أخبرتك عنه، أنه يخاف كل شيء».

ثبّت داوُد نظره عليه وعقد حاجبيه. بدا الأمر وكأنّ الكاتب لمح كاوة على الرصيف. أوقفته حالة تحديق الأخوين فيه. كانت تفصلهما عشرون قدماً، ومع الثلوج التي تعيق الحركة كانت ستطول

المسافة والمدة لكي يصل لهما. توقف الرجل واستدار جهة الشارع وأظهر نفسه وكأنّه لم يرهما. اقترب من السياج الحديدي الذي يصل إلى منتصف قامة الإنسان متوسط القامة ورفع نفسه بحذر ثم قفز. كان الثلج قد تراكم فوق السياج ومن الواضح أنه بات زلقاً وأن حركة الأرجل عليه باتت عملاً خطراً. لذلك سحب الرجل نفسه على السياج لكي لا يُجبر على وضع وزنه على قدميه. عبر السياج والشارع إلى الجهة الأخرى.

حين رأى داوُد هذه الحركة قال لكاوة: «ابقَ هنا حتى أعود».

أراد كاوة إمساك ذراعه لكنه تأخر: «إلى أين؟».

لم يجبه داوُد. قفز بسرعة من السياج الحديدي وغرس رجليه في الثلج لكي لا يسقط. عبرَ من الشارع وأوصل نفسه إلى الكاتب. لمسَ كتفه. ودون أن يعرف الكاتب من يقف خلفه ودون أن يلتفت أخفى وجهه.

قال له داوُد: «لم تتجاهلني؟».

بقي الرجل فترة على هذه الحالة وبعد أن اطمأن إلى أنّ لا وجود للعنف التفت بكل هدوء ونظر بخوف إلى داوُد. تمتمت شفتاه لكن دون صوت. وفي النهاية جمع كل قوّته وقال: «يا سيدي أنت مخطئ».

أمسك داوُد بذراعه وقال: «لماذا ركضت من ذلك الجانب إلى هذا الجانب من الشارع؟ هل تخاف كاوة؟ إذا كنتَ تخافه فلماذا ذهبتَ معه إلى ضواحي المدينة؟».

قال الكاتب: «لم أره. لا أعرف لا كاوة ولا ماوة. دعني».

لم يتركه داوُد: «وهل رأيتَ وحشاً لتهرب؟ إنك لو كنت قد تقدّمت وحركت رأسك وسألت عن حاله فلن تنطبق الأرض على السماء؟».

قال الكاتب: «قسماً بالله لا أعرف ما أقوله. أنت مخطئ فيّ. أي لا. لماذا أكذب عليك. لست بمزاج جيد. أنفاسي مخنوقة. لا أستطيع حتى أن ألقي التحية».

قال داوُد: «لماذا؟ لماذا لا تستطيع؟».

اختلى الكاتب بداوُد في جانب حتى لا يصل صوته للعابرين. قال: «أنا خادمك. لا أعرف. دعني أرحل. أنت لا تريد ازعاج الناس. تطلب مني وأمام الناس أن أبول؟ يمكنني أن أكتب اسمك على الثلج. اسم كاوة أيضاً. واسم هذا أيضا سأخبرك به. البَوْلغرافي المتبخر على الثلج. لو كان عنواناً لكتاب لبيعت منه الملايين. وبالطبع فلو كان كاوة الذي ذكرته هو نفسه كاوة الذي أعرفه فهو ليس إنساناً سيئاً. لم يصبني بسوء. هو رجل محترم. وصلني خيره. ولكني لا أستطيع. لا يمكنني الترحيب به بحرارة. لا يعجبني. من الممكن أني أخاف منه. هل قلتَ إنه أخوك؟».

قال داوُد: «نعم. ما هو أكثر كتبك شهرة؟».

تعجب الكاتب. رفع إصبعه وقال: «تباً لي لو كان لدي كتاب. لم يكن عندي في حياتي أيّ كتاب».

قال داوُد: «لا تكذب يا رجل. لديك كتاب، أخبرَني كاوة بذلك. لماذا تنكر؟».

قال الكاتب: «كاوة رجل ونِعمَ الرجل. جنتلمان. أين أنا من هذا كله؟ أنا مثل الأطفال ألعب بخرائي. أعتذر منك أن كنت قد صارحتك. هل ذهبتَ للقرية؟ انتهى فصل القطف. أحيانا يجلس العاطلون عن العمل في الميدان متشمسين وهم يغرفون الرمل ويرمونه على رجولتهم. تمثّل الكتابة لنا نحن مثل رمي الرمال على البلابل. الكتابة في هذه المدينة تعني هذا. سلّم لي عليه. قل له إني خجول. دعنا نقوم بأمر آخر. ادعُني أنا وكاوة على غداء. حينها ننظر في وجهينا ونحتسي الحساء. ولكن لا. لا حجة لهذا العمل. كاوة رجل محترم. سلّم لي عليه». قال هذا وانتزع ذراعه من يد داوُد ثم ضاع بين حشد الناس بخطوات خائفة من الانزلاق.

عاد داوُد إلى الطريق. رأى كاوة واقفا تحت سقف دكان لبيع الأدوات السمعية والبصرية وهو ينظر بتعمق إلى ممر الدكان. وصل داوُد وقال: «لنذهب».

استدار كاوة وقال: «إلى أين ذهبت؟ ماذا حدث؟».

قال داوُد: «لا شيء مهماً. قلت له لماذا غيّرت طريقك عنا. أنكر في البداية ثم أخذ يمدحك وهرب. أردت أن أرى بنفسي من رأيتَ، وجئتني بعدها للتأكيد على عدم أبوّتي. الحق معك. الإنسان الذي رأيته يشبه بيتاً من صفيح رُفسَ من قبل مائتين وتسع وخمسين أبّ مختلف».

ضحك كاوة عالياً. قال: «ولماذا مائتان وتسع وخمسون؟».

قال داوُد: «لكي تصدّق أني دقيق في حساباتي».

قال كاوة: «دعني أخبرك أين يكمن خطأ هذا الكاتب. لقد حدثت هنا حرب. كان العدو مجنوناً ولا يلتزم بقواعد الحرب. وأثبت جنونه عبر استخدامه قنبلة كيماوية. كاتبنا هذا وقع في مثل هذه الحرب. لا أقصد عدم اتجاهه للحرب. لا. لا غبار عليه. وهل ذهبتُ أنا؟ لا. ما أعنيه أنه قد أتيحت له فرصة ثمانية أعوام ليرى الحرب عن كثب، ولكنه مثل باقي الحمقى الذين لا يعنيهم الأمر. الحرب للكاتب هي بمثابة الجواهر. ليتهم كانوا فاقدين للبصر أمام هذه الجواهر. لأنه حتى الأعمى لو أعطيته الجواهر ليلمسها فسوف يصوّر لها شكلاً في ذهنه. ولكن هذا الأبله لم يفعل حتى ذلك. أي بُلهاء تصادف في هذه الحياة! كانت رؤية الحرب والكتابة عنها بالنسبة لهذا الإنسان مثل دوزنة آلة البيانو. حيث تطرق على أربع وستين مطرقة على رأسه لتولد الكلمة. ولكن هذا الرجل ومَن لفّ لفه غضوا النظر عن الجواهر. لقد جفوا جواهر الحرب. وأعتقد أنّ الجواهر أكثر ذكاء من كل الأحداث التي أذلّتهم. عليك قراءة سيرة حياة بوشكين. لا أعرف أحداً من كتّاب روسيا مُحطّم مثله. ولكن لماذا تربع على عرش العزّة؟ لأنّه رأى مثل هذه الجواهر التي هي ليست قليلة في رمال روسيا وكتب عنها. والآن دعنا نلجُ في هذا الممر».

قال داوُد: «لمَ هنا بالتحديد؟ ألا تريد رؤية القلعة؟».

قال كاوة: «يقع هنا مكتب طبيب عيون عجوز. أريد منه أن

يلقي نظرة على عينيّ. ولكن دعني أخبرك بهذا أيضاً، إذ خطر لي الآن، فحتى لو رآى هذا الرجل الحرب وعاشها لكان من الممكن أن يقع فيما هو فيه الآن. هذا ما قاله لي أحدهم البارحة. قال إن تجربة الثورة وتحطيم الذات تهلك الإنسان. إذن لا قيمة لما قلتُه. تناساه. حسناً؟ فلتنسه».

قال داوُد: «حسنا أيها المتلاعب. أنا موافق مع كل من قالها».

سارا ضاحكين ودخلا في ممر كأن جدرانه مطلية دون طابوق أو جص. في تلفاز الدكان على جانب الممر، كان المراسل يرتدي قميصاً أبيض يشير إلى أنه كان يقف تحت الشلال في فصل البرد دون عناية بالكاميرا ويمسح وجهه. كانت الأدراج موحدة من القاشاني وكانت دون ملامح خاصة في وسطها كأنها حُفرت من كثرة السير عليها. كانوا قد وضعوا على الجدران ملصقات زال لونها عن الأعين والحدقات. قال داوُد: «لرسم هذه الرسوم عليهم قصّ الحدقة من الوسط! يحتاج الأمر إلى قسوة».

قال كاوة ليعطي القسوة قوة: «مثل قصّ الجبن بخيط. تعال لنذهب يوماً ونرى طريقة إعداد الكوارع. فعلتُ ذلك. بالطبع علينا الذهاب قبل شروق الشمس وقبل نهاية الأعين».

ظهرت الحيرة على وجه داوُد: «على فكرة، أنا حتى هذه اللحظة لم أتناول الأعين؟».

ضحك كاوة عالياً وخفف من وطء سيره.

ضرب كاوة قبضة يده على إيوان. اهتزّ الإيوان. في المقدمة لوحة

كبيرة، في حدود المتر في متر، صورة قزحيّة زرقاء في وسط اللوحة وبأطرافها ثقوب، يمرّ الناس من خلفها كأطياف صفر وبرتقالية. تنتهي الخيوط الصفر والبرتقالية إلى وسط الدائرة السوداء. تظهر الصورة كبيرة ويُخيّل للناظر لها أنها صورة تلسكوبية من جرم سماوي. توقف كاوة. تراجع حتى دقت رجله بالإيوان. حدّق في صورة العين. تراجع حتى بات أمام داوُد: «هل ترى؟».

قال داوُد: «نعم».

هزّ كاوة رأسه وقال: «هل ترى هذا الشيء؟».

قال داوُد: «بالطبع أراه».

قال كاوة: «كان مغضوباً عليه من قبل القاجار». ضحك عالياً وأكمل: «لا تعرف كم اقتلعوا منها! كم قتلوا منها. ولكي تدخل على حريم الشاه فأنت إما أن تكون مخصياً أو أعمى. وإذا تمردت فهذا هو المصير».

نزعَ نفسه من الإيوان واتجه إلى عيادة الطبيب. انفتح الباب على صالة الانتظار. ليس هناك أحد. على طاولة السكرتيرة تجمع التراب والظاهر أنه منذ فترة طويلة لم يجلس خلفها أحد. كان المصباح المعلق مضيئاً، والمدفأة نارها خفيفة وتتمواج كأنها تريد النوم. كلا العلامتين تدلان على أنّ العيادة تعمل. اقترب كاوة من باب كُتب على لافتته المعدنية: «غرفة الفحص»، وطرق الباب.

«تفضل». قال صوت.

ضحك كاوة وحرّك حاجبيه لداوُد. أنزل مقبض الباب ووقف في إطارها حتى يدخل داوُد. حرّك داوُد رأسه علامة على عدم قبوله الدخول وجلس على أحد الكراسي. أخرج كاوة الهواء من صدره ودخل وأغلق خلفه الباب. نهض داوُد من الكرسي وجلس على كرسي آخر قريب من الباب. تظهر من النافذة أشجار الدردار المغطاة بالثلج وهو يذوب. عبرت من بين أغصانها أسلاكُ الكهرباء وهذا ما جعل داوُد غير مرتاح. أخذ يسمع حوار الطبيب مع كاوة إذ قال الطبيب إنه لا يرى مرضى في هذه الأيام ولكنه لا يُرجع من يأتيه. بدأ العمل وحين اقتربا من الباب بات الصوت واضحاً إذ يقول الطبيب ضع ذقنك هنا وانظر إلى هذا المكان، وفتح كاوة معه الحديث عن عمله وقال إن عينه مهمة جداً في عمله ثم دخل في الموضوع الذي يحبه إذ أن الرؤية في ثقافتنا ما هي إلا مجرد قضية ميتافيزيقية. وإن لم ينكر أحدٌ الفزيولوجيا ولكن السؤال الذي يقول كيف يرى الإنسان هو قضية فلسفية. أطلق الطبيب ضحكة عالية وسأله هل تريد مني إنكار الفزيولوجيا من الأساس، قال كاوة يعني أن تقول مثلا لا حاجة للعين من أجل الرؤية، قال الطبيب لا، لا نحتاجها. مثلا يمكن الرؤية عبر الركبة. ولكن إذا خرجت الآن وسقطت وأنت تسير على الثلج على ركبتك، فلن يضمن لك أحد عدم مساس عينك بألم. قال كاوة ماذا عن حقّ الاختيار؟ يمكن انتخاب أن يرى الإنسان بالعضو الذي يريده، فأطلق الطبيب ضحكة بصوت عالٍ وأوصل ضحكته إلى نهايتها على قدر استطاعته وقال إن هذا العمل هو للمقامات الرفيعة. أنا لستُ من ذوي المقامات العالية لأختار

بأيّ عضو أرى، وسأله كاوة عن المكان فقال الطبيب وسط الجبهة وتكفي عين واحدة ولا حاجة لي لرؤية الأشياء بالأبعاد الثلاثة. قال كاوة مثل اللوحات المانوتورية فأيّده الدكتور ضاحكاً ثم تحدث عن حياته وكيف تمضي وقال مثلاً هذه العيادة التي تراها، كانت صالة انتظار سابقاً مملؤة بالناس، وكنت جرّاح عيون معروف في هذه المدينة. ثم فقدت شهرتي واتجه عملي إلى الزوال، والحقيقة أني أردت ذلك ومثّلتُ لأني أعتقد أني فقدت عيني. قال كاوة والصور التي لصقتها على جدران الممر، أكانت قبل فقدك إيمانك؟ قال الطبيب كنت لستة أشهر في دورة تدريبية في الجبهة ورأيتُ مرة أحد المحاربين وقد أفرغوا مكان عينيه وحمل (الآر بي جي) وركض من بين السواتر حتى وصل إلى مكان وأصاب دبابتين رغم خلو مكان العينين وعاد. سألته هل ترى؟ نظر إليّ دون عينين. ضحك وقال لي لا تخبر أحداً يا دكتور. هذه المرة كنتُ أرى في العتمة. عرفتُ إذّاك بانعدامهما. وبالطبع فقد باتت الأحلام فيما بعد مهمة لي. ليس هناك عينان. لا شبكية ولا قزحية. الرموش مغلقة على العينين ولكنني أرى. كلامك صحيح والرؤية قضية ميتافيزيقية. ولكنني لم أستمر جيداً في الحرب وكنتُ غافلاً عن هذه النقطة. دعني الآن أخبرك بأمر مضحك. هل ترى هذه العيادة وكل هذه الأجهزة؟ بل هل ترى كل هذه العمارة؟ إنها جميعها مديونة لستارة لحميّة خفيفة اسمها الأجفان. لو لم تكن هنالك أجفان وكنا نرى بصورة مستمرة لما كان هناك شيء باسم الرؤية والعين، وبالطبع ولا طبّ العيون. تجلس الأجفان على العيون وحينها أعلم كأني أرى. هل ترى كم هو مضحك؟ هذه

العمارة الكبيرة والقديمة مديونة لأجفان لا يتعدى وزنها المثقالين. رحماك من هذه الأوضاع! لكن الوقت يمرّ الآن جيداً. أخرجُ من بيتي صباحاً، ولكي أخلو بنفسي آتي هنا لقراءة كتاب أو مجلة. المكان في الصيف بارد وفي الشتاء دافئ. ما هو ترى الذي أحتاجه بعد كل هذا؟ أشغل نفسي هكذا. أعتقد أنّ عينيك ليست فيهما أية مشكلة أساسية. قال كاوة شكراً يمكنك شراء منزل في المنطقة الجبلية. أنت لست بحاجة إلى العيادة كعيادة. قال الطبيب لا ولكن الحقيقة أني فقدتُ أصدقاء منذ فترة، أي أنهم خرجوا من البلاد، والعنوان الوحيد الذي يعرفونه عني هو هذه العيادة. مازلتُ انتظرهم. قد يتعبون من الحياة في الخارج ويعودون ويودّون المرور عليّ، وهكذا يمكنني الجلوس والحديث معهم وتناول الشاي. بالطبع ليس هذا هو السبب الوحيد لبقائي هنا. ولكن هكذا أقضي وقتي. قال كاوة أنا الهائم في مثل هذه الضغوط. قال الطبيب أيّة ضغوط فأجابه كاوة أن تنتظر كل هذه الأعوام في هذا المكان والدليل على البقاء ضاغط جداً، إنه لن يضعف عن قريب ويجعلك تتعلق بالمكان لتبقى. بالطبع يعجبني أن تتحطم هذه الضغوطات بأيّة حجة كانت، وفجأة تتحطم. قال الطبيب إلى الآن لم يصادفني مريض مثلك. بالطبع أنتَ لست مريضاً ولا غبار على عينيك. مُرّ عليّ بين فترة وأخرى لنتبادل الحديث. هل تودّ شرب الشاي؟ قال كاوة ليس الآن. قال الطبيب اقترب من النافذة. هل ترى كشك الهاتف ذاك؟ قال كاوة نعم. قال الطبيب قبل سنتين كانوا يتصلون بي على رقم العيادة. كان الرقم الظاهر رقم هاتف عمومي، رأيت ذلك عدة مرات ولم أعِر للأمر

أهمية. من يتصل كان لا يتحدث. كان يستمع فقط. ساعدني صديق يعمل في وزارة الاتصالات لأتعقب الرقم وعرفت أنه صادر من كشك الهاتف الواقع أمام عيادتي. طلبت من أصحاب الدكان مراقبته لمعرفة المتصل لكن دون جدوى. لأنّه كان عليّ حين يرنّ الهاتف أن أتصل بصاحب الدكان القريب من الكشك ليلقي نظرة. في إحدى المرات كنتُ على وشك إغلاق العيادة ساعة الغروب وإذا بالهاتف يرنّ. كان رقم الهاتف العمومي. أوصلتُ نفسي إلى الكشك بسرعة ورأيتُ امرأة تضع سماعة الهاتف على أذنها. لمستُ كتفها. قلت لها لماذا لا تتكلمين حين تتصلين؟ رمت سماعة الهاتف وهربت. لم أتبعها ولم تتصل هي بعدها. عدتُ للعيادة وسكبتُ لي كوب شاي وجلستُ هنا أنظر إلى كشك الهاتف مفكراً أين رأيت هذه المرأة، امرأة بعينين واسعتين، واسعتين جداً. ومهما حاولت أن أتذكر فلم أتوصل إلى نتيجة. قلتُ لنفسي قد تكون إحدى مرضاي وقد أجريت لها عملية. ولكن ما سبب اتصالها بي. لماذا؟ هذا ما لم أفهمه، ولكني ما زلتُ أفكر فيه. وأضفتها إلى قائمة الذين قد يأتون يوماً ما إلى العيادة. سكت الطبيب فقال كاوة بأسلوبه، بعد سكوت طال، إنها قصة مثيرة. من المحتمل أنها امرأة كانت طوال الفترة التي ظلت تتصل بك فيها لم تتغير حياتها. وهل يمكن؟ ثم ابتعد صوت حوارهما وبات غير مفهوم. فُتح الباب وخرج كاوة وأغلق الباب وعبر إشارة منه قال: «لنرحل».

قال داوُد: «سمعتُ ما قاله».

قال كاوة: «ولكننا لسنا من أصحاب المقامات الرفيعة».

عند السلّم توقف كاوة أمام صورة القزحية. قال كأنه يبوح لداوُد بسرّ: «هل تريد أن ننزعها ونأخذها معنا؟ الإنسان الذي فقدَ إيمانه ما الذي سيفعله بهذه الصور؟».

رفع داوُد حاجبيه متعجباً وقال: «لا. دعك عنها». أمسك ذراع كاوة وسحبه. ترك كاوة داوُد يقوده إلى السلم. نزلاه وعبرا من الممر وصولاً إلى الرصيف. قال داوُد: «لقد سيطرتَ على عقل الطبيب. الحديث معك يشعر الإنسان بالجوع».

كان كاوة يضحك. وبين كل خطوة وأخرى يتزحلق ويترنح: «يكفي. لنذهب ونرى القلعة. بالعينين اللتين أيّدهما الطبيب سنذهب لنرى القلعة».

قال داوُد: «فديتُ عينيك!».

سارا في الطريق بحذر حتى آخر دكان لبيع الأحذية. ثم ظهر جدار بُنيَ حديثاً. اتجه داوُد إلى الجدار واتكأ عليه، قال كاوة: «لماذا؟».

قال داوُد: «اقترب». شبك يديه. اقترب كاوة. قال داوُد: «ضع قدمك هنا وارفع نفسك. لا تأبه للناس كي لا يظنوا أننا نقوم بعمل مخالف للقانون».

وضع كاوة قدمه على كفّي داوُد المتشابكتين واتكأ على كتفه ثم صعد إلى أعلى الجدار. احمر وجه داوُد من الثقل الذي يحمله وقال بصوت مبحوح: «هل رأيت؟».

لم يجبه كاوة. كان واقفاً ولا يلتفت. تعبت يدا داوُد فأنزلهما. ولكن كاوة كان أعلى الجدار. ابتعد داوُد عن الجدار وقال «هل رأيت؟».

كان كاوة يضع يديه على الجدار. قال لمن خلفه: «لماذا لم أرَه إلى الآن؟».

قال داوُد: «وما أدراني. والآن انزل. لا تُظهر جنونك يا كاوة. هنا حدود المصلى. سوف يأتون ويقبضون علينا».

التفت كاوة إلى داوُد وقال وهو يفكر: «عندي سؤال! هل تعتقد أننا أخذنا نصيبنا من الطبيب؟».

قال داوُد: «ألم تكن زيارتك للتأكد فقط من عينيك؟».

ضيّق كاوة عينيه وزمّ شفتيه ثم قال: «عانى هذا الطبيب الكثير من الجروح إثر الثورة والحرب. صحيح؟ بالتأكيد صحيح. إذن أعتقد أننا لم نأخذ نصيبنا منه بصورة كاملة بعد. ولو تركنا ذلك، ليتكَ كنتَ في عينيّ لترى كيف أرى القلعة. أرى القلعة أجفاناً. الأجفان التي تحدث عنها الطبيب. لو كانت عمارة عيادته متعلقة بالأجفان فالقلعة كذلك. عليّ أن أقضي وقتاً أكثر مع الطبيب. هل ترى الآن كيف أجلس على الجدار؟ كأني أجلس على نقرة مرحاض وما عليّ حين أنتهي سوى سحب السيفون». عاد ينظر مرة أخرى للجهة الأخرى وقفز.

صرخ داوُد: «إلى أين ذهبت يا مجنون؟».

لم يأتِه أيّ جواب وبقي داوُد واقفاً لبرهة. ثم هزّ كتفيه وقال:

«وما دخلي أنا؟»، واتجه إلى الدكاكين الحجرية. لم يتقدم سوى بضع خطوات حتى لمح الرجل المهيب وهو يحرّك نظارته الشمسية على وجهه.

رفع الرجل المهيب يده له وغيّر طريقه ناحيته. قال: «سلام. إني استمتع. أستمتع من كل هذه التغييرات التي حدثت في أيام».

مدّ داوُد يده وقال: «أية تغييرات؟».

قال الرجل المهيب: «في الحقيقة فإن هذا المعطف يليق بك. يمدّك بالقوة وعلى الأقل لا يقرصني قلبي خوفاً من رجيفك. ولكن هناك تغيير آخر حصل، هو أننا عرفنا بعضنا من بعيد ونرفع يدينا لبعضنا. كم هو جميل أننا رأينا بعضنا».

قال داوُد: «لقد حشرتني في فكرة شراء المعطف. عليّ أن أعترف لك أني فهمتُ الآن ماذا يعني ارتداء المعطف والدفء في الشارع».

وضع الرجل المهيب يده على جبهته. قال: «أصبت الهدف يا صديقي. أصبت الهدف. الشارع. أي مفهوم مثير هو. حين لا تجد في البيت مدفأة لا يرتاح بالك. وفي الشارع يجب أن تكون لديك مدفأة. نفس هذا المعطف. سعيد جداً أنك بتّ من مرتدي المعاطف. أنا منتشٍ. وطبقاً للعادة فإن من تصيبه النشوة يرتبك ويكرر مع نفسه ألن أراه. ولكني مطمئن أني سأراك كثيراً. لا تطرق مخيلتك فكرة أخرى. أقصد هذه المصادفات ورفع اليد. نحن بالطبع لا نعلم ماذا سيحدث في الغد. لن أطيل عليك. إلى أين أنت ذاهب؟».

ألقى داوُد نظرة على تقاطع (شهناز) وقال: «ليس بودّي الذهاب إلى مكان محدد. كنتُ ذاهباً إلى البيت. عليّ إنهاء كتاب كبير حتى نهاية الأسبوع».

قال الرجل المهيب: «إذن يمكننا المرور على مقهى. في تلك المرة لم تسمح لي بمرافقتك».

عقد داوُد حاجبيه وفكّر وقال: «أنت متفضل ولكني أشعر أنك مشغول جداً. ثيابك مغبرّة».

ألقى الرجل المهيب نظرة على ثيابه ورأى بقعاً بيضاً على بنطاله. انحنى لمسحها وأزالتها: «نعم. كنتُ مشغولاً بالبناء. دون سابق انذار انهدم جدار الصالة الرياضية. هل تصدق؟ قام أحد مقاتلي الفنون القتالية برفس الجدار فسقط فجأة. تخيّل ماذا كان خلف الجدار؟ غرفة نوم. لنذهب».

سارا إلى التقاطع. كان حذاء الرجل المهيب يصدر صوتاً وكان داوُد يسمع الصوت في السكون المحيط بهما، ولكن داوُد تحمس إثر سماع قصة سقوط الجدار على غرفة نوم. قال داوُد: «غرفة نوم؟». وقال لنفسه: «ليتَ كاوة كان هنا».

قال الرجل المهيب: «نعم غرفة نوم. وتحيط بها رفوف كتب، وكان هنالك شيء عجيب آخر أعادني إلى ذكريات ما. المهم. الخلاصة أن الجدار سقط وكانت الغرفة لأثرياء. كانت الغرفة مغلقة ولكن كان يتناهى إلينا منها صوت ضحك وتبادل حديث. كنتُ أنا وثلاثة رياضيين في فنون القتال. كان الوقت متأخراً. قلت ما الذي

سنفعله؟ هل ندخل الغرفة ونطرق الباب؟ ألن يخافوا؟ قال أحدهم لنذهب إلى الزقاق الخلفي ونبحث عن باب البيت ونخبرهم. هكذا لن ينصدموا. أرسلنا أحدهم وعاد خائباً. قال لم أستطع معرفة أيّ باب هو بابهم. لا يمكن تحديده».

قال داوُد: «إذن ما الذي فعلتموه؟».

قال الرجل المهيب: «تخيّل!».

قال داوُد: «أدخلتم الغرفة وطرقتم الباب؟».

قال الرجل المهيب: «كلا».

قال داوُد: «هل صرختم بأعلى أصواتكم لكي تلفتوا أنظارهم؟».

قال الرجل المهيب: «كلا».

قال داوُد: «ماذا إذن؟».

قال الرجل المهيب: «لم نفعل شيئاً. أطفأنا مصباح الصالة وأقفلنا الباب ورحلنا. قلنا سوف يفطنون بأنفسهم. سيظنون أن الجدار سقط من تلقاء ذاته. في الغد سنحضر بنّاءً ليعيد بناء الجدار. وحتى الغد فهم سوف يعلمون بالتأكيد بما حدث. واليوم حين ذهبتُ كأن شيئاً لم يحدث. لم يكونوا يعلمون بما حدث. واضح أنهم لم يدخلوا الغرفة. هذه المرة ذهبتُ بنفسي إلى الزقاق، هناك ثلاثة أبواب طرقتُ الباب الذي توقعتُ أنّ الغرفة تابعة له. ادعيتُ أني نجار وجئتُ لتصليح رفوف المكتبة. في الأبواب الثلاثة أجابوا أني مخطئ في العنوان. ليست لدينا أية رفوف كتب. لا يمكن أن يكون

ذلك، في النهاية هناك بيت يلتصق جداره بالصالة الرياضية. كنتُ أسير في الزقاق حائراً حين صادفني رجل عجوز يرتدي قبعة ويحمل خبزاً. قلتُ لنفسي قد أستطيع استخراج كلمة منه. تقدمتُ منه ملقياً التحية وقلتُ سلّموني عنواناً لتصليح رفوف مكتبة ولكن ليس في هذه البيوت أيّة رفوف. قال الرجل العجوز متى اتصلوا بك؟ كذبتُ وقلتُ قبل أسبوع. قال أكان اسمه (توكّلي)؟ قلت نعم. قال إنه صاحب المنزل والباب الوسط بيته ومكتبته. قلتُ له إذن لماذا أخبروني أنّ ليس لديهم رفوف مكتبة. قال لأنهم مستأجرون ولا يعلمون بالأثاث في غرف النوم. أنا من بنى له بيته. أنا بنّاء. وكان آبائي بنّائين. ولكن والد توكلي كان لديه دكان في بازار لبيع الطلقات النارية. اسمه (دوشاب). قال له السيد مفيد إن حصيلة عملك هذا قتل الأنفس. دعه. فترك بيع الطلقات واتجه إلى بيع الحرير، وببركة نفس السيد مفيد، فقد بات من أصحاب الأموال الطائلة. حين وقعت الثورة هاجروا للخارج. خرج توكلي متأخراً عن إخوته وأخواته. لكنه لم يكن راضياً. لذلك لم يقم ببيع البيت. أجّر البيت كله إلا غرفة واحدة. لم يستطع أخذ كل هذه الكتب معه، فأحكم إقفال الغرفة، ويبدو أن أولئك لم يكونوا على علم بما فيها. قلتُ ماذا سأفعل الآن. قال لو اتصَل بك فهذا يعني أنه قد عادَ. هو رجل نسّاء ولديه حياة متلاطمة. سوف يتصل بك مرة أخرى. قال هذا ودون أن يدعوني مجاملة للدخول معه ولج بيته. لم أنبس ببنت شفة. عدتُ وأحضرتُ بنّاء وكنتُ معه كل الوقت خوفاً من أن يلمس أثاث الغرفة. رفعنا الجدار ثم وضعنا عليه الجصّ وعدنا».

قال داوُد: «ألم تخبر أحداً؟».

رفع السيد المهيب نظارته التي انزلقت على طرف أنفه وقال: «لا. وعلينا الآن الانتظار حتى يجفّ الجص وبعدها نصبغه». قال هذا ورفع يده مشيراً إلى ناحية معينة. نظر داوُد إلى حيث كان الرجل المهيب يشير. قال الرجل المهيب: «هناك. مقهانا يقع هناك».

دلفا الزقاق معاً. البخار الذي كان يحمل رائحة الفول غطى الزقاق كله. كان البخار يخرج من دكان صغير. ألقى داوُد نظرة عابرة في الدكان حيث جلس بضعة رجال يتناولون الفول محدقين في التلفاز. وكان يُبثّ من التلفاز تقرير عن كرة القدم. اجتازا حتى وصلا إلى باب خشبي مطرز بمسامير. مرّر الرجل المهيب يده على المسامير وقال: «تفضل».

أحنى داوُد رأسه ودخل. هو مقهى ومطعم في نفس الوقت، دافئ وصامت. طاولة كبيرة في النهاية جلست إليها فتاة خرجت خصلة شعرات ذهبية من أسفل حجابها وكانت تتصفح مجلة. في الجانب الآخر جلس ثلاثة رجال حول طاولة يعدّون نقوداً. نقوداً غريبة.

قال الرجل المهيب: «هنا مكان الصيرفة. لا شغل لنا معهم. وهم كذلك. نحن جياع».

قال داوُد: «مهما كان فهو مكان دافئ». سحب سحّاب المعطف وجلس على الكرسي: «لم تخبرني ما هو الأمر الغريب الذي رأيته في الغرفة. مازال يشغل تفكيري».

جلس الرجل المهيب ورفع يده للفتاة. وضعت الفتاة المجلة جانباً.

قال الرجل المهيب: «يجب أن يشغل بالك. غرفة بقرب الصالة الرياضية وبيت مستأجر. غرفة لا يمكنك دخولها يسقط فجأة جدارها. ودون استئذان أحد، لا نحن ولا المستأجر، لا يمكن دخولها. غرفة مليئة بالكتب وسأخبرك بالأمر العجب. هي شبيهة بالسفارة. إنك تجد فجأة على أرض الوطن قطعة أرض أجنبية. كانت الغرفة عبارة عن سفارة».

جاءتهما الفتاة وسلمت وقالت: «نفس الوجبة؟ لشخصين؟».

قال الرجل المهيب: «لي أنا نعم. ولكن صديقنا ندعه ليختار».

نظرت الفتاة لداوُد بعينين ثاقبتين نظرة حادة وانتظرته.

قال داوُد: «ماذا لديك؟».

قالت: «رز ومرقة قيمة. مرقة لحم. حكّاكة دجاج(*)..».

قال داوُد: «حكّاكة الدجاج رجاء».

وما أن سمعت الفتاة نوع الطعام حتى قفلت راجعة. وفي طريقها أعادت شعرها داخل حجابها وألقت نظرة على داوُد.

قال الرجل المهيب: «كان بين رفوف المكتبة إطار زجاجي فيه بندقية قناصة روسية. يطلق عليها دراغونوف».

(*) الحكاكة هي ما يتبقى لاصقاً في قعر القدر بتأثير الحرارة.

قال داوُد: «دراغونوف؟ هل يعني أنه كان عسكرياً؟».

قال الرجل المهيب: «من الممكن. هذه بندقية عسكرية خاصة وفي هذا المكان. أعادتني إلى أيام الحرب. كان في العراق الكثير من نوعيتها وأحياناً نغنم البعض منها. وحصلتُ على واحدة منها. لم أقل لأحد ولكني كنتُ أصيب بها الهدف من على بعد كيلومتر واحد. والآن تخيّل تلك الغرفة التي أغلق بابها والقنّاصة والمعبر الذي فُتح عند منتصف الليل على ضيوف، ما الذي يمنحه للإنسان من شعور».

قال داوُد فجأة: «هل تعرف هذه المرأة؟».

قال الرجل المهيب: «أليست جميلة؟».

احمّر وجه داوُد. قال: «لا.. قصدتُ أمراً آخر. يخيّل إليّ أني أعرفها».

قال الرجل المهيب: «من الممكن أنك رأيتها في مكان ما. وبالطبع فلو أنك عصرت مخك الآن محاولاً استذكارها فلن تستطيع. عليك تركها تأتي إليك. على فكرة.. لماذا خفتَ في ذلك اليوم؟ لا، دعنا. كان سؤالاً سخيفاً. انسَه. حدّثني ما الذي تفعله؟ ما قصة الكتاب الذي قلتَ أنك يجب أن تنهيه؟ ماذا عن الجامعة؟».

قال داوُد: «لا. أنا لست طالباً في الجامعة. أنا طالب في معهد الفنون. في فرع التمثيل المسرحيّ. لدينا تمرين خيال وعلينا قراءة رواية وعرضها على بقية الممثلين بصورة مؤثرة. أقرأ حالياً رواية الدكتور جيفاغو. وصلتُ إلى مكان سيطر على ذهني. كانت لارا تكوي الملابس ويبوح لها الدكتور بحبّه لأول مرة».

قال الرجل المهيب: «كم هذا جميل. قصّ عليّ ما الذي حدث فيما بعد. حسناً؟».

قال داوُد: «حين أصفُ ما حدث عليهم أن يستلقوا على خشبة المسرح في الظلمة ويغلقون أعينهم. حين أقصّ عليهم يتشكل في أذهانهم شكل الغرفة ولارا. أريد اللعب بتلك المكواة».

قال الرجل المهيب: «فهمتُ. هكذا يتخيلون. هل ينفع هذا الممثلين؟ نعم. عليه أن ينفعهم».

قال داوُد: «ربّانا مخرجنا على أسلوب كاتب روسي. في أسلوبه علينا أن نقدِر على عيش لحظة المشهد. كأنّ الأحداث وقعت لنا. حين أتيتُ إلى موعدنا كان يسيطر عليّ مثل هذا الإحساس. شعور أني في عربة أتجه إلى شراء معطف وقبعة. كأني في القرن التاسع عشر. علينا القيام بهذا التمرين إلى أن تصبح ملَكة».

وصلت الفتاة وهي تحمل صينية. في الصينية صحن مليء بالحساء وخبزة شعير كبيرة.

قال الرجل المهيب: «شكراً ماريا».

نظر داوُد إلى وجه الفتاة. نهض متعجبا وقال: «ماريا؟».

انزعجت الفتاة من معرفة داوُد لاسمها، وبانَ ذلك على وجهها. وباستدارة سريعة ابتعدت عن طاولتهما.

وضع الرجل المهيب الملعقة في الحساء وقربها من فمه ثم نفخ فيها. قال: «لماذا نهضتَ. اجلس».

كان داوُد يضغط على طرف الطاولة. جلس وكان ينظر إلى الباب المؤدي إلى المطبخ حيث اختفت ماريا خلفه. رفع يده حتى شعر رأسه وغمسها فيه. مازال مصدوماً. سيطر على ارتباكه وقال: «الآن عرفت أين رأيتها. هذه المرأة أرمنية».

قال الرجل المهيب: «اجلس يا صديقي الشاب. لماذا أنت لا تستقر. نعم هي أرمنية».

ظهرت ماريا مرة أخرى حاملة صينية متجهة إلى الطاولة. كانت تنظر إلى وجه داوُد بغضب. قال داوُد وهي على فاصلة منه: «كنتِ البارحة تودعين امرأة ترتدي شادوراً!».

وضعت ماريا صحن حكاكة الدجاج على الطاولة وقالت بتأجج: «لا أفهم ما ترمي إليه. هل رأيتني في مكان؟».

قال داوُد: «كنتُ في زقاقكم البارحة».

رفعت ماريا يدها وشدّت عقدة حجابها. قالت: «ثم ماذا؟».

قال داوُد: «لا شيء مهم. إذن اسمك ماريا».

نظرت ماريا إلى الرجل المهيب وهزّت كتفيها وقالت: «نعم. وما الغريب في ذلك؟».

أبقى الرجل المهيب الملعقة بين الصحن وفمه منتظراً ردّ داوُد وليخبرهما عن سبب تفاجئه. لم يكن لدى داوُد تفسير لما اعتراه، قال: «لا شيء ذا بال. كنتُ أفكّر أين التقيتكِ».

استدارت ماريا ثم ابتعدت. جلس داوُد في مكانه.

قال الرجل المهيب: «سامحني إذ لم أدعُك على الطعام. فهي وجبة خاصة لا تروق لك. أنا نباتي».

أمسك داوُد بالملعقة وأخذ يلعب بالطعام وهو غارق في تفكّره.

قال الرجل المهيب: «أين سرحت؟»، وطرق الصحن بملعقته. رفع داوُد رأسه ونظر إلى الرجل المهيب. حكّ بإصبعه جبينه. بحث في ذاكرته عن صوت الرجل المهيب وما الذي قاله قبل لحظات. تذكّر. قال: «نباتي؟ لماذا؟».

قال الرجل المهيب: «هي قصة طويلة. ولكن أعتقد أن بعض الناس يولدون نباتيين. لـ(صادق هدايت) كتاب تحت عنوان (فوائد أن تكون نباتياً). ولكن الحقيقة أنه لا فائدة من النباتي أو اللحمي. عليك أن تجد أيهما يناسب نفسيتك».

فرحَ داوُد حين وجد أنّ الدجاج كان مدفوناً تحت الرزّ، وسأل متذمراً: «منذ متى وأنت لا تتناول اللحوم؟».

أغمس الرجل المهيب قطعة كبيرة من الخبز في الحساء وقال: «آه.. اللحوم. قصة مواجهتي للّحوم لا تصدَّق يا فتى. ولكن بصورة عامة مذ كنتُ في الحرب. أنا ومن رافقني في السلاح رأينا أموراً أقسمنا على عدم البوح بها. مازلتُ إلى هذا اليوم متمسّكاً بوعدي، ولكني أشعر أنهم لم يفوا».

قال داوُد: «كيف عرفت؟ هل وصل إليك الخبر؟».

قال الرجل المهيب: «كلا. شعرتُ به من بعيد. منذ ذلك اليوم

لم يعد الوعد جاثماً على قلبي. عرفتُ أنهم لم يفوا بالوعد. وعلى ذلك فإني لو صادفتُ شخصاً يتحملُ سماعه سوف أقصّه عليه. حين رأيتُ قناصة الدراغونوف في الغرفة أرجعتني إلى تلك الأحداث. لا يمكنني أكل اللحوم، ويعيدني ذلك إلى أمور. بالطبع لا يبقى أحد على هذه الحال. في النهاية سوف يغسلها الزمن من ذهني. لقد غسل الكثير. الحقيقة أنا أحببتكَ منذ اليوم الذي رأيتكَ فيه ترتجف. هذه الارتجافة جعلتكَ أكثر جاذبية. وبالطبع لا يبقى سلام الذئب دون طمع. لي حاجة في مراقبٍ لعمل أقوم به. مراقب أمين وعمله جيد. كنتُ أبحث عنه حتى رأيتكَ في ذلك اليوم ولا أعرف سبب محبّتي لك. قد يكون السبب أنك كنت ترتجف. يجب إيجاد العلاقة التي بين المراقب والارتجافة. أليس كذلك؟».

ضحك داوُد. «لأي عمل؟».

قال الرجل المهيب: «ما أريد قوله الآن هو.. ولكن أرجو أن لا تسخر مني، هل تعِدُني؟».

قال داوُد: «بالطبع. ولماذا أسخر منك؟».

قال الرجل المهيب: «أنا متأكد أن الشعور بالسخرية سوف يراودك، ولكنك سوف تخفيه لأنك إنسان متحفظ. أعرف ذلك. القصة هي أن لدي مسلخ».

ضحك داوُد. اتسعت عيناه: «لا أسخر. أرجوك. ولكن الضحكة جاءت دون إرادتي. أنت مقاطع لأكل اللحوم، وفي نفس الوقت لديك مسلخ؟ هذا أمر غير طبيعي».

وضع الرجل المهيب ملعقته بجانب الصحن وفرك كفيه وأمسك رأسه بكلتي يديه: «بالطبع أستحق أن يُضحك عليّ. حسناً. ولكن في الجانب الآخر من الضحكة هناك ألمٌ يقتلني. نفس هذا التضاد. لا يمكنني الذهاب إلى المسلخ لأراقب العمال وأرى سير العمل. لا يمكنني. أبحثُ عن شخص يقوم به بدلاً عني. ليس عملاً صعباً. يذهب في الأسبوع مرة إلى منطقة (جلفا) ويرى المسلخ ويعود. لا يشغل باله بسبب وضعي للمسلخ في تلك المنطقة أو كيف دخلتُ هذا المجال. قتل المواشي يدمر أعصابي. أدرك هذا جيداً. ولكن قصته طويلة ومن أجل مكاسبه الكبيرة لا يمكنني توقيف العمل أو تبديله. حسناً؟».

قال داوُد: «حسناً. وهل تجدني مناسباً القيام بهذا من اجلكَ؟».

قال الرجل المهيب: «يمكنك. حاسة الشمّ عندي لا تخطئ. يمكنك. وإذا أمكنك أن تساعدني فسوف أدفع لك أجراً كبيراً، هو لمن هم في مثل سنّك سعادة كبيرة. يمكنك بهذا الأجر ليس فقط حلّ مشكلة ما قد تواجهك، بل حلّ الكثير من المشاكل التي ستظهر. إن دور المال هو هنا فقط. والآن ما هو جوابك؟».

قال داوُد: «لا أعلم بم أجيبك. سوف أفكر. مازال ذهني مشغولاً بتلك الغرفة وتلك القناصة، ماذا كان اسمها؟».

قال الرجل المهيب: «آه.. دراغانوف العزيزة. النظر عبر منظار هذه القناصة تجربة غريبة. الدائرة ملكك مع صليب تحديد الهدف الذي في وسطها. لن يكون معك شريك. تسكتُ كل الأصوات

وتدخل خلوة لا توصف. تمنح روحاً وتسلب روحاً. حين تنظر إلى هدف وتصمم الآن على استهدافه أم لا. لا تنظر إليّ هكذا. أنا أعارض استخدام الدراغانوف. أي فيما بعد عارضتها. حين أُسرتُ. كيف أصف معسكر الأسر؟ نفس الدائرة التي في المنظار. كنّا مُلكاً مطلقاً للعراقيين. تحت المنظار. كان القرار قرارهم، أن يطلقوا أم لا. حسناً؟ إذن لماذا لا أعارض؟ عليك خلع المنظار ورميه بعيداً والاقتراب بصورة يراك عدوك فيها. لم أعد أطيق الحروب التي لا يراك فيها العدو. يجب أن تكون الحرب مثل السابق. وجهاً لوجه. بصورة يمكنك فيها البصق في وجه العدو».

ضحك داوُد: «أنت حساس جداً مقارنة بأخي. فهو يوافق على أية حرب وبأيّ أسلوب».

قال الرجل المهيب: «أنا أيضاً كنت هكذا حتى أُسرت. لم أكن أعلم إلى أيّ حدّ يمكن تحمل الألم. لو تركت مقدمته مفتوحة يمكنك التعذب. والآخرون أيضا يتعذبون. حينها يصبح الجميع مقاومين. وماذا سيحدث؟ هل في ذلك فن؟ والآن بات هذا عملي. فمع المال الذي لديّ أينما أجد تعذيباً أسحبه من ياقته. أرميه بعيداً. أعلم أنه لن يزول ولكنني أبعده. لا تنظر إليّ هكذا. أنا مدير مسلخ. أعرف. ولكن أخبرني هل تشعر الأبقار حقّاً بالألم؟».

قال داوُد: «ولماذا لا تشعر به؟ إذن لماذا تتراجع هي حين ترى سكين القصاب وتهرب؟».

قال الرجل المهيب: «في الحقيقة أنّي مازلت أشكُّ. لا أنكر أنها

تهرب، ولكن هناك إحساس يقول لي أنّ هذا الهروب ليس بيدها. وضع الله فيها نزعة الهروب ساعة الخطر حتى لا تنقرض. الله أو كلّ من هو أقلّ منه. لكنها لا تتعذب من الذبح. وإن كنت أعلم أن تردّدي هذا ساذج. ولكن نفس الحيوانات توقعني في هذا التردد. هل تعرف السبب؟ لأنه ليست لديها ملامح. لو كانت لديها ملامح فهل يمكن وضع مسلخ لها. سوف يجنّ الإنسان. لكنني مهدتُ في المسلخ لتخفيف الألم، بالطبع لو كان هناك ألم. الأبقار قبل ذبحها تُغسل رؤوسها بالماء لتتبلل، ثم يوصلونها بتيار كهربائي قوي تتخدر في نفس اللحظة وتقع. حينها يتوجه القصاب نحوها ويقطع أعناقها. بهذه الصورة ليس هناك ألم. مثل القتل الرحيم للمرضى الذين لا علاج لهم. هل تعرف ما هو أفضل اقتراح مني للموت؟ الذهاب إلى القطب الشمالي والمشي هناك. لحظتها سوف يتملكك النوم وتتمدد وتنام وينتهي كل شيء».

قال داوُد: «هناك تناقض عجيب هنا. الموت ساعة التخدير. هذا ليس موتاً، بل تخدير مستدام».

قال الرجل المهيب: «عليك أن تصبح زميلي. لقد ارتاح بالي بما قلته. تخدير شخص لا عذاب ضمير فيه. ولكن قتله يختلف. التخدير مثل تنويم رضيع. تغني له تنويمة وتنتهي. وهو أمر شاعري. من تُرى قُدِّم للمحاكمة لأنه أنام أحداً ما؟ هل أكذب؟».

أطرق داوُد برأسه وتشاغل بالأكل. فطن إلى أن ماريا وضعت كلا ذراعيها على الطاولة وهي تنظر إليه وإلى الرجل المهيب. وحين نظر إليها أبعدت عينها عنه.

وكأن الرجل المهيب وكمن ارتاح من عذاب داخلي ومزمن، قد تناول حساءه بكل راحة بال.

تناول داوُد طعامه بسرعة ونهض واتجه إلى الثلاجة وقال لماريا: «هل يمكنني أن آخذ من وقتك الليلة؟».

قالت ماريا: «ماذا تريد مني؟».

قال داوُد: «لا يمكنني أن أوضّح لك الآن. الليلة سوف آتي إلى منزلك وأشرح ما لديّ».

أخبرها بهذا وعاد إلى الرجل المهيب وقال: «سوف أفكر باقتراحك. أحبّ أن أراك مرة أخرى لتحدثني عن فترة أسرِك».

قال الرجل المهيب: «ليتك لم تكن على عجلة. حسناً. لن أزعجك. أنتظر جوابك. وقد آتي بقرب بيتكم لنتمشى. أرجوك سجّل لي رقم هاتفك».

أخرج الرجل المهيب من جيب معطفه ورقة وقلم حبر. كتبَ داوُد رقمه وألقى آخر نظرة على ماريا وخرج من المقهى. عليه أن يوصل نفسه إلى البيت ويكمل قراءة الرواية.

لم يكن أحد في البيت. تعود روكسانا عصراً، وكاوة إما أن يكون قد قُبض عليه في ساحة القصر وعليه أن يجيب على أسئلتهم عن سبب تواجده هناك، أو أنه ذهب إلى صحبه في المقهى حيث يطبخ نظريته. أعدّ لنفسه شاياً بسكّر نبات وعاد إلى غرفته وتمدد وكان يحرّك سكر النبات بملعقة. غرق في فكره وفكّر في الأشخاص الثلاثة الذين رآهم اليوم؛ طبيب العيون والرجل المهيب وماريا. الكاتب الذي رأى كاوة وقطع الشارع هارباً واختفى غير مهم. كانوا ثلاثتهم هم النصّ وكان الكاتب هو الهامش، ولكي يُرى الأشخاص الثلاثة ظهر هو ثم غاب. دائماً ما كانت الأمور هكذا. الشوارع والأرصفة مملوءة بمثل هؤلاء الناس الهامشيين الذين لا يمكن أن يثبتوا في الذاكرة. بل هم لا يُرون لكي يثبتوا في الذاكرة. مثل الفرق بين الكومبارس والبطل. هذا ما يكرره سعيد دائماً حين يبوح للمثلين عن الدور الفرعي. ولكنه حين فكّر بالأشخاص الثلاثة، رغم كل هذا الضغط ورغم كل هذه الاحداث التي حدثت

تقريباً قبل ساعة، تفاجأ. استحضر في البداية طبيب العيون والملصق المخيف للقزحية. ورغم وجود قزحية كبيرة فقد أُغلقت العيادة. خطر له أمر إثر تفكيره بإغلاق العيادة. الطبيب هو جراح عيون وضع صورة قزحية سُحب جفناها بخيط وسرت في العين عروق حمراء، ومن هذه العروق، سحبته إلى المسلخ، دون إرادة منه وهو يحتسي الشاي، عيون الأبقار الحائرة والمخدرة الواقعة على الأرض وهي على وشك قطع رقابها، ونظارة الرجل المهيب التي لا تسمح برؤية عينيه. هل يسدّ أعين الأبقار قبل صعقها بالكهرباء؟ آه! تلك الغرفة! تلك الغرفة مكتبة سقط جدارها. الجدار. الجدار. الجدار الذي بات لازمة كاوة في كلامه، هذا الجدار المعهود لا يسمح بأن يصل لنا شر الثورة أو الهجمة أو الحركة أو أية فوضى أخرى تترك أثرها. الجدار؟ نعم الجدار. نفس الجدار الذي قفز منه كاوة وعبر للجهة الأخرى. مثل الحمقى. مثل العمي الذين لم يروا حتى الآن القلعة وهي بهذه الضخامة. القفز من الجدار؟ الكاتب أيضا قفز. ليس من جدار بل سياج. وماريا. عليه أن يرى ماريا الليلة. هناك وقت طويل حتى الليل. عليه أن يقرأ الدكتور جيفاغو جيداً على قدر استطاعته. لكن أي مشهد سيختاره لتمرين المخيلة؟ أي مشهد. كان يفكّر بهذا الأمر حين خطرت مرة أخرى صورة القزحية على الجدار في سلم العيادة برفقة منظار الدراغانوف، ولحظتها فكّر بالغرفة وقال لنفسه أيّة غرفة مغرية هذه. يمكن البقاء في تلك الغرفة والاستماع إلى صوت حياة المستأجرين. بل والأكثر فظاعة، سماع صوت الجسد الذي يسير وحيداً ليسكب لنفسه الشاي. خاصة

في الليل حين تكون الغرف مظلمة وتسقط ظلال من يسيرون إلى المرافق والمطبخ أو غرفة النوم على الزجاج المشجّر. والدراغانوف مثل تحديقة في خزانة زجاجية إلى جانب الكتب. هي تحديقة. تحديقة في فريسة. ولكن التحديق الآن تعطل. بقيت في الخزانة دون أية فائدة. من الممكن أيضاً أن الدراغانوف فقدت إيمانها بالقتل عبر الطلقة. لا. كان الطبيب مؤمناً ولم يعد كذلك. قفز الطبيب من الجدار. من جدار الجفون؟ لا، من جدار الرؤية، وفهم أن الرؤية ليست بالعين. إذا لم تكن بالعين فبماذا؟ بالجبهة؟ قال الطبيب أنه يرجّح الجبهة. ألا يمكن الركبة؟ قد يكون صاحب الدراغانوف قد سافر للخارج ورآه الطبيب في الحرب؟ لو كان من المقرر أن يكون للحياة مشهد لكان يجب أن يكون هذا. الحياة الواقعية كبيرة ومتسعة بشكل بحيث يمكن للقناصة الدراغانوف أنها لم تستخدم في حرب إيران. استخدمت في مكان آخر وجاءت كقسم من مجموعة في يد صاحبها. ولكن حياة المشهد ضيقة. يجب أن يكون كل شيء مرتبط بكل شيء ارتباطاً قريباً وليس بعيداً. إذن على قناصة الدراغانوف أنْ تحدق بشخص ممن رآهم اليوم والبارحة وفي هذه الأيام. بمن؟ وقد تحدق بالأبقار. يتعلق بنوع المسرحية. إذا كانت على الأسلوب التعبيري فبناية العيادة هي القناصة والجفن الكبير الملصق على الجدار هو العين التي تنظر في المنظار وقد جلست بصبر لقنص أحدهم. من تقنص؟ ذلك الطبيب زميل روكسانا؟ لا. من المؤسف أن يتأذى ذلك الجفن الجميل لقنص ذلك الأبله؟ يجب أن يكون له قيمة. يستحق القنص. على فكرة أين ذهب كاوة البارحة؟ أين

أخبروه بالقلعة وأنه لم يرها؟ لروكسانا الحق في شكّها. لماذا لا تحبل روكسانا؟ لو فعلت، سوف تتغير حياتها. لن تعود تؤذيها وحشية كاوة. سوف يهتم بطفله. ولكن هذا الأسلوب في التعامل مع المرأة غير صحيح. وهل يريد كاوة الفكاك منها لتنجب له طفلا؟ وما دخلي أنا إذا لم تحمل روكسانا أو عدم اهتمام كاوة بروكسانا؟ عملي هو أن أنهي هذه الرواية. عملي هذا فقط؟ ماذا أفعل بالاقتراح الذي قدمه الرجل المهيب؟ هل أستشير كاوة؟ لو استشرته ففائدته أنه لن يعود إلى موضوع أني أبوه. ولكن ماذا لو سكتُّ وذهبت في الأسبوع مرة للعمل؟ علي أخذ كرّاسة التعبيرية من سعيد. لماذا لم آخذها منه في ذلك اليوم؟ نسيتُ. نسيتُ. دعها. الآن عليّ قراءة الرواية.

لم يكن داوُد مخطئاً حين فكّر بأنّ كاوة ذهب إلى المقهى. كان إذا أراد قضاء وسط النهار جالساً ودون شغل علمي يقصد مقهى (باستان). لكنه يصيخ السمع حتى يختطف الكلمات من بين أصوات قرقعات الأراجيل كي تأخذه إلى العصر الإيلخاني. إلى أبناء المغول. في العصر الذي كانت فيه تبريز في القمة حين لم تكن قد وصلتها بعد الثورة الدستورية، ولا ما أعقبتها من فِرق. استمع مرة إلى شخصين جلسا إلى جانبه يرددان باستمرار مفردة (آندا). أخرج ورقة من جيبه وسجلها كما تُنطق ونهض قاصداً المكتبة الوطنية باحثاً في المعاجم حتى وجدها.

«عُرف بين المغول والأتراك استخدامهم لآندا في مقام المحبة، هكذا جاء عنها في (التاريخ الوصاف)».

هكذا كان يوزع وقته بعيداً عن أخيه وزوجته. ثم يخرج من المكتبة ويمشي على الرصيف مفكراً بأن سقوط وانحطاط تبريز بالنسبة إليه هو غنيمة كبيرة تمنحه فرصة الرجوع بالزمن وعدم

العيش في وقته الراهن. في إحدى المرات وبعد خروجه من المقهى قاصداً كنز المكتبة لتصفح المعاجم، وجد مفردة (ترانغو) وقد كُتب عنها: «شجرة تشبه أشجار الحور، تنبت على أطراف الأنهار ومجاري المياه. ويُقال لها أيضا (يولغون) ويطلق عليها باللغة الفارسية (غز)».

وما أن وقع بصره على مفردة (يولغون) حتى تذكر أمّه وتذكر الجدول العابر بين الأشجار جاعلاً منها مكاناً سحرياً ومهولاً، وحين سأل أمّه عن هذه الأشجار قالت له إنها يولغون. انقلب وبكى حين عرف أنّ أمه ستموت. استوعب فجأة مع سماعه هذه الكلمة معنى موت أمّه، ارتبك واحتشد الدمع في عينيه. شعر أنّ اليولغون، هي الكلمة التي سمعها حتى تلك اللحظة من أمه التي ستقتل عن قريب. لا بأن يحصل نزاع بين (اليولغون) وأمّه. بل من هذه اللحظة التي ستتربص هذه الكلمة بأمّه وستقتلها يوماً، والعجيب أنه لا يوجد جدار يمكنه الفصل بين أمه واليولغون.

كان كاوة ينظر إلى لمعان القلعة وهو يمشي، وكلما تقدم إلى ساحة القلعة كانت حيثما وقع ظلُّها على الأرض، تغطيّه. الوقوف في ظلّ القلعة يوقع الخوف في الناظر إليها. وكلّما اقترب تتضح الطابوقات الطينية وذلك الشقّ الواقع في محرابها العظيم. في هذه الأثناء تناهى إليه صوت. صوت موسيقى. بحث عن مصدر الصوت فوجد باباً من الخشب بإطار زجاجي. وقد وُضعت على الباب الخشبي لافتة بعنوان (مدينة كتاب القلعة). اقترب من الباب وفتحه ثم دخل. مكتبة حديثة برفوف كتب منظمة، بينما توزعت المكان بعض المقاعد.

كان ثمة من هم واقفون أو جالسون يتطلعون للكتب وثمة موسيقى تبثّ من المكتبة، ولكنّ الأعمدة لم تكن تسمح برؤية ما يحدث هناك. يتناهى صوت رجل يتحدث. أخذ طريقه من بين الأعمدة وبضع طاولات واطئة وُضعت عليها الكتب حتى وصل إلى زاوية مصدر الصوت. جلس شاب بشعر طويل نهايته معقوصة، خلف طاولة، يخطب في عشرين شخصاً تقريباً وإلى جانبه تلفاز كبير يبثّ صوراً عن الموضوع الذي يتحدث عنه. اقترب منهم بهدوء وجلس على أحد المقاعد. كان الشاب يتكلم عن موسيقار وملحن. ذكر اسمه عدة مرات ولكن كاوة لم يستطع أن يحفظه، وبعد تدقيق عرف أنه يتكلم عن نمساوي من القرن التاسع عشر اسمه جوزيف هايدن. قال الشاب: «كان هايدن متبحراً في عزف الرباعية وإيجاد عدة أصوات في الموسيقى. وقد أثّر على موزارت عبر تلكم الرباعيات. وتحوّلت من بعده الرباعية إلى بناء محبب وفاخر بين الموسيقيين». قال: «كان هايدن مبدعاً بشدة. وفي إحدى سيمفونياته استخدم ابتكاراً غريباً عُدّ في زمنه عملاً شجاعاً جداً. فلنشاهد معاً هذه الخطوة الشجاعة». ثمّ ظهرت على شاشة التلفاز فرقة أوركسترا يعزف أكثر أفرادها على آلات موسيقية مثل الكمان والتشيلو والكونترباص. في وسط المعزوفة يخرج العازفون من المشهد ويبقى في النهاية المايسترو وعازفة. قال الشاب: «كأنّ العازفين هنا يرسلون رسائل تحذيرية إلى هايدن مفادها أنهم تعبوا من عزف السيمفونية».

حين رأى كاوة ذلك نهض من مكانه وخرج مسرعاً باتجاه القلعة. هزّه خروج العازفين. هذا ما أراده. ولو كان مكان هايدن

لفعل هذا بصورة فجائية. ينهض العازفون فجأة تاركين الخشبة وتبقى امرأة مع هايدن وحدهما. ولكن لماذا فسّر الشاب طلب هايدن أن يتركوه، أليُفهموه مثلا أنهم تعبوا؟ لم يكن يتفق مع هذا التحليل أو أي تحليل آخر يشير إلى أنهم غادروا تعباً. من الأفضل لو كان التحليل أنهم لم يكن باستطاعتهم تحمل إثارة الموسيقى بكليتها التي كان المايسترو يقودها، فتركوا المكان. لكل عازف طاقة تحمل يعزفها الصوت الذي تصدره الآلة وحدها. ولكن حين تجتمع كل هذه الآلات خالقة ميداناً من الأصوات، فإن الميدان الذي يسيطر على ذهن هايدن الواقف أمامهم محركاً يديه، هو هذا الميدان الذي خُلق ليحاصر طاقتهم. لم يتركوا المكان لتعبهم، بل للهيبة والعلوّ.

توقفت في ساحة القلعة، تحت السقف، جرّافة برتقالية اللون صغيرة. وكان رجل في متوسط العمر مرتدياً بذلة مخمل كبريتي، ناصعة البياض، وقد جلس يدخن غليوناً وهو يشرف على الحفر. قال لشخصين كأنهما كانا يحملان تابوتاً: «بهدوء. خذا حذركما!». تذكر موضوعاً عن (الملائكة النقالة) في كتاب تحت عنوان (دار السلام) يطرح الأحلام والرؤى. كُتبَ: «هناك ملائكة إذا دُفن جسدٌ ليس أهلاً للمكان المقدس مثل مقبرة النجف أو الحرم الرضوي، يخرجونه من قبره ويأخذونه إلى مكان يليق به».

تقدم أكثر واستطاع أن يرى الآن ذلك القسم المحفور حيث يقف الرجل المسن ببذلته الكبريتية فيما المنطقة محاصرة بشريط كُتبَ عليه: «ممنوع الدخول. عمليات حفر لمؤسسة التراث الثقافي».

تقدّم حتى الشريط ورأى في الحفر كوَراً سوداء مستخرجة ومصفوفة يضعها العاملان بحذر في التابوت ويأخذانها إلى السيارة. رفع كاوة يده محيياً الرجل فردّ عليه بالمثل وتقدم منه وأخذ نفساً من الغليون.

قال كاوة: «ما هذه يا أستاذ؟».

صفى الرجل صوته ثم تمخّط وقال: «قذائف مدفعية يا عزيزي. رماها عباس ميرزا. إن ورشتي مليئة بها. أحبها كثيراً. فيها حزن. اختر واحدة منها واستمع لصوتها. حزن. أن تبقى عاطلة منتهية المفعول لهو الحزن ذاته. لم يعطوا عباس ميرزا قوات. لقد حاربَ وحيداً».

اقترب كاوة أكثر. قال: «كيف وجدتها هنا؟».

مسح الرجل عينيه بمنديل فلمح كاوة حينها أنّ الرجل كان يبكي، قال: «أنا سرابي»، ومدّ يده إلى كاوة.

أمسك كاوة يد الرجل وضغط عليها: «أنا كاوة».

أشار سرابي إلى المصلى. قال: «كانوا يحفرون فوضعتُ برنامجاً. ذهبتُ واشتريتُ كيلوغراماً من حلوى اللسان من محل (ركس). وأعددتُ شاياً معطراً ووضعتها كلها في السيارة الساعة الثانية صباحاً وأحضرتها هنا. جمعتُ سائق الجرافة وسواق الشاحنات حولي. قدمتُ لهم الحلوى والشاي وقلتُ لهم لو وجدتم أثناء حفركم كرات أخبروني. لم أخبرهم بقذائف المدفعية. قلتُ لهم

إن لديّ جهاز أعمل عليه وأحتاج إلى كرة كبيرة. لو أخبرتهم أنها قذائف تاريخية لخطرت لهم فكرة أخذها. في صباح اليوم الثاني رنّ هاتف منزلي. أخرجوا واحدة منها. والآن سلموا عملية الحفر لي».

قال كاوة: «بأية فترة يتعلق هذا المكان؟ أقصد القلعة».

رفع سرابي رأسه ونظر إلى القلعة: «تتعلق بعصر الإليخانيين. مع الأسف أنها تهدمت. لقد شيدوها من أجل المنافسة. لم تكن خلفها نية قوية. ولكن هذه القذائف تعود إلى العصر القاجاري. جعل عباس ميرزا منها قلعة ومخزن أسلحة ومطعماً».

خطف من فوق رأسيهما غراب. وضع سرابي يده على حاجبيه وتابعه. قال: «أحبّ هذه الغربان أكثر من كل الطيور».

قال كاوة: «ولماذا الغربان؟».

قال سرابي: «لأنّ عمرها طويل وكلما رأيتها أقول لنفسي لقد رأت ستار خان وباقر خان. رأت عباس ميرزا. منذ فترة وأنا أشتري لها كبداً مفروماً من (شاه قولي) وأحضره لها. تعال لتراها كيف تضج فوق رأسي. القطط دائماً ما تعذبها فأخدعها. آخذ النفايات من القصاب وأرمي بها بعيداً لكي تلتهي بها، وأوصل نفسي بسرعة إلى الغربان. أجمل مشهد لي هو شجرة تبريزية تجمّع فوقها جيش من الغربان. إنني فيما لو وقع نظري على مثل هذه الشجرة أخفف سرعتي وأجلس تحتها وأعيد قراءة تاريخ الثورة الدستورية. أنا الجالس في الأسفل والصفحات المنقوشة على روحي وهذه الغربان، شهود الثورة الدستورية، على الأغصان».

قال كاوة: «إذن على ذلك، مع هذه الغربان أنت لست بعيداً جداً عن الثورة الدستورية التي مرّ عليها مائة عام».

مسح سرابي عينيه بمنديل. قال: «مادامت الغربان حية فإن ستّار خان حي. ولو وجدت عيناً كانت قد رأت عباس ميرزا، فعباس ميرزا لم يمت. العين التي رأتك، هي أيضا رأت عباس ميرزا. ما يضمن حياة كل شيء هي الأعين الشواهد. العين التي بكت وامتلأت فرحاً».

قال كاوة: «جميل. في الطريق ذهبت إلى طبيب عيون. يقول إن العين غير مهمة للرؤية».

قال سرابي: «تقصد الدكتور قندي ها، كلامه هراء. قسماً بهذه الغربان أنه يتلاعب بك. هو من دهاة تبريز الأصيلين. لا تصدق كلامه».

ضحك كاوة. أشار الرجل للعمال: «احذر يا بني، خذ حذرك!».

قال كاوة: «لن أطيل عليك. لأدعك تكمل عملك. ولكن الطبيب ليس بعيداً عن الصواب. حتى البارحة قالوا لي إن هناك قلعة في المدينة لم أرها».

قال سرابي: «حقاً؟ أنت تمزح معي».

قال كاوة: «حقاً. ولكن وعلى حدّ تعبيرك تحملت الغربان عبئي».

لمس سرابي كتف كاوة: «ها. هل ترى أي هدوء تمنحه حين تكون هنا؟ لو لم ترها فهي قد رأت. فديتها». وعاد لينظر إلى السماء.

قال: «وما المشكلة. أمي أيضا وهي امرأة ناضجة رأت البازار لأول مرة. فتعجبت».

أنهى داوُد الرواية أخيراً. وكان قد أصابه الجنون من الصفحة مئتان حين أظهر جيفاغو حبه لأول مرة للارا. كان يقّلب الأوراق السميكة والصفراء بسرعة باحثاً عن سطر الصفحة القادمة. وكأنّ الكلمة الأولى من السطر شبيهة بالذبابة، نبيهة وسريعة، وعليه بنظرة واحدة أن يصيدها قبل أن تعي. داوم على القراءة لسبع ساعات. امتلأت مثانته وباتت تضغط على عضلات أعلى عضوه وتؤلمه. نهض واتجه إلى المرافق بقامة محنية. ها قد دخل الليل. جلس ولكنّ السائل يقطر قطرة قطرة. انقبضت العضلات إثر الضغط الزائد. فكّر في اختيار مشهد من الرواية لتمرين المخيلة. ترتبت عدة مشاهد أثناء القراءة حسب أهميتها فيما هو يقول لنفسه سوف أمثّل هذا. هذا لا غبار عليه. ولكن حين يتقدم يجد مشهداً أفضل، فيغض النظر عن الأول. كانت مراحل الاختيار والحذف تتكرر حتى نهاية الرواية.

أراد بداية كتابة مشهد لارا وهي تكوي الملابس وأولى علائم ظهور حب جيفاغو. كانت لارا تكوي الثياب في شقة تقع في الطابق

الثاني. النوافذ مشرعة ويعمّ الأرجاء عطر الزيزفون. هناك رائحة الحديد الساخن القبيح. كانت نوعية المكواة من تلك التي يجب أن توضع على النار لكي تسخن. ما الذي أثار داوُد في هذه المكواة؟ كانت لارا تكوي الثياب بمكواة ساخنة والثياب مستسلمة. من المقرر أن يعلن الدكتور حبّه في مثل هذا الموقف. وكأنّ المكواة هي لغة الدكتور التي ستعلن عن حبّه وتمرره على ذهن لارا. تدفئه وتحرقه. فتح الدكتور الحديث مع لارا بحذر. سوف تعمّ هذا المكان عن قريب الفوضى وعلى لارا تغيير مكانها. ثم يقول للارا «اكوي. اكوي. اكوي ثيابك ولا تعتني بي. سأقول ما لدي. سأتحدث مطولاً».

كان يفكّر بأنها مقدمة جيدة للحديث عن الحب. في أمر قاطع: «اكوي! اكوي بمعنى اسمعي، أنا أتحدث عن قلب محترق. أنا خجل. لا تعتني بي حتى لا أتبخر من الخجل. إذا لم تنظري لي سأتحدث مطوّلاً. لأنّ ما أريد قوله من الكلام لا نهاية له. مثل الزمن نفسه، لا نهاية له. سننتهي لكنه سينزلق ويتقدم. تخيلي أية مرحلة عجيبة نعيشها. نعيش أنا وأنت أياماً صاخبة. ولكن مثل هذه الأحداث المجنونة تقع لمرة واحدة في الأبدية. تخيّلي أن سقف روسيا كلها تهدم وبتنا دون سقف، وبات الشعب كله يعيش تحت السماء وفي الهواء الطلق. لا أحد يراقبنا أو يعتني بنا. حرية، نعم حرية حقيقية، ليست هذه الكلمات والمطالبات الحقوقية والسياسية والاجتماعية، بل حرية تنزل من السماء دون انتظار ولا مقدمة. حرية الصدفة. حرية إثر سوء تفاهم... أعيد اكوي. لا تتكلمي. ألا تتعبين؟ سوف أعطيك الآن تلك المكواة».

يسلمها المكواة ويعود مرة أخرى إلى محاضرة النجوم في السماء. تجمعت الأشجار والنجوم وهي تكثر في الكلام. الورود التي تفتحت في الليل تتفلسف والمنازل الحجرية تُحاضر. فيه مسحة من المسيحية. كأنّه زمن الحواريين. الحرب والثورة، تلك الآه التي بقيت فترة في صدر روسيا وستنطلق. يريد الشعب أن يكون جزءاً من الحماسة الكلية.

«في أثناء هذه الفرحة حيث يحترق الشعب بنارها، فجأة تلتقي عيناي بك. لا يُعرف أي مصدر حزين لهذه النظرة. ولا يُعرف إلى أين تسير. أفي ذلك الجانب من الجبال والوديان». يقول لها أنا مستعد لأقدم كل شيء لكي لا تكوني حزينة، ويتجه إلى النافذة تاركاً ظهره للغرفة. مرتبكاً من شدة الحماس. تترك لارا المكواة على الطاولة وتدور حول الطاولة وتقف خلفه. كأنّها تتحدث مع نفسها: «هذا ما أخاف منه دائماً». ثم تركض فجأة إلى الطاولة وترفع المكواة التي أحرقت الثياب. تعمّ الأجواء رائحة كريهة. ثم تضع المكواة بغضب على جانب وتقول: «السيد يوري أندريفيتش اذهب واشرب كأساً من الماء وعد كما اعتدتُك».

هذا يمثل هذا؟ هذه الغرفة المليئة برائحة الزيزفون والمكواة الحديدية؟ احجام المكواة؟ لا. هنالك فيها بعد مشهد آخر، مشهد أشد غرابة.

ليس مشهداً. إنه ينفع كاوة فقط. مجرد جملة منقولة عن ساحرة من فرقة الفدائيين.

«في السابق كانت الساحرات يقمنَ بالتكهن، أيّ النساء في أجسادهن بقوليات أو عسل أو سمور. كنّ يرتدين ثياب محاربين يرفعن عن أكتافهن ما عليها كأنهن يفتحن صندوقاً، وبسيف يخرجن من أكتافهن القمح ومن الكتف الآخر ثعلباً أو خلية عسل».

تذكّر جيفاغو من جملة الساحرة، لارا، وهي بعيدة عنه. لها عام كامل وهي بعيدة. منذ ذلك اليوم الذي قال لها لم يعد بوسعي المجيء لرؤيتكِ وهذا آخر لقاء لنا، عبر في طريق العودة وهو مشتت الفكر، من وسط الغابة ليصل إلى بيته فوقع في يد الفدائيين. ما الذي سيخطر في ذهنه؟ «لماذا انجذب يوري آندرييفتش إلى هذا الحدّ للكناية والتمثيل لتنوجد مثل هذه القصة؟ لماذا تاه أمام هذه القصة التي لا رأس لها ولا ذيل وكلمات لا معنى لها كأنها أحداث حقيقية؟ كانت كتف لارا عارية. وبضربة سيف، فتحوا كتفها. كأنّ هناك مفتاحاً في شقّ خفي وتمّ تحريكه. في هذا الفضاء العميق الذي فتح فمه، ظهرت أسرار روحها. كانت المدن والشوارع والمنازل غريبة عليها. الأجواء الغريبة عليها مثل كرة نور تكبر وتُفتح. آه! كم كان يحبها! كانت جميلة!... ولكن أين يوري أندرييفيتش الآن؟ ماذا يفعل؟ الغابة وسيبيريا والفدائيون... إنهم محاصرون وهو يتحمل مصير الجميع. كيف تجلت في نظره أشباح الشياطين! شعر أن هنالك ضباباً يحجب عنه الرؤية وصداعاً يدوّخه. بات كل شيء ضبابياً. في هذه اللحظة، وبدل أن ينزل الثلج الذي ينتظرون، تساقط المطر خفيفاً مثل شريط عظيم يعبر من بيت إلى آخر. تتلاشى الصورة، تظهر عظمة وجه حبيبته من

المكان المفتوح من الغابة. وكان المطر يمدّ بالقوة كل شيء، يبلل هذا الوجه ويقبّله».

غريب ووحيد ويتوقع نصاً من مثل هذا الروائي والشاعر، هذا النص ولكن ليس هذا المشهد الغريب الذي أبحث عنه. مشهد «المكواة»! مشهد كأنّه، مكواة عملاقة. إذا لم يصل إلى نهاية الكتاب لن يعرف عن أية غرابة يبحث. حين وصل إلى المشهد الثالث الذي سيأتي فيه وصفها عرف أن الغرابة تعني «الفجائية».

المشهد «الفجائي» هو: «مات جيفاغو. ووضعوا جسده في تابوت بشارع شامبلان، نفس البيت الذي كان يسكنه جيفاغو حين كان على قيد الحياة. امتلأت الغرفة بمعارف. كأن التابوت مثل قارب خشن وقبيح، وضع على طاولة وكان بجانب التابوت النحيف، القسم المخصص للرجل ناحية الباب. كانت هذه طاولة كتابة يوري أندرييفيتش. لم تكن هناك طاولة غيرها. رتّبوا الأوراق ووضعوها في الدرج». ولكن فجأة ظهر رجل وامرأة بين المجتمعين عزة النفس واضحة عليهما. يظهر أنهما ليسا مشاركين فقط في مراسم التشييع، بل مساهمين في هذا الموت. هذان كانا أخو جيفاغو والأخرى هي لارا. كيف عرفت لارا؟ تقول: «قلتَ لي أني لن أفهم كلامك؟ ماذا تريدني أن أفهم. جئتُ إلى موسكو. رهنتُ أمتعتي. مشيتُ في شوارع موسكو القديمة التي لا أعرف نصفها. كنتُ قد نسيتها. نزلتُ من شارع كوزنتسي موست وفجأة خفتُ وارتعبتُ من رؤية شارع شامبلان الذي أعرفه جيداً، ثانيةً. أطلقت هنا النار

على زوجي آنتيبوف. غرفة طلاب جامعة. بالتحديد في هذه الغرفة التي نتواجد فيها الآن. حينها فكّرتُ هل أصعد! قد يكون المالكون القدامى على قيد الحياة. اليوم عرفتُ من خلال عدة أسئلة أنهم لم يعودوا في هذه الدنيا، وأن كل شيء قد تغيّر. ولكنك كنتَ هنا. لماذا أشرح لك كل هذا. أنا حائرة ومرتبكة: فُتح الباب. كان ثمة أشخاص في الغرفة وتابوت، وفي التابوت جثة لميت. من قد يكون هذا الميت؟ دخلتُ. اقتربتُ. اعتقدتُ أني جننتُ وأصبت بصداع. ولكنك كنتَ شاهداً على كل ذلك. أليس كذلك؟».

هو. هذا المشهد الذي يجب أن يكون في صناعة المخيلة. هذه المواجهة الفجائية. هو «كان تابوتاً في الغرفة وفي التابوت ميت». آه! أليس هذا حبيبي السابق الذي كان معي بين الأرض الثلجية وفي أصعب لحظات الحرب والثورة وكنتُ أتدفأ معه؟ هو نفسه الذي خدعني وأرسلني مع كوماروفسكي لينقذ حياتي وتركته دون رحمة، والآن تركتُه مع مثل هذا الموت، موت جالس في التابوت، ساكت وهادئ وضروري ولا عودة له؟ والآن هذا الجسد ميت، وثمة الكتابات على الطاولة. شبيهة أنا بهذا التابوت حين سقوط المطر وأنا أعبر برك الماء مسرعة للبيت حين رفعتُ تنورتي لكي لا تتبلل وظهرَت رجلي وكنت أرى ظهورها في أعين الرجال. ولكن الأرجل الحية، وممكن أيضاً الأرجل الميتة، تسحب ستاراً عن الحقيقة وتترك أخرى. قد تسحب ستاراً عن المخيلة.

ضغط داوُد على جرس الباب. مرت ثلاث ساعات من الليل وبدأ الثلج يتساقط بخفة. كان نور مصباح الزقاق قوياً إلى درجة أنه يُري أحياناً بقايا البخار المتصاعد من فمه. حشر يديه في جيبيه ووقف أمام الباب وكأنه يقف أمام مرآة ويرى نفسه ومعطفه فيها. أصدر الباب صريراً. لم يكن شبيهاً بصوت أبواب بيوت المسلمين التي فُتحت كثيرا ونَعِمتْ مفاصلها من كثرة فتحها وإغلاقها، بل وحدهم «المسلمون» الذين يخطرون في باله أمام هذا الزقاق وهذا الباب وهذا المنزل. كأنّ كل شيء، حتى صرير الباب الخشبي في هذا الليل الثلجي، كان بعيداً عن أصوات وأبواب بيوت المسلمين. فُتح الباب وظهرت ماريا بحجاب محاك، قالت وهي تعقد حاجبيها: «تفضل».

قال داوُد: «سلام، أرجو أنني لم آتِ في وقت غير مناسب؟».

قالت ماريا: «لا، تفضل للداخل. مادام الثلج لم يبللك».

فتقدم داوُد.

فسحت له ماريا الطريق ونزل داوُد من سلّم أوطأ من الشارع بثلاث دكّات. كانت ثلاثة مصابيح في وسط الحديقة قد أنارت الساحة قسماً فقسماً. تنزل الثلوج بخط عمودي على ساحة البيت لأنّ الجدران تقف عالية أمام الرياح. في الخارج تتساقط الثلوج على جانب. طريقة تساقط الثلج تمنح للمشاهد انطباع أنّ قاطني البيت لا دخل لهم بالخارج إلا في الضرورة.

قال داوُد: «أنا أدخل لأول مرة في بيت مسيحي».

دفعت ماريا الباب بكلتا يديها لتغلقه وقالت: «أهلا بك. معنى أن تكون من أقلية هو هذا».

تقدمت ماريا وسار خلفها داوُد حتى وصلا إلى السلم. صعدا السلم ودخلت ماريا المنزل. ثم انحنت ووضعت نعليها رأساً على عقب: «أحضر حذاءك للداخل حتى لا يتبلل».

أخرج داوُد فردتي حذاءه الواحدة تلو الأخرى وأبقاهما في يديه ودخل المنزل ووضعهما بجانب المكان المخصص للأحذية. من أحدى الغرف، كأنها غرفة بعيدة، يتناهى صوت أغنية بصورة غير مفهومة. وضع داوُد حذاءه في المكان المخصص للأحذية بجانب مزهريتين، وحين رفع رأسه رأى ماريا قد وضعت يدها على الجدار وتنتظره برقبة منحنية. ابتسم داوُد. أشارت له ماريا بيدها أن يتفضل معها. نظر داوُد حيث أشارت يدها. كانت مجموعة أرائك قد صُفّت وتدعو الناظر لها أن يدخل في حديث هامس. كيف يمكن نزع الكتف الأيسر للمرأة وإيجاد مفتاح فيه؟ في ذلك الجانب مدفأة

حجرية خرجت من قلب الجدار وتقدمت للأمام وكانت فيها نار تمدّ لسانها بصورة مستمرة وترجعه. فوق المدفأة تمثال لبابا نوئيل في عربة يجرها أيل. كانت قرون الأيل أعلى نقطة في التمثال.

دخلت ماريا بصينية فيها كوب شاي وانحنت جهة داوُد. أخذ داوُد الكوب ووضعه على الطاولة. أسندت ماريا الصينية بصورة عمودية على أرجل الاريكة وجلست. قالت: «تفضل».

وضع داوُد يده على ذقنه وأخذ يستمع للصوت البعيد للموسيقى. ثم قال: «الحقيقة لي رجاء وهو أن ترافقيني إلى رسام لكي يرسمك».

ألصقت ماريا كف يدها على قفا يدها الأخرى: «ولماذا أنا؟».

قال داوُد: «قصة طويلة تعود إلى عشرين سنة خلت. ولو وافقتِ فستسدين خدمة إلي، وستكونين لذلك الرسام بمثابة مسرح جميل جداً وعظيم».

تعكّرت جبهة ماريا وانعقف حاجباها ثم ضحكت: «لا أدري ما الذي تقوله. مسرح؟».

قال داوُد: «العمل الوحيد الذي ستقومين به هو الجلوس في محترف صديقي وسيرسم لك بورتريه. ولكن عليّ قول أمر عجيب، لو سمحتِ لي بذلك. سوف أوضّح له أنّك نفس الفتاة التي التقاها قبل عشرين سنة في زقاقكم. تلك الليلة التي التقى فيها صديقي فتاة في أول زقاقكم أيّ ليلة كانت؟ الليلة التي هدموا فيها مسرح قلعة

تبريز، ولأنّ صديقي كان في تلك الفترة ممثلاً مسرحياً فقد أصابته كآبة وتاهَ في الأزقة والشوارع حتى وصل إلى أول زقاقكم وطلبت منه فتاة مساعدة. لكنه أهملها، ظاناً أنّ هذه الفتاة لديها طلب آخر فلم يعتن بها. هذا الرجاء ومقابله الامتناع بقيا حملاً ثقيلاً لسنوات على ضمير صديقي حتى قرأ مقالة لشاعر روسي إذ صادف في زمن الثورة والحرب أن حدثت مثل هذه الحكاية في موسكو. تطلب فتاة مساعدته في ليلة ثلجية سائلة إياه أين بيتي، فيمتنع عن إجابتها. وحين يذهب إلى شاعرة صديقة له ويحكي لها القصة تقول له الشاعرة إنّ الفتاة كانت روسيا. نفس روسيا. وقد توصل صديقي الآن، وعبر تطبيقه لقصته مع الحدث الروسي، إلى أنّ تلك الفتاة الأرمنية التي رآها في هذا الزقاق بالتأكيد كانت المسرح الذي كان يلجأ إليه. هل أوصلتُ الفكرة جيدا؟».

رفعت ماريا حاجبيها ومع ابتسامة على طرفي شفتيها فكّرت: «حسناً، لنفترض أنني على استعداد لفعل ذلك، فما الذي سيُقدم لصديقك؟ هذا بالنسبة لي ليس عملاً صعباً. أحيانا أصبح موديلاً لصديقاتي للتدريب على الماكياج. وأن تترك وجهك ليرسمه إنسان ساذج فهذا ليس بأمر أصعب من الماكياج».

قال داوُد: «صديقي ليس بساذج لكي لا يفهم الفرق بينك وبين المسرح. هذا إحساس فني وأريد أن أشاهد ما نتيجة البورتريه عبر تطبيق خياليّ مع ذلك المسرح».

كوّرت ماريا كلتا قبضتيها أمام فمها ونظرت إلى المدفأة:

«جميل. لم أكن في يوم في مثل هذا الموقف. لا يشبه أن تكون محط تجارب للماكيير».

قال داوُد: «البورتريهات التي يرسمها صديقي ليست نسخة عن الوجوه. إنه يخلطها. وحسب ظني سوف يخلط وجهك لصالح المسرح. أنا طالب في المسرح وأعشق هذا الفن. وأودّ قبل أن أفقد هذه الفرصة أن يرسم صديقي هذا البورتريه، وأنا متأكد أنّه سيكون متفرداً».

لم يلحظ داوُد حتى هذه اللحظة اللوحات التي على الجدار. ولكي يمنح ماريا فرصة للتأمل خطف عينيه عنها ونظر للجدران. نظر إلى حجم الجدران فاللوحات كثيرة عليها. بدا المنزل وكأنه منزل رسّام، وكأن ما غطى الجدران ليس بزينة بل عرض نماذج. هنالك على ثلاث لوحات حروف أرمنية. سبق وأن رأى داوُد هذه الحروف عند دكاكين الحجارة، ولكن ليس بهذا المظهر الذي هي عليه الآن؛ هنا في هذا المكان بحضور فتاة أرمنية. وبعد أن ألقى نظرة مطولة على اللوحات أصابه فجأة تعب وثقلت جفونه ولصقت ياقته بذقنه. لم يعد يرى البيت ولا ماريا ولكنه مازال يسمع الأصوات. صوت النار وهفهفة ثياب ماريا. سمع ماريا تقول: «سوف يبرد شايك».

كان حمل التعب كبيراً إلى درجة أنه لم يستطع إجابة مجاملتها. فكّر أنّ ماريا الآن تخاف من استضافته. ستظن أنه مريض أو مدمن.

سمع صوتاً أخفّ: «هل أنت بخير؟».

نعم. هو بخير ولكنه لا يعلم من أين أحاطه هذا النعاس

الفجائي. على إثر النعاس لم يعد يعرف الفرق بين البيت ومعطفه. كأنّ الاثنين في جانب واحد، أي يقفان أمام الثلج والبرد في الخارج ويتبادلان الدور مع بعضهما. في هذا البرزخ بين المعطف والبيت لمعت شرارة وهي أنه لا خطأ في ذلك وأن ماريا الآن في داخل المعطف أو البيت ما هي إلا مسرح أو صومعة.

بدا صوت ماريا وكأنه يأتي من نفق طويل: «لم أسمع إلى الآن مثل هذا الكلام من أحد. أن يخطئ أحد ولا يفرق بين إنسان ومدينة أو مسرح. قد لا يتناسب التعبير، الخطأ هنا. لا أعلم».

رفع داوُد حاجبيه وفتح عينيه. رفع رأسه ونظر إلى ماريا. بدت له ماريا وكأنها تجلس على أرجوحة تتأرجح في ظل الضوء المعلق في السقف أو ذلك المنصوب على الجدار. قال: «هل يمكنك الآن مرافقتي إلى صديقي الرسام؟».

أدارت ماريا رأسها ونظرت إلى الساعة الجدارية. رفعت حاجبيها وقالت: «أليس الوقت متأخراً الآن؟».

قال داوُد: «لو كنت تقصدين مراعاة حاله فلا. لأنه معتاد على السهر. وهو يقول بنفسه إن كلمة الليل لا تناسب عبارة إن الوقت تأخر. التأخر للشخص الذي يريد الذهاب إلى مكان وقد لا يصل. لا يتأخر شيء في الليل. لأنّ صديقي يظن أنّ الليل يأتي معي حين أكون مستيقظاً. وعلى ذلك فهو يزامننا دائماً. أذكر أن هذه النقطة قد ذكروها في اختتام مهرجان المسرح. كان الوقت متأخراً وطال الأمر لقراءة بيان الختام وإعطاء الجوائز».

حكّت ماريا جبينها. قالت: «كأني رأيتُ هذا المشهد سابقاً. كأني رأيتُ هذا المشهد سابقاً في المسيح. وكان عليك قول هذا الكلام. لم أكن في يوم في مثل هذه التنبؤ الشفاف. هل تعرف ما أتحدث عنه؟».

قال داوُد: «أعرف». وحرّك يديه بصورة قوية متحكمة وكأنه لو لم يكن واثقاً من ماريا لما حرك يديه. كرر: «بالطبع أعرف».

قالت ماريا: «هل نمتَ للتو؟ غفوتك هذه ذكرتني بروضة الأطفال. تذكرت شجرات الدردار العجوزات في ساحة الروضة. تعلمتُ الشتاء والسبات الشتوي لأول مرة هناك على يد معلمتنا. أتذكر أنني حين كنتُ أمرّ من جانب أشجار الساحة أخفف من سرعة خطواتي. كنت أظن في عوالم الطفولة أنّ الأشجار تنام مثل نومنا، وقد توقظها مثلنا الأصوات. أليس هذا مضحكاً؟ كيف كنتُ أفكر. لأني مازلتُ إلى الآن أخفف من خطاي حين أمر من جانب هذه الموجودات النائمة». ثم مسحت عينيها ورفعت حاجبيها، وكأنها أرادت أن يدخل المزيد من الضوء في عينيها. قالت: «هل أرتدي ثيابي الآن؟».

قال داوُد: «دعيني أولاً أتصل على الأستاذ».

نهضت ماريا خجلة شبه مُغمِضة لعينيها، مبللة شفتيها بطرف لسانها تبحث عن هاتف المنزل. كأنّ هذا البيت ليس بيتها وعليها البحث عن الهاتف. وقفت واستدارت دورة كاملة وفجأة رأت الهاتف. في الزاوية على طاولة صغيرة بجانب الستارة. مدت يدها وقالت: «هناك. أرجوك تفضل».

نهض داوُد واتجه إلى الهاتف بخطوات خفيفة. كأنّ هناك مسافة طويلة بين الأرائك وطاولة الهاتف وهو مصمم على السير في خطوات محسوبة وخفيفة لكي لا يتعب. وصل للهاتف ورفع السماعة وطلب الرقم. ثم استدار ونظر إلى ماريا. رفعت ماريا رأسها ونظرت إلى الثريا وكان واضحاً من معالم وجهها أنها تنتظر بداية مكالمة داوُد وأنهم أمسكوا بها لكي يشقوا كتفها. وكأنّ داوُد على عتبة شجار قوي مع الأستاذ دفاعاً عن ماريا، لماذا عليك أن تخرّب وجهها، كان الأمر شبيهاً بهذه الحالة.

قال: «لي الحقّ أن آخذ أنا الصورة؟». كأنّ داوُد لم يسمع هذا، أو أظهر أنه ينتظر حتى يجيبه فيما بعد. ولكن ماريا بالطبع لم تسأل. ذهبت بسرعة إلى الغرفة. قال داوُد: «ألو؟ سلام أستاذ». ثم استمع له وقال: «أنا داوُد. أضعتك في تلك الليلة. ولكنّ المعطف..». استمع له وقال: «عليّ أن أوضح لك؟ حاضر. سوف أوضّح. ما أريد معرفته هو هل أنت على استعداد لتقبل ضيوف؟». استمع له. استدار إلى الناحية التي تقف فيها ماريا قبل قليل. لم تكن هناك. قال ضاحكاً: «سوف أحضر لك وجهاً. بالطبع ليس وجهاً فقط. قد يكون شيئاً مثل..». توقف ورفع يده وألقى نظرة على الساعة: «حاضر. سوف أشتري في طريقي. إذن مع السلامة». وأعاد سماعة الهاتف. عقد حاجبيه وبقي متريثاً فترة إلى جانب الهاتف ثم عاد إلى النافذة وأزاح الستارة. لا يُرى الثلج من هنا، في هذا المنزل المنير. ترك الستارة وحاول ألّا تقع عيناه على الحروف الأرمنية حتى لا يهجم عليه النعاس مرة أخرى. وقعت عيناه على امرأة في الصالة

ترتدي حجاباً. حدّد متأخراً أنها ماريا وهي مستعدة ومنتظرة للذهاب معه. ابتسم وقال: «لنذهب».

ضغط على زر جرس الباب وابتعد عنه. بدأت ساعة المدينة بدقاتها. أدارت ماريا عينيها جهة مصدر الصوت. فيما بقي داوُد يحدّق في الباب منتظراً قبة ليفتحه. كان في يده صندوق حلويات.

تحرّك الباب وفُتح. ظهرت صلعة قبة زرّين وقال: «سلام يا بطل!».

التفت داوُد إلى ماريا وقال: «سلام. لدينا ضيوف. السيدة ماريا».

أطرقت ماريا برأسها وقالت: «سلام».

خرج قبة خطوة للخارج وحدّق فيها. خرج زفيره مثل بخار. نظر لماريا من رأسها حتى أخمص قدميها. قال: «يتناهى صوت اعصار؟».

أدار داوُد رأسه جهة نهاية الزقاق وقال: «لا. ما أسمعه ليس سوى قرع جرس المدينة».

قال قبة: «تفضلا للداخل. تفضلا».

مدّ داوُد يده لماريا للتقدم أولاً.

لملمت ماريا نفسها مظهرة أنها تود أن تكون آخر الداخلين. دخل قبة. ودخل داوُد. كانت ماريا تريد الدخول حين تراجع داوُد وسحب قبة إليه وتوقفا في عتبة الباب. توقفت ماريا ونظرت متفاجئة.

قال داوُد: «هذه هي المسرح نفسه. هي نفسها».

تعكّر وجه قبة. لا يُعرف بكاء قبة من ضحكه. وهو في كلا الحالتين يتعكر وجهه. قال: «أرى ذلك. مستضاءة. من كل وجودها مستضاءة. أرى الستارة المخملية على جسدها».

قال داوُد: «الجو في الخارج بارد. يجب ألا نؤخّر السيدة كثيراً. ولكن رؤية الفتاة التي كانت مسرحاً في هذا الجو البارد له طعم آخر. الأضواء تلمع أكثر في البرد؟ إنني ومن لطفها ذهبتُ إلى منزلها. كانت الثلوج تتساقط».

قال قبة: «دعنا كي لا نعذب الفتاة. تفضلا بالدخول».

قال هذا وسحب داوُد للداخل.

ضحكت ماريا ونظرت إلى طرفي الزقاق، وفي آخر دقة للساعة دخلت البيت. كان البيت يُصدر رائحة تبغ، هي كلّما كانت أقدم، كلما أعلنت عن حضورها أكثر. ومهما حدث في الخارج، فهذه الرائحة تعلن عن «ثبات» البيت. إذن يمكن الآن معرفة الزمن الحالي بين

هذا البيت وذلك المسرح، عبر مساعدة هذه الرائحة. أغلقت ماريا الباب ونزعت فردتي حذائها الطويل وألصقتهما ببعض بجانب الجدار. وقف داوُد على آخر دكّة السلم مراقباً حركات ماريا. سُمع صوت قبة من داخل غرفته يقول: «الخلاصة أنني البارحة، وبعد أن ضيعتُكَ، ذهبتُ مع صديقي إلى الكنيسة وسهرتُ هناك. سكرنا ورأيتُ الكنيسة بصورة أخرى. في بعض الليالي لا بأس بأن يكسر الإنسان القاعدة. الليلة الفائتة قد تكون أول ليلة من الطراز القديم».

قال داوُد: «الطراز القديم؟».

حين قال جملته أوصلت ماريا نفسها مع مرشدها إلى غرفة قبة. غرفة مليئة بلوازم الرسم والكتب واللوحات. أزاح قبة مجموعة من الكتب عن كرسي لتجلس عليه ماريا. كان كرسياً فخماً نقش على مسنده ملك وملكة بريطانيان يحتضنان بعضهما تحت شجرة إلى جانب بركة. جلست ماريا على النقش وأصدر الكرسي صريراً.

وضع قبة نظارته وجلس خلف طاولة عليها مصباح قراءة كان أكثر إضاءة من بقية المصابيح.

فتح داوُد صندوق الحلويات ووضعه على الطاولة. قال: «هل أُعِدّ الشاي؟».

قال قبة: «نعم لطفاً. للتو أعددته».

هزّ داوُد رأسه وخرج من الغرفة. نظر قبة إلى وجه ماريا. لم يكن

راضياً. أخرج منديلاً من جيبه ووضعه على مصباح القراءة وأداره ليقع ضوؤه على وجه ماريا. كان الضوء مثيراً لعينيها مع الابتسامة التي رسمتها، استدارت قليلاً إلى اليسار. قال قبة: «قضيتُ عمري فيك. أقع ليلاً من شدة التعب وأنام».

قالت ماريا: «حدّثني بذلك داوُد. بالتأكيد كان صعباً».

قال قبة: «هل تسمحين لي أن أرسم بورتريها لك؟».

خجلت ماريا، قالت: «إنما جئتُ لهذا».

قال قبة: «جئتِ من أجل هذا؟ علي أن أكون صريحاً معك. أنا أخلط وجوه الناس. عليّ أن أخبرهم لماذا جاءت الرسمة هكذا. دعي هذا الفتى يأتي. عليه أن يسمع أيضا». عندها نادى: «داوُد!».

جاء صوت داوُد: «أنا آتٍ».

قال قبة: «حسناً تعال».

عادَ داوُد بيدين مبللتين وجلس على طاولة صغيرة مسنداً ظهره للمكتبة.

قال قبة: «ذهبنا مرة لتمثيل مسرحية في مشفى الجذام. نفس المكان الذي ذهبت إليه (فروغ)(*) وأخرجت فيلم (البيت أسود). أناس بأيادٍ وأرجل معوجة. حين كنّا على خشبة المسرح كانت مظلمة لذا لم نرهم. وبعد نهاية العمل أُشعلت الأنوار. وما أن رأيتهم

(*) يقصد الشاعرة فروغ فروخ زاده.

الحقيقة حتى ارتعبت. وحين تحدثوا عن العمل فيها بعد تلاشى ذلك الرعب. ليس الخوف وحده. شيء آخر حلّ مكانه. هذه الوجوه الشعثاء تتحدث أفضل من الوجوه السليمة. أي أنها تنطق حديثاً ينغرس في ذاكرتك ويبقى. لا أعلم لماذا حدث ذلك. ولكني فهمتُ هناك أنّ عليّ أن أصادق شخصا مشوهاً. فليكن من يكون. كنتُ ممثلاً وعليّ التعامل مع الجسد بجدية. قالت لي تجربة تلك الليلة أنّ الجسد المشوه أكثر واقعية من الجسد السليم».

سيطر الصمت. نظرت ماريا إلى يديها. ونظر داوُد إلى يدي ماريا التي وضعتهما أمامها. إنهما مجبران على النظر إلى يدين واقعيتين.

رفع قبة إصبعه إلى الجدار. قال: «هل ترون لوحة المينياتور، كل ما فيها جميل ومائل. لا؟ ليس فيها زاوية حادة. على الأقل فإن الرسّام لم يكن في صددها. ضعفها هنا في أنها ليست واقعية. أنتما لن تأخذا كلامي بجدية؟».

قالت ماريا: «لماذا؟ لمَ تقول إننا لن نأخذه بجدية؟ أرجّح أن يرسم وجهي كمينياتور».

قال قبة: «لستِ جادة لأنّ لا أحد يصبر حتى انتهاء جزئياته. هل رأيتِ شخصاً يتجمد من أجل لوحة مينياتور؟ كلنا ودون أن ننظر جيداً وبدقة نعلم ما في اللوحة. بنظرة واحدة نعلم بكل شيء. ولكن في اللوحات التي تبعثر الجسد، لا تعلمين ما الذي سيحدث في اللوحة. ولكي تعرفي عليك التحديق فيها لفترة. وهذا يعني هجوم الواقعية عليك يا ابنتي. والآن الاختيار لك. هل تريدين

الابتعاد عن المشاهدين أم الهجوم عليهم؟ في رأيي أنك لو هجمتِ فذلك أكثر واقعية. أوصيك بالهجوم».

ضحكت ماريا: «أهاجم؟ لو علمت أمي بهجومي لصُدمت».

وضع داوُد ذراعيه على بعضهما. الجميع صامت ويتبادلون النظرات. قال داوُد: «حسناً، أريد الذهاب. لو أردتم البدء في العمل الليلة لتبقَ ماريا، أو أستطيع ارجاعها».

التفت قبة إلى ماريا: «هل ستبقين يا ابنتي؟».

قالت ماريا: «لا أعلم».

خرج داوُد من الغرفة دون توديع وتناهى صوت إغلاق الباب.

يبدو وكأنّ داوُد كان قد ابتعد كثيراً عن وطنه ولغته، وهذا ما ملأ قلبه خوفاً. كان يريد وبسرعة ترك الطقوس المملة والعودة إلى البيت إلى جانب المدفأة دون أيّة حركة. كأنّه لا يشعر بالدفء إلا بجانب المدفأة، بدفء جسد آخر جالس بقربه ينظر إلى الهواء عديم اللون بينما البرد في الخارج.

قال المخرج: «حسنا، مستعد؟».

قال داوُد متطلعاً إلى المصباح المعلق بالسقف والذي كان يرشّ نوره: «مستعد».

نزل المخرج من السلم في زاوية خشبة المسرح وغاب في العتمة. تناهى صوت خطواته، ووشي صوت الكرسي الذي سحبه بوجهته حيث ذهب وجلس. فُتح الباب ودخل ضوء ضعيف يميل إلى الاصفرار والاحمرار واقعاً على الكراسي القريبة من الباب. دخل ظلّ وأغلق الباب بسرعة. تناهى صوت مسح يديه على ظهور الكراسي ثم صوت الكراسي المكرر حين يُجلس عليها أو ينهض منها.

بدأ داوُد بالسير بين الأجساد الممددة، يمرّ أحياناً قرب وجه مغلق العينين ويخطو بخفة خوفاً من أن يخدش وجهاً أو يصدم أنفاً: «اخترتُ مشهداً من رواية الدكتور جيفاغو وفيه شيء باسم الفجائية. تعلمتُ أن أكون حساساً تجاه الفجائية. أخي كاوة خبير بالفجائية. لقد كان موجوداً في ذلك اليوم ورأيتموه. قال لي مرة إن للحياة محتوى وبناء. محتواها هو العناصر الأربعة: النار والماء والتراب والهواء، وبناؤها مفاجئ. وحسب بناء الفجاءة كنتُ أبحث عن مشهد ولكني لم أكن أعلم أني أبحث عن الفجاءة حتى وصلتُ إلى نهاية الرواية. إنّ ما كنتُ أبحث عنه في البداية هو هذا. لدينا شخصيتان. الأولى الدكتور جيفاغو حيث تمدد جسده في تابوت. وهو طوال أعوام الحرب وليالي ونهارات الثلج كان يدفئ نفسه بقلبه. فهو بدفء قلبه بقي حياً في الجليد، وقد استطاع مترجلاً، وهو يسير بجانب عربات القطار المتجمدة والعاطلة عن العمل، أن يوصل نفسه إلى موسكو. بماذا تدفأ قلبه؟ تلك النار، وهي أحدى العناصر الأربعة على حدّ قول كاوة التي تخلق محتوى الحياة، من أيّ مصدر كانت تنصبّ في قلب جيفاغو؟ الجواب سهل: لارا. حب لارا. المرأة التي لو تصورتها متقرفصة في زاوية إحدى العربات المتجمدة، قد يطول إيجادها ساعات، ولكن بجلوسها في قلب جيفاغو أوجدت حرارة تغلبت على حرب ثلوج وتجمد روسيا. لارا الجميلة والطيبة والمذهلة. تمرّ أعوام لم يريا بعضهما فيها، وتعيش لارا حياتها في الخفاء وفي هيئة شخص يجب أن يبقى بعيداً عن أعين الشرطة. جاءت إلى موسكو لتنهي معاملات إدارية. مرت صدفة

من أمام بناية كان يعيش فيها زوجها، وحسب ظنها أنه قد أطلق عليه الرصاص هناك، وكانت تقول لنفسها فلأرَ هل مازال أحد هناك. تدخل البناية وتمرّ من بين الناس إلى الغرفة، كانت الغرفة متراكمة الحقيقة في فترة إحماء المكواة، دخلت. التابوت هناك. آه. تابوت. تمدد على طاولة الكتابة. أي طاولة. طاولة نفس الشخص الذي نام في التابوت. اقتربت. لا تعرف من رقد في التابوت. مَن قد يكون في التابوت؟ هو نفس الشخص الذي تحمّل البرد بدفء لارا حتى هذه اللحظة. آه، إن وجه جيفاغو لمطمئن وحزين. أبَعد مضي سنوات تراه الآن على شكل ميت! هذه هي الفجائية. بناء ذهبي من أجل الهواء والتراب والنار والماء. الآن وهو ممدد في التابوت هو تراب وسيعود للتراب. الماء والهواء هما هذه المرأة المكسورة والمتجمدة الناظرة للميت».

حين وصل داوُد إلى هنا، ومن الخوف، الخوف من الابتعاد عن الحياة العادية، ارتجف وجلس: «سعيد! لم يعد باستطاعتي».

قال سعيد هامساً: «أكمل».

شدّ داوُد على عضلاته ليوقف الارتعاد. لم يكن الجو بارداً ولكنه كان يرتجف: «ليتني أستطيع الاحتفاظ بك لثلاث ليال هنا في هذه الظلمة حتى أُفهمك معنى هذا اللقاء مع التابوت. يجب قراءة ٧٠٠ صفحة من الرواية حتى تصل إلى هذه الغرفة. هذا التابوت مع دفتر اليوميات كانا في درج الطاولة في هذا المكان، ولن تتجسد بذكري لها. هذا تابوت غير عادي. التابوت الذي طال ليس فقط في الغرفة،

بل في الزمان حتى يصل إلى المرة الأولى التي يبوح بها جيفاغو للارا بحبه. لماذا قلتُ المكواة؟ في المشهد الذي يظهر الحب لأول مرة، مكواة على النار وثياب تكوى وجيفاغو في صدد البوح في هذا الخيط الطويل الزمني الممتد من الأزل إلى الأبد، هناك لحظة يرى فيها لارا ويبوح. آخ، أيّة لحظة فجائية هذه عجيبة ومملوءة بالسعادة والأسى. نهاية هذا التابوت هنا. قدما جيفاغو الباردتان هناك. وإن كان هذا التابوت كمكان، ولكنه مع هذا الزمن طال. آه، جيفاغو، ليتني كنتُ في داخل هذا التابوت. ليتني متُّ قبلك لأكون في عالم الأرواح وأقف فوق تابوتك لأرى كيف تعرفت لارا على وجهك وكيف بقيت وحيدة معك، معكَ أنتَ وحيدة. حالة ذلك الوجه، تلك الحالة تركض بوحشية للحظة في الخدين ورجفة الحاجبين. أنا الآن أرتجف مثل حاجب من البرد؟ مثل حاجب ممتدّ على عين ترى لأول مرة موت يوري جيفاغو في الغرفة وعلى طاولة كتابته. كيف بقي وحيداً معكِ وهل رجف الحاجب مثلي كما رجفتُ على الرصيف؟ كيف حدث أن كنتِ وحيدة معه؟».

نال داوُد تأييد سعيد في امتحانه، وكان على وشك الخروج حين تناهى إليه صوت فتاة: «داوُد!».

التفت داوُد واستطاع أن يحدد في الظلمة وجه بهار. عاد بسرعة إلى خشبة المسرح ولم يجد آيدن. قال: «نعم؟».

قالت: «أعطاني سعيد العدد الخاص بالتعبيرية لأسلمك إياه. أردتُ أن أتصل بك لأخبرك أنه عندي. إذا لم تكن في عجلة من أمرك فإني سأحضره».

التفت داوُد ونظر ثانية إلى خشبة المسرح. لم يجد آيدن. نظر إلى بهار وقال: «شكراً. ألست غاضبة مني على ما حدث في ذلك اليوم؟ كنت حانقاً على تمثيل آيدن. ولكن لم يكن من المنصف الحديث معك بذلك الأسلوب».

قالت بهار: «هل يمكننا الخروج من هنا. لقد تعبتُ من عتمة هذا المكان. أريد أن نرى بعضنا».

قال داوُد: «نعم. يمكن الخروج». وضحك. هو يعرف أنّ الفتيات يحببن أن يرين نظرات الرجال حين تقع على وجوههن.

خرجا معاً ودونما شعور أزاد داوُد من سرعته مجبراً بهار على الإسراع. حين خرج للنور رأى أنّ بهار كانت قد ارتدت ثياباً للخروج، وشاحاً وقبعة وحقيبة. عرف أنهما لن يعودا للمسرح. وقف أمام باب المسرح حتى وصلت بهار ورأت نظرة داوُد لوجهها: «كان تمثيلكَ اليوم رائعاً. فهمتُ اليوم ما الذي قصدته من شجارك. لم يستطع آيدن إدراك الموقع. كان الحقّ معك. رغم أنك كنتَ تتحدث عن جيفاغو حين كان في التابوت ولكن التوجه دائماً يتجه إلى لارا».

سارا برفقة بعضها مجتازين بركة ضيقة من ماء أسود يجري بين الثلوج. كان البخار الصاعد من بهار يمنح خديها احمراراً أكثر. قال داوُد: «تعلمتُ هذا من أخي كاوة. حساسيته عالية جداً. فهو أحياناً بعد تأثره بجملة أو مشهد أو وصف، يسير في البيت لنصف ساعة حتى يزول عنه التأثر».

قالت بهار: «أيّ أخ مخيف هذا! لم أجرؤ في ذلك اليوم على أن أنظر إليه».

توقف داوُد قال: «مخيف؟».

قالت بهار: «لم أجد كلمة مناسبة. لم أقصد مخيفاً. أقصد عظيماً».

قال داوُد: «الحقّ معك. أحيانا أخاف منه. الصحيح أن نقول إنه مخيف. ولكن لا. ليس مخيفاً. إنه شيء آخر».

أخرجت بهار العدد الخاص من حقيبتها. لمع الجلد العنابي لحقيبتها. قدّمته لداوُد.

أخذه داوُد وقال: «وصل في النهاية بين يديّ. كم أنا متأثر. أشعر أن باباً جديداً فُتح لي».

قالت بهار: «أخبِرني فيما بعد بما يحتويه العدد. ما هو الشيء اللافت لك. قرأته البارحة. أودّ أن أعلم ما ستعرفه أنت من هذه المقالات».

قال داوُد: «لقد تغيّر صوتك يا بهار! بات أكثر حميمية ومادحاً أيضاً. صحيح؟ تتكلمين بصورة كأنّ عينيّ لن تقعا مرة ثانية على آيدن. تعرفين أن آيدن غيور وسيتخذ موقفاً. سيظن أنّي سرقتكِ منه».

قالت بهار: «لقد حسمت أمري مع آيدن».

قال داوُد: «حقاً؟ تصدر رائحة مشاجرة من هذا الكلام».

قالت بهار: «ولماذا مشاجرة؟ تحدثنا. تبادلنا الهدايا بكل ودّ، وانتهى كل شيء. لقد قررنا أننا لو انفصلنا بودّ فلن ندع كل هذه الذكريات الجيدة تضيع من أيدينا. قررنا ألا نلوث ذكرياتنا».

قال داوُد: «لا أصدق؟».

توقفت بهار عاقدة حاجبيها وبدت أكثر جمالاً. كان وجهها ينقصه شيء ما من هذا البرد وهو التقطيبة. قالت: «لماذا تتهمني بالكذب؟ في هذا النهار لا يمكنني أن أكذب. لكن في الليل لمَ لا.

في الليل بوسعي الكذب والخيانة. ولكن في النهار لا. وبالذات في مثل هذا اليوم حيث غطى الثلج كل المدينة».

قال داوُد: «أنا أعتذر. ولأني معجب بك فالحقيقة لأني أردت الاطمئنان إلى أنّ لا شيء هناك بينك وبين آيدن».

قالت بهار: «وما الذي سيحدث حينها؟ قل ما الذي سيحدث لو اطمأن قلبك؟».

قال داوُد: «حسناً، الأمر واضح. سوف أظهر محبتي. لماذا لا أقول لكِ في غياب آيدن أني منذ فترة طويلة معجب بك».

قالت بهار: «بالتأكيد أنك تخبر نفسك أنّ هذا ما أودّ سماعه. أي أنني أردت إيصال المجلة لك لكي أسمع هذا الكلام؟ ولكن لماذا لم تقل ذلك لي كل تلك الأعوام؟».

قال داوُد: «حسناً، وجود آيدن. هذا هو السبب الوحيد».

قالت بهار: «لا. أنت تكذب، لم تكن تحبني لدرجة إزاحة آيدن. كان عليك إزاحته بجسارة. لا أعلم لماذا كنتَ بعيداً عني كل هذه الأعوام. اليوم حين رأيتك علمتُ أنّ نارك محرقة. أنت تفهم الحب. لماذا إذن لم تُزح آيدن؟ لماذا لم تخض حرباً في سبيل الحصول عليّ؟».

قال داوُد: «إن الأمور لا تجري هكذا. لقد لمحتِ أني كنت أرغب بك. وهل يمكن ألا تفهم الفتيات ذلك؟ ولكنكِ كنتِ تحت تأثير آيدن وأجبرت نفسكِ أن تبقي تحت سلطته. ولو حدث ورأيتُ أية علامة أو إشارة منك لواجهتُ آيدن أو أيّ حمار آخر».

قالت بهار: «طيب، يكفي. أنا لا أحبّ أن تعنّفني. لقد كنتَ اليوم متألقاً».

أمسك داوُد بذراع بهار ونظر في وسط عينيها قائلاً: «أنتِ لم تنتهي من آيدن بعد».

ضحكت بهار وقالت: «وما دخلك؟ ألست تحبني؟».

قال داوُد: «بالطبع».

ارتفع حاجبا بهار: «وما الفارق لو كنتُ انتهيتُ منه أم لا؟ ألم تكن تريد الحصول عليّ. إذن عليك أن تعدّ نفسك للحرب مع آيدن يا قارئ جيفاغو!».

قال داوُد: «أنتِ خبيثة وسكرانة! وهكذا فقط تستمتعين. عبر رؤية حرب بين رجلين، بينما أنت تتنحين جانباً. ولكن علاقتك مع آيدن انتهت. منذ هذه اللحظة سرتِ معي وتحدثتِ معي. أنا أحبك».

وضعت بهار وشاحها على فمها واتسعت عيناها. سرت رجفة في جسدها من المفاجأة.

قال داوُد: «كلّ هذا الزمن الذي مضى. لماذا فتحتِ عينيك على اتساعهما؟ يقول كاوة دائماً الزمن مثل الخلّ. يغسل الخجل ويزيحه. منذ فترة طويلة كنتُ أحبك ولكن كان لا بدّ للزمن المضي حتى أستطيع أن لا أرى غيري في هذه القضية، غير مطلبي. والآن لا أرى أحداً. أرى نفسي فقط وأنا أريدك».

أبعدت بهار وشاحها عن فمها وقالت: «اذهب الآن. أريد البقاء لوحدي. أريد السكون».

توقف داوُد. قال: «اذهبي»، وتابع رحيلها. هذا الجسد الذي كان يمشي ليس غريباً. ورغم أنها كانت تسير في جو بارد، لكنها كانت مثل من تغطى ببطانية، دفء ذاتي محبوس في الظلمة وينادي تعال، تعال خلفي! ولكن داوُد التف بقوة على هذه الرغبة الداخلية التي بدأت قبل دقيقة وتوقف حتى غاصت بهار في الحشد، وبعد أن ضرب على فخذه بالمجلة عدة مرات اتجه إلى البيت بقدمين مرّا من أمام وجه بهار في الظلمة عدة مرات حين التمثيل، تلكما العينان مغمضتان، وقبل لحظات كانت شحمتا اذنيها متلاصقتين. مازالت قدماه دافئتين وهو ليس فقط لا يشعر ببرد الثلج، بل يذيبه. وهذه المجلة؟ احضرتها له بهار، كأنّ يديّ بهار هما من بقيتا وذهبت هي أو لم تذهب، كانت بهار الفتاة والمجلة والتعبيرية والكذبة الحلوة، الكذبة التي قدحت كل الحقيقة. تذكر جملة يوري: «هذا هو الحب، إنه لا يتحقق إلا في القصص».

سلكَ طريقه عبر الحديقة من خلال بِرك شتائية، لأنّ الشتاءات وحدها ما تفتح طريقاً بين الثلوج يمكن العبور منه. يسير لكي يصل إلى البيت ممسكاً بالمجلة. الغلاف العنابي للمجلة منحه وهو في وسط هذه الحديقة المتغطية بالثلج العتيق وأشجارها العارية من العصافير والأوراق والتي ترتفع عالياً وهي مسوّدة من وسط ثقوب الثلوج، كلها تمنحه الدفء. كان هنالك لون في سيطرة البياض والجليد لا وجود له ويمكنه أن ينتزع مخيلة داوُد من مكانها إلى مكان تستولي عليه الألوان النارية. مكان غابوي ودافئ، مكان يتحتم فيه الخلاص من شرّ المعطف حتى لا يتذمر من الحرّ. قرب حقل اللوز رأى بغتة الرجل المهيب يقف ناظراً إلى الأشجار. اقترب منه وقال: «ما الذي تفعله هنا؟».

استدار الرجل المهيب وقال: «آه. أنت؟ كنتُ أشعر أني سأراك. لا شيء. كنتُ أبحث عن مكان خال لأمتحن هذه». وأشار إلى شيء تحت معطفه، كأنه عصا. حين رأى نظرة داوُد الحائرة أزاح المعطف؛

كان الشيء بندقية طويلة بمنظار: «سعادة الدراغانوف!».

كادَ داوُد يطلق صرخة: «هل دخلت الغرفة؟».

هزّ الرجل المهيب رأسه وعلائم وجهه تدلّ على السكر رغم النظارة الشمسية التي يضعها والتي لا تترك مجالاً لرؤية وجهه. قال والبخار يمتزج بالكلمات: «لم أستطع تلافيها. بالطبع لم أجربها بعد. جئت هنا لأن هذا المكان خال. لا تسألني أبداً كيف دخلتُ. أبداً».

قال داوُد: «تعال لنذهب إلى البيت. خلف السقف يقع بيتنا المطل على هذه الحديقة. ويمكن من هناك تجربتها».

قال الرجل المهيب: «لا، لن آتي. لقد اختبرتها. وإن كنتُ أودّ رؤية أخيك. ولكن دعها لفرصة أخرى. لدي عمل الآن. كنتُ على وشك المغادرة».

حدّق داوُد في زجاجة نظارته: «أنا أيضاً سآتي معك. لن أسأل ولكن أريد سؤالك كيف ولماذا دخلت الغرفة. ألم يشعر بك أحد؟».

تراجع الرجل المهيب ونظر إلى جهة بيت داوُد. قال «تغيّر رأيي. يجب الجلوس في مكان دافئ واحتساء الشاي. لنذهب».

تقدم داوُد ساحقاً الثلج. كانا يبتعدان عن حقل اللوز وهو ما سيؤدي إلى ابتعادهما عن منطقة السكوت والدخول في أجواء الأصوات للحارة، صوت سيارات البيك آب التي توزع الفاكهة والخضروات في مثل هذا الوقت على الحارات معلنة عن الأسعار عبر مكبرات الصوت. كان البخار يتصاعد من فميهما وقبعتا

المعطفين تبقيانهما بعيدين عن أصوات المكبرات. كان داوُد يفكر حتى باب البيت بأن الرجل المهيب، مع دخوله مرة أخرى إلى الغرفة قد أخذ شكلا غريباً وخطراً، وهو وإن لم يظهر ذلك، ولكنه كان يود أن يعرف جوابه عن مقترح مراقب المسلخ.

حين دخلا الحارة قال الرجل المهيب: «في كل ليلة حين أفرّش أسناني تنزف دماً. لثتي ضعيفة. ولكني أعتقد أن هذا الدم ينزف كل ليلة ليذكرني بأني أسكب الدماء».

قال داوُد: «في المسلخ؟».

هزّ الرجل المهيب رأسه.

قال داوُد ضاحكاً: «بالطبع مع مفارقة أنّ هذا دم بشري وذلك دم أبقار. أنت لم تقتل. هناك شخص آخر يقوم بذلك. في النهاية تحتاج الناس إلى اللحوم».

قال الرجل المهيب: «يحتاجون. نعم إنهم يحتاجون. إنك لم تر المسلخ، مع كل تلك الأجهزة الحديثة التي أحضرتها من هولندا. لو ذهبتَ إلى المسلخ في يوم عطلة ورأيته خالياً لقلتَ لنفسك لا يمكن أن تبقى كل هذه التكنولوجيا الحديثة عاطلة عن العمل. في النهاية يجب نحر رؤوس البقر، فما فائدة تكاليف كل هذا الفكر والهندسة».

وصلا إلى باب البيت، وضع داوُد المفتاح في الباب وفتحه. أمسكَ الرجل المهيب عن الحديث حتى يدخل. قال داوُد: «تفضل». ودخل قبله. رأى حذاء كاوة وعرف أنه في المنزل. نزعا حذاءيهما ودخلا. أخرج الدراغانوف من تحت المعطف. صاحَ داوُد:

«كاوة!»، ودعاه إلى غرفته: «غرفتي دافئة. ولكنها ليست مناسبة لاستقبال الضيوف».

قال الرجل المهيب: «بل ممتازة جداً».

نزع داوُد معطفه وأخذ معطف الرجل المهيب. اتكأ الرجل المهيب على وسادة أمام المدفأة. علق داوُد المعاطف على شماعة الثياب وذهب إلى المطبخ يعد مقومات الشاي. عاد للغرفة وقال: «لم أنسَ كلامك. لقد بقي مبتوراً. كنتَ تتحدث عن آلات المسلخ».

أشار الرجل المهيب إلى الدراغانوف وقال: «مثل هذه. لم يصرفوا كل ذلك الفكر والتقنية على هذا السلاح مجاناً. دقة صناعتها تثير الإنسان وترغّبه لإطلاق النار. وبالتأكيد فأن هناك شخص يرى هذا عبر المنظار. هذا مؤكد. أوَلن تشتعل حرب؟ لو وضعوا ألف (أمم متحدة) فإن الحرب ستبقى. والحرب بحاجة إلى الدراغانوف».

فجأة، وكأنّ داوُد قد صدرَ منه خطأ، قال: «آخ، أعتقد أنّ كاوة نائم. سوف أوقظه؟».

قال الرجل المهيب: «لا. لو أراد هو ذلك فلسوف يستيقظ بنفسه».

قال داوُد: «لماذا أقاطعُ اليوم حديثك دائماً؟».

قال الرجل المهيب: «كنتُ أقول. كانت السماء غسقاً حين ذهبتُ إلى النادي الرياضي. كان النادي مغلقاً حتى الساعة الثانية بعد الظهر. دخلتُ وجلستُ خلف الغرفة. كنتُ أرى الدراغانوف.

أعني كنتُ في حالة كأني أراها. أتذكرُ حين كنا نبني الجدار للأعلى أنني ألقيتُ نظرة، نظرة أخيرة، بالتحديد عليها. حاولتُ أن أحفظ كل جزئياتها. جلستُ مثل مَن لديه امتحان عسكري واستعدتُ كل قطعها وأعدتُ تركيبها. وبعد أن ركبت كل قطعها خطر في ذهني سؤال مثل الرعد، أضاءه كله. هل صُرفت كل هذه المهارة في هذا السلاح لكي يُعلق كديكور؟ لا. عليه أن يكون برفقة إنسان، شخص يستعمله لا أن يبقى على جدار في غرفة مغلقة. خاصة مع هذا المنظار. لو كان سلاحاً عادياً دون منظار لأمكن التغاضي عنه. ولكن المنظار دائماً ما ينادي أين العين التي ترى بي، أين العين الحية؟ أين العين المملوءة بالبصر لكي أرسلها للبعيد؟».

قال داوُد وهو متحمس: «لم أعد أستطيع الصبر. هل دخلت الغرفة مرة ثانية مع هذه الدوافع؟».

قال الرجل المهيب: «لو لم أدخل فما الذي تفعله هذه معي؟».

قال داوُد: «ماذا فعلتَ بالجدار؟ هل هدمته مرة أخرى؟».

أدار الرجل المهيب رأسه جهة المطبخ. قال وهو يبتسم: «كان من المقرر أن تسكب لنا الشاي. أسمع صوت غليان الماء».

نهض داوُد دون أن يتفوّه بكلمة واتجه إلى المطبخ. ومع حديث الرجل المهيب عن الغرفة والدراغانوف وذلك المنظار تذكر بهار وهو يسير، فارتعش قلبه. ألا يمكن أن يكون استيلاء الرجل المهيب على بيت أصحاب الدراغانوف معدٍ، هذه الشرارة موجودة في ذات الجميع، حتى في ذات بهار؟ أليس اقتراب بهار منه وابتعادها عن

آيدن كان حلماً رآه وانتهى. ولكن لا، مادام كاوة موجوداً فلا يمكن أن يُفسح الطريق لمثل هذه الأفكار. لا يحبّ كاوة مثل هذه الأفكار الشريرة. إذن لا بهار ولا الرجل المهيب شر.

وضع حفنة من الشاي في الإبريق ثم سكب عليها الماء. وقبل أن يتوجه إلى الغرفة بحث عن الهاتف، دخل للصالة واتصل على بهار لكي يزيد إيمانه بكاوة. ردّت بهار. قال دون مقدمات: «متى بالتحديد انفصلتِ عن آيدن؟ لماذا أقصيتِه عنكِ؟».

سكتت بهار. خرجت «إممم» طويلة من فمها ثم قالت: «كنتُ لفترة طويلة مع آيدن ولكني لم أر أداءه. الحقيقة هي أنه يمثل أفضل من بقية الشباب. وهذا ما أصابني بالملل. ليتني لم أرَه. كان دوره في عطيل ممتازاً. وهنا فهمتُ أنه في التمثيل قوي وهذا ما لا أودّه. هل تفهم ما أقوله؟».

قال داوُد: «نعم. أفهم. ماذا عني؟».

قالت بهار: «أنت لست ممثلاً أساساً. لم أقرأ رواية الدكتور جيفاغو ولكني أعتقد أنها لا ترتبط بما قدمتَه. كنتَ أنتَ أكثر مما أنت. لم يتملكني أيّ إحساس من تمثيلك».

قال داوُد: «ليس كذلك، كلها موجودة في الرواية».

قالت بهار: «لكن ليست بهذه الحدة. عرفتُ جيداً أنك تعيد صياغة الرواية».

قال داوُد: «شكراً لأنك قلتِ ذلك. أحتاج وقتاً حتى أحتمل

التفافك هذا المفاجئ. شبيهٌ هو بالحلم. ولكي أطمئن أنه ليس حلماً سوف أتصل بك أحياناً. ألا من مشكلة في ذلك؟».

قالت بهار: «ليتني لا أكون في البيت ولا تبثّني شكواك. أفضّل هذا أكثر».

قال داوُد: «من أين تأتين بكل هذا الشر؟».

قالت بهار: «أنا شريرة؟ أريد أن تُغوى».

وضع داوُد سماعة الهاتف. كان يفكّر وأدرك أن عليه أن يسكب الشاي للرجل المهيب. تذكّر السؤال الذي كان عليه أن يسأله إيّاه وأبقاه في ذهنه حتى لا يضيع حين يسكب الشاي. أحضر الشاي وهو يضعه في الصينية أمام الرجل المهيب، قال: «اعذرني إن كنت قد تأخرتُ عليك».

ولكنه لم يودّ فقط أن يعتذر. أرادَ أن يسأله كيف عاد للغرفة وأخذ القناصة. لكنه لم يسأل وقد كان يعرف جيداً أنه إن لم يسأله فلن يخبره الرجل المهيب بما حصل، لن يكمل. وهذه الفاصلة التي وقعت بين إعداد الشاي واتصاله على بهار قتلت الكلام. وهكذا حدث وداوُد منصدم لماذا يدع الكلام عن الغرفة ليتحوّل إلى كلام وصلوا إلى قعره ولا حاجة للرجوع إليه. تواجد الرجل المهيب بذاته يختتم أي حديث كان، ويمنح داود الطمأنينة بأنه مازال على قيد الحياة وأن بإمكانه تأخير سؤاله إلى وقت آخر. فلن يهرب الرجل المهيب. ولا حاجة لاستعجاله. والعالم مازال قائماً والخصال التي نحملها ستستمر فينا.

ظهر في الباب ظلٌّ وتبادر في ذهن داوُد سريعاً أن ليس هناك في هذا البيت أكثر من ثلاثة أشخاص، هنا اثنان، إذن لا بدّ أن يكون كاوة قد استيقظ على صوت الحوار ونزل بكل هدوء. الوضع لا يحتاج إلى استدلال. يمكنه أن ينظر ليرى بنفسه كاوة. لكنّ الثمالة التي أصيب منها بسبب حضور الرجل المهيب غطت على عينيه وأوقفتهما عن الحركة.

قال كاوة: «هل لديك ضيوف؟».

قال داوُد: «هذا هو الرجل المهيب. هل حدثتك عنه؟».

نظر كاوة بوجه متورم وعينين ضيقتين. دخل ومدّ يده جهة الرجل المهيب: «أهلاً بك».

أراد الرجل المهيب أن ينهض ولوّح له كاوة ألا يفعل ذلك. قال الرجل المهيب: «شكراً. دائماً ما يتحدث عنك أخوك. تحدث عنك بصورة جعلتني وكأني رأيتك مراراً».

قال كاوة: «هذا لطف منك. اعذرني. سوف أغسل وجهي. كنتُ مستيقظاً للصبح». كان صوته من كثرة النوم جهيراً.

التفت الرجل المهيب إلى داوُد: «ساحرٌ أخوك هذا».

قال داوُد: «في اللقاء الأول ليس إلا مجنوناً».

وصل كاوة بلحية غير مشعثة مع كوب شاي. جلس مقابل الرجل المهيب إلى جانب المدفأة وللتو وقعت عيناه على الدراغانوف: «ما هذا؟».

قال داوُد: «قنّاصة. اسمها دراغانوف. هل ترى وقع الاسم؟».

سحبَ كاوة نفسه للأمام: «هل تسمح لي؟».

قال الرجل المهيب: «أرجوك تفضل».

مسحَ كاوة بيده عليها وسأل: «هل فيها ذخيرة؟».

قال الرجل المهيب: «كلا».

حملها كاوة ووضع منظارها على عينه اليمنى ونظر للخارج عبر النافذة. أزاح داوُد الستار. منح الثلج في الخارج شعوراً جيداً. ليس من المقرر أن يقع أمر سيء. وكيف يمكن للمكان الذي يغطيه الثلج أن تأتيه السوداوية. قد يكمن السر في بقاء جيفاكو هو هذا. نفس هذا الثلج الذي يغطي كل الأراضي الروسية. وعلى ذلك يمكن ركوب القطارات الروسية والسفر لأسابيع والمرور من بين البياضات على أن تمتلك قلباً قوياً لكي لا يأتيه شرٌّ ولا عذاب. نحن ثلاثة رجال جالسون هنا في غرفة دافئة مع رائحة شاي وقطع سكر وصوت مدفأة. نفس العدد ثلاثة يمنح طاقة. إنه خالق لشيء.

قال كاوة: «بالتأكيد أنك كنتَ في الحرب؟».

قرّب الرجل المهيب كوبه من شفتيه: «نعم. ليس قليلاً».

كان كاوة ينظر عبر المنظار لأشياء في الخارج. قال: «ولكن لم تتَح لي الفرصة للذهاب. ليس تحججاً. ولكن لم أكن على قدر من الوعي لأعرف ما الذي سأفقده. وبالطبع فلو وقعت الحرب الآن فإنني لن أذهب. لأني توصلت لوعي. لماذا أذهب إليها؟».

ضحك الرجل المهيب عالياً: «هل تريد أن أريك شيئاً لم تره. لا يقلّ عن الذهاب للحرب. حرب الإنسان مع البقرة».

ترك داوُد الستارة وجلس.

نزع كاوة عينه من المنظار وحدق في الرجل المهيب: «ماذا؟».

قال الرجل المهيب: «يبدأ مسلخي العمل من الساعة التاسعة حتى الساعة الرابعة صباحاً. أنا سوف أستقلّ سيارة وأنت سترافق داوُد لتريه. والحقيقة أني قدمتُ اقتراحي لداوُد. أنا أبحثُ عن شخص يذهب للمسلخ كل أسبوع مرة. ولو رافقتَه في المرة الأولى سأكون ممتناً لك».

التفت كاوة إلى داوُد: «هل تريد الذهاب؟ عليك أولاً أن تتخذ قراراً بأن تقبل عرضه، ثم نرى».

هزّ داوُد رأسه بقصد أنه ليس معارضاً. وقد كان يفكّر في بهار وأنه سيكون بعيداً عنها لساعات، وسيكون منذ هذا الأسبوع في مكان لا علاقة له بالحب. وقد تكون جذوة حبه لبهار بالعكس حيث ستصنع الكراهية وستصبح أكثر حِدة بسبب تضاد الناس هنا وحساسيتهم، وهو بالطبع واحد منهم.

قال كاوة: «لا مانع. على الأقل فإني برؤيتي لمسلخك قد أعود عدة قرون إلى الوراء».

قال الرجل المهيب: «لماذا؟».

قال كاوة: «أعني ما دامت (ميترا)(*) باقية فقطّاع رقبة الثور سيكون برفقتها. ألم ترَ تمثال ميترا وهي تُرجع رأس البقرة للخلف وتمرر النصل على حنجرتها؟».

قال الرجل المهيب: «لا، لم أرَها. ولا أريد أن أراها».

قال كاوة: «بالطبع، ففي قرآننا نقلت مثل هذه القصة عن موسى. نفس البقرة التي سبب قتلها في إعادة ميت للحياة، وقد ذكر اسم القاتل ومات مرة أخرى».

ابتسم الرجل المهيب: «إنها الحقيقة بعينها. الحديث معك يهدئني. إذن سوف أرتب الأمور. ما عليّ سوى الاتصال وإعطاء العنوان لكي تصل السيارة. الوقت الآن مبكر بالطبع. والمسافة من هنا حتى (جلفا) ثلاث ساعات. ولو خرجتما الساعة السادسة فإنكما ستصلان. وفي الليل سيعيدكما. يكفي أن تتسكعا ساعة. والآن أودّ، إذا لم يكن الأمر متعباً لكما، أن أتحدث معكما أكثر. أنا أراكما كولديّ. وأودّ الجلوس هنا وأراقبكما تتحدثان وأطريكما في قلبي. لقد قلتَ كلمة في البقرة أراحتني».

قال كاوة: «لماذا؟ وهل تعيش معذّباً لأنّ لديك مسلخ؟».

قال الرجل المهيب: «أريد قول نعم وأريد قول لا. أفكر في الأبقار، في عبورها من حدود أرمينيا ودخولها إلى البلاد. إنها تُقلع من تلك المراتع الأرمنية وتُجلب إلى هنا، وبعد يومين تُقطع رؤوسها

(*) كانت ميترا قبل زرادشت، إحدى كبريات الآلهة الهندوفارسية.

فأرتبك أنا. وأفكر في يوم آخر في الناس. في من سيشترون اللحم المعلب آخذينه إلى البيت، وأنا سأفرحُ من إشباعهم جراء ما أقوم به حين لا يكونون مجبرين، لقلة المواشي، أن يشتروا اللحوم بسعر أكبر».

رفع كاوة كوبه، تذوق منه ونظر لداوُد كأنّه يشير له أن شعوراً مثل هذا سوف يصيبك إذا قبلت العمل. قال: «لا يمكنك أن تريح بالك. لأنّك حين تفكر في الأبقار وحين تفكّر بالبشر، تفكّر بأجسادهم. إنه نفس تحديقنا للجسد حين ترتعش أيدينا وقلوبنا وتستحضر هاجساً أخلاقياً. ولكني أعتقد أنها وهم. إنها تريحنا بالطبع لأننا أخلاقيون ونعتني بأبقارنا. ولكن لو فكّرت بأرواح الأبقار وبأرواح البشر لرأيت أن لا شيء يحدث في مسلخكَ ولا في محلات البيع ولا في المطابخ ولا على طاولات الطعام!».

ضحك الرجل المهيب: «أنت إنسان خطير. يمكن للمرء أخذ ترخيص أيضا لقتل الناس. بكل سهولة؟ وكأنّ ليس هناك عذاب في القتل».

قال كاوة: «ومَن أنا لكي أرخّص؟ مذ وجد الإنسان والقتل كائن. ألا تعتقد بغرابة أمر أنّ القتل بدأ من الجيل الثاني للبشر؟ إنّه لم يصبر بالتأكيد لكي يتأخر إلى الجيل السابع أو أكثر لكي تزداد نسبة البشر ولكي يصبحوا غرباء أكثر مما كانوا. عبر حسد وقع بين أخوين في فجر التاريخ. تريد ألا تكون قابيل. فليكن. بيد أنّه لا يمكن غرس الرأس في الثلج، لأننا لا نقبل، وأن ذلك لن يحدث. نفس هذه الأسلحة التي معك هي تذكرة لهذا القتل».

قال الرجل المهيب: «لا. دعني لا أكون متفقاً معك. لأنّ امتلاك السلاح لا يعني القتل. في أمريكا نفسها تُشترى مليون قطعة سلاح في الكريسمس كهدايا، ولكن ليس شرطاً أن تُطلق النار. إنهم يضعونها في الدرج ويقفلون عليها خشية؟ أية خشية؟ لا أحد يعرف. لم تحدث قطّ».

قال كاوة: «لم أقل أنك حملتَ البندقية لتقتل، وإلا لكنتُ خفتُ من رؤيتك. أنا أتكلم عن مفهوم القتل، وهذا المفهوم يُخبرنا عما في الواقع. في حالة إن كان يتطابق مع أخلاقي وأخلاقك أو أن لا يتطابق. لماذا لا تنطلق النار من تلك الأسلحة المليونية؟ لأنّها علامة من الواقع وليست نفس الواقع. كل قطعة سلاح تقول لهم أن هناك قتل في الخارج. هذا الخارج. وبكل سهولة. ولو كان الإنسان قاتلاً ويفكر في إطلاق النار فهل سينتظر عيد الكريسمس؟ هل سيفكر بإقران السلاح مع الكريسمس؟ وهل من اللازم أن يفكّر أن عليه القتل بسلاح حار؟ السلاح الذي يُشترى من أجل الكريسمس هو أقرب شبهاً لقطعة ياقوت أو ماس بدلاً من آلة قد تستخدم في يوم ما وكأنها زينة، وبالطبع فهي علامة تذّكرنا بالموت والقتل في الخارج. ولماذا نذهب بعيداً. ألم تحدث في الحروب؟ أرجوك ركّز قليلاً وحدّثنا عن ما هو الفرق حين كنت تضغط على زناد هذه البندقية هناك، وبين إمساكك لها الآن في هذه الغرفة؟ كان القتل قائماً بنفسه هناك، ولكن هل أنك تراها الآن وتتذكر القتل ثم تكرر في ذهنك القتل القتل؟».

وضع الرجل المهيب يده على ذقنه وأطرق برأسه: «لو كان

قصدك أيام الهجومات فلا. كنت قليل التركيز. على الأقل يمكنني القول إني لم أكن مثلما أنا عليه الآن. كانت تستولي علينا حالة».

قال كاوة: «أنا متأكد أنّ الوضع ليس مثلما عليه الآن. أنت لم تكن هناك على قدر من الإدراك العالي. كأنّكَ كنت غارقاً في الوجود المتعالي الذي يضغط أحياناً على الزناد مطلقاً رصاصة. ولو كان الأمر عائداً إليك لما أطلقت واحدة ولما قتلت. هل قتلتَ أحدا؟».

تريّث الرجل المهيب. لم يجب. زمّ شفتيه وهم أن يتحدث فتدخل كاوة: «هل ترى أنّ الاعتراف بالقتل صعب جداً؟ أنت حاربتَ، ولكن هذا لا يعني أنك قاتل. القتل يحدث في أكثر الأوقات ليس بقصديّة ولا من فعل الإنسان. حين قتل موسى القبطي قال لنفسه هذا من عمل الشيطان. العجيب أن نفس هذه النظرية تُطرح في الجريمة والعقاب لدستويفسكي. هو لم يقتل راسكولنيكوف العجوز. بل الشيطان من فعل ذلك».

توقف وأخذ نفساً ثم أطلقه.

قال داوُد وكأن استثارة كاوة قد تلبسته: «كم أودّ الذهاب إلى المسلخ بالعربة. أن نجلس في الغرفة مترنحين ونرى الخيول والبخار يخرج من أفواهها ويتصاعد الضباب من أجسادها في جانبي الطريق حيث الجبال الوطيئة المغطاة بالثلوج وحيث نتحدث همساً. لماذا انتهى وقت العربة حين جاءت السيارة؟ أيّ ذوق سخيف هذا كلما جاء شيء متقدم سقط القديم؟ وأيّ تقدم؟ السيارة متأخرة عن العربة لو أخذنا ذلك بمعيار الحداثة مع كائن حيّ. أليس ما أقوله صحيحاً؟».

قال الرجل المهيب: «للعربة سكون ليس في السيارة. ولكني أعرف شخصاً لديه سيارة مرسيدس قديمة تعمل على الديزل. لا يختلف داخلها كثيراً عن العربة. فهي تسير أبطأ من سيارات اليوم. سأتصل عليه وأسأله إن كانت سيارته تعمل بشكل جيد. ولكن حسناً، إنها لا تمنحك شعور العربة. تذكرني العربات بملوك القاجار».

نهض كاوة ووضع الكوب على رفّ ومدّ يديه أمام المدفأة ونظر إلى داوُد كأنه يسأله لمَ أنت صامت فأشار له داوُد أنه أفضل حالاً هكذا. قال كاوة: «هذا لا أكثر. لرؤية المسلخ وفهم الصناعة التي أحدثتها، من هو أفضل من ملك ليذهب؟ المرشحون لهذه الصناعات هم الملوك. بيد أننا إما نظرنا لهم بإثارة أو بكراهية. نعم، العربة جيدة لتعرّفنا على زاوية رؤية النبلاء. أولئك الذين يختفون عن أنظار الناس المسحوقين في الغرف. يجب أن يكونوا خفيين. أعزاء ويجب عدم النظر إليهم بأيّة عين».

نهض داوُد وقال متحمساً: «أنا موافق. ليس عليّ أن أبوح به، ولكنني منذ فترة أبتني في ذهني حياة النبلاء. تعلمتُ هذا بالطبع من أستاذ مسرح روسي؛ أن تتخيل شيئاً حتى تتأثر به».

صفق الرجل المهيب وقال: «ليتني تعرفتُ عليكما من قبل. لو كان لديّ أصدقاء بمثل هذه الحدة من الذكاء والذوق لما أكملتُ ما أنا فيه من حياة. كنتُ أتخوف دائماً من أن أصبح أباً. لأنه لا يُتوقع مني تربية طفل. أردتُ أن أوظف ممرضة لتصقل شخصية

طفلي. وإذا لم يحدث فعلى الأقل لدي أصدقاء حادّو الذكاء نجتمع في الأسبوع مرة في مكان بعيد، حين يلعب طفلي حيث لا يؤثر في لاشعوره. ولكن لم يحدث لي قط أن التقيتُ أشخاصاً بمثل ذكائكما. كم هي صدفة جميلة هذا اليوم حين رأيتُ داوُد. وكم هو جميل أنك في البيت واستيقظت على صوتنا وجئت إلى هذه الغرفة الدافئة واللطيفة. أنت لا تعرف كم أنا سعيد. لا تعرف».

قال كاوة ويبدو أنه تذكّر شيئاً: «عليّ أن أرتدي ثيابي. آسف». وخرج من الغرفة.

ولأنّ داوُد لم يكن لديه ما يقوله فقد أطرق برأسه وتابع خيوط السّجادة. مازال هناك وقت ليسأله عن الغرفة. حتى لو أرادَ الرحيل يمكنه مرافقته ليسأله. لا يتناسق التضييف مع سؤال الضيف عن أسراره. بيد أنه لو كان المضيّف الرجل المهيب نفسه لأمكن سؤاله. لأنّ المفترض هو أن المضيّف يترفع عن فضح سر ضيفه. إضافة إلى ذلك السؤال، لديه سؤال آخر. لماذا يضع دائما النظارة الشمسية؟ يمكن طرح هذا السؤال. ليس هذا مفرطاً في السريّة. وضعُ النظارة على العينين ليس مثل دخول غرفة الدراغانوف بعيداً عن الأعين. كان الرجل المهيب دائماً في مدى نظره، وكل من ينظر إليه يراها. رفع رأسه وقال: «لماذا تضع دائماً النظارة الشمسية؟ ليس في الغرفة نور شديد. لا شمس ولا ثلوج تضرب العين».

ضحك الرجل المهيب. قال: «أنتما شقيقان. أنتما أيضا مُشعّان».

ضحك داوُد وفهم أن عليه أن لا يصرّ. بيد أنّ الرجل المهيب

قال: «ستعرف في وقتها. بعض الأمور لا يودّ الإنسان الكشف عنها إلا إذا وصل إلى درجة من الحميمية. الأمراض مثلاً التي لا علاج لها. يودّ الإنسان كشفها لآخر لتبقى معه إلى آخر عمره. أي ليست صداقة عابرة. الموضوع الذي يبقى معك إلى نهاية العمر تودّ قوله لمن يبقى معك إلى آخر العمر. أمّا أن تطرح مثل هذا الموضوع العظيم مع شخص بعد احتساء شاي أو قهوة ويذهب، فسيبقى قلبك معه، وسوف يعذبك بصورة مستمرة سؤال ما هو رأيه بي وبمرضي».

قال داوُد: «المثال الذي ضربتَه يقطع الطرق كلها. لا أعتقد أن وضعك للنظارة جاء بسبب مرض».

ابتسم الرجل المهيب وهزّ رأسه. أراد أن يضيف شيئاً فدخل كاوة مرتدياً قبعة ووشاحاً: «عذراً. عليّ الذهاب. لدي عمل يجب أن أقوم به».

قال داوُد بتشكٍّ: «أحببتُ أن تأتي معي. لو ذهبنا معاً لكان أفضل».

قال كاوة: «في النهاية لو قبلت العمل عليك الذهاب والعودة وحيداً».

قال داوُد: «لم أقبل بعد، ولأني لم أقبل فإن نفس الطريق بات مشكلة. أريد قطع الطريق مع رفقة. أنا مشتاق لقطع طريق طويل مع شخص».

رفع كاوة يده ونظر إلى ساعته وقال: «بعد ساعتين سأتصل بك. أليس من المقرر أن تكون مساء هناك؟ الساعتان إذن لن تشكّلا

فرقاً». وضع يده على أكرة الباب وانحنى داخل الغرفة: «سعيد جداً برؤيتك».

نهض الرجل المهيب من مكانه وقال: «عليّ أنا أيضا الذهاب. أخبرني فقط بساعة خروجك حتى أرسل لك السيارة».

نظر كاوة إلى داوُد: «حدّد مكاناً في مركز المدينة الساعة السابعة. سوف آتي ونذهب معاً. وعلينا ترك ملاحظة لروكسانا لكي لا تقلق. جيد؟».

قال داوُد للرجل المهيب: «هل يناسبك المكان أمام سينما قدس؟».

وضع الرجل المهيب الدراغانوف تحت ذراعه وقال: «الساعة السابعة أمام السينما». قال لكاوة: «لنذهب يا أستاذ!».

سارا إلى جانب بعضهما حتى الباب ولبسا حذائيهما. عقد داوُد يديه خلفه ناظراً لرحيل الاثنين. كان كلّ منهما يسير على أثر إطار سيارة بقي على الثلج. السماء تكاد تظلم وتصبح أكثر هدوءاً. كان داوُد ينظر إلى رجلين متوجّهين إلى مركز المدينة. قال لنفسه: «ذهاب شخصين أمر رائع. وكيف يحدث ذلك؟ الأول يخفي سلاحاً تحت معطفه والثاني يحمل سلاحاً في عقله، وكانا قد تعرفا إلى بعضهما قبل دقائق». قال لنفسه هذا وتذكر أنّ كاوة ارتدى وشاحه وقبعته فجأة. لم يستطع السؤال عن الغرفة. ومن الممكن أنه لو سأل فستأتي إجابته مثلما كانت إجابته حول النظارة. أغلق الباب وعاد إلى الغرفة الدافئة. انتهت رواية الدكتور جيفاغو وما تسلط عليه في هذه الغرفة التّيه. ابتعد جيفاغو ولارا عن الغرفة وتواريا مثل

دخان. وحدها الرائحة التي بقيت منهما. هل يقرأ الدكتور جيفاغو مرة ثانية؟ ولكي يصل إلى مثل هذا القرار تمدد على الأرض. وهذه ليست المرة الأولى. كان في السابق إذا أراد أن يبدأ بقراءة مسرحية أو رواية، يتمدد على الأرض ويغلق عينيه. تمدد وأغمض عينيه. وقبل أن يتخيّل الآفاق البيض من الثلوج والبخار المتصاعد من فم لارا، عادت لذهنه الغرفة وتخيّل الرجل المهيب وكيف استطاع عبور الجدار. كانت هذه الرؤية أكثر كثافة من رؤيا سيبيريا المثلجة وأدّت إلى دخول داوُد في غفوة، فرأى الرجل المهيب يعبر الجدار وفي الجانب الآخر من الجدار ينفض ثيابه من غبار الإسمنت والجصّ ويعيد الدراغانوف دون أن يصدر أقلّ صوت إلى مكانها. حينها جلس على السرير ناظراً إلى زجاج إطارات الصور ووقع عليه ظل فتاة. رفعت الفتاة سماعة الهاتف وتحدثت مع أحد ما وكانت تضحك أثناء مهاتفتها. والآن وبما أنّ الرجل المهيب لا يراه أحد، نزع نظارته ووضعها على السرير وأوصل ظهره لمتّكأ حيث بوسعه أن يسمع ضحكات وكلام الفتاة المبهم أحياناً والواضح أحياناً:

«طريقة مشيي؟ لا. فقط حين تنظر إليّ وأعرف أنك تنظر إليّ أمشي هكذا. لا يمكن السير هكذا دائماً. ما هو اسمه؟ التثني. لا. أدبيّ كثيراً. لا أودُّ أن يكون بهذه الكثافة. أنا أعرف أيّ شيء هو شبهه. الثعلب. نعم. هكذا يمشي الثعلب. أنا رأيتُه عن قرب. لو وصلت نقودي واشتريتُ أحد ذيول الثعالب التي تُباع في اسطنبول مع موسم الموضة، حينها ستفهم أني أمشي مثل الثعلب. ولكن بعيداً عن المزاح، الحقيقة أني أتحدث عبر الهاتف مثل المتدلعات؟

أنت تكذب. هل تريدني أن أكفر. لا... لا تقل هذا. أنت مخطئ. ماذا إذن؟ ألا تقول إنك تحبني؟ عليك محاربة آيدن من أجلي. هل ستريق دماً؟ لو أرقته فسأفرح. دعني أجرح يدي لكي تكون قصتنا دموية. حينها ستتملكك الجرأة للدخول في حرب مع آيدن. اسمعني أتحدث الآن بصوت عالٍ لأنّ لا أحد في بيتنا. أتحدث معكَ بصوت عالٍ لكي لا تتحجج بأن الصوت خفيض وأنك لم تسمعه. اقتل آيدن. لو تدّخل اقتله. أنت تحبني. هل رأيتَ حباً دون حرب؟ أنا أريد حبيباً قاتلاً. هذا حبيبٌ حقيقيّ. ولو كان عندي ألف حبيب فعليه أن يعدّ مسلخاً لهم كلهم. يقدَّمون في صفّ وتربط أرجلهم بالحبال ويعلّقون في كلاّبات سقفية ثم تُنحر رقابهم بالنصال. هذا ما يُقال عليه الحب. نعم. لو لم تكن عارفاً فلتكن. ولكن لا تطلق عليه مسلخاً. سمِّه حماماً. ألا نريد أن نوسّع عالمنا بالاسم. أطلق عليه حماماً ليغطي البخار كل المكان والدماء السائلة من آلاف العشاق ستظهرهم أكثر ولن يُعرف أحدٌ منهم. ما هو رأيك؟ سأقول لهم نفس الكلام؟ كم أنت أحمق. لو كان الأمر هكذا فستقتلون بعضكم البعض وأبقى أنا العانس. حينها سأخطف قلب مَن يا مسكين؟ حينها سأتدلع لمن؟ أللمرآة؟ اذهب. اذهب. لم يعجبني. لا، لا تذهب الآن. وإن كنتَ قد أغضبتني، ولكني أخاف أن ترحل وأبقى عجوزاً دونما عاشق. دائماً، وفي كل يوم، يجب أن يكون لي عاشق، وإلاّ سأقتل نفسي. إذا لم يكن في هذا العالم مكان لخطف القلوب فما سبب البقاء فيه؟ هل أنا حمقاء؟».

بعد ساعة كان الرجل المهيب مع كاوة في قارب على نهر يقع وسط المدينة يتقدمان فيه ببطء. غطّيا أرجلهما ببطانية وفي الأسفل كانت هنالك صفيحة محمرّة من الجمر، اقترضها الرجل المهيب من بائع شمندر يحتّل مكاناً في ميدان (ولي عصر). طوال الطريق، تحول الماء إلى ثلج بلوري مشكلاً نتوءات على الساحل. نزل عليهما نور الغروب الأفقي. كانا يريان الوجوه من بين كثافة البخار المتصاعد من فميهما. على جانبي الطريق صفان من أشجار النبق ترتفع مثل دخان، كأنها رؤوسٌ لآلاف الأيائل المقطوعة وقد صُفت إلى جانب بعضها. كانت في حالة ارتفاع دائم، وكانت تبرز أحياناً من بينها أجساد الزيتون الروسي. تصبّ قنوات المياه في النهر مانحة قدراً من الدفء للناظر إليها. المستنقع دافئ وموحل يختنق بخاره ببرودة الماء ويفقد لونه.

حكّ كاوة حنجرته بالسعال قائلاً: «لا أعلم لماذا نقلنا كلامنا من الغرفة الدافئة والمعزولة إلى هذا القارب؟».

ضحك الرجل المهيب. قال: «لم يكن توقعنا صحيحاً بالمرّة. لم أتوقع أن يطول بنا الحديث. دعنا عن ذلك، الفرق بين هذا المكان وغرفة أخيك أنك يجب أن ترتجف من شدة البرد. هذا الرجيف الكلبيّ(*) أو بالأصح اصطكاك الفكوك سيحوّل الحديث إلى ذكرى نوستاليجية. أنا متأكد أنّ حديثنا في القارب سيبقى في الذاكرة أكثر من الحديث في الغرفة».

قال كاوة: «الذكرى! الذكرى! المخدّر الذي يسمى ذكرى! أنت أيضا هاوي ذكريات. قليلون هم الذين يعيشون مثل هذه اللحظة ويفكرون بالمستقبل ويريدون صياغة ذكرى من هذه اللحظة، يسكبونها مثل الخمر في جرّة لتبقى لأعوام. كلّما مرّ عليها الزمن صارت استعادتها تسبب سكراً أشدّ. لو كان الأمر هكذا فإن علينا أن نفتح أعيننا باتساعها وأن نلصق الجزئيات جيداً بذاكرتنا. أتوقع أنّ لديك حياة سرية. قد تكون حياة سرية واحدة وقد تكون أكثر. أنا أعبدُ مثل هؤلاء الرجال. أرى قيمة الرجال تتعلق بحجم حياتهم السرية. وعلى ذلك فهي تروق لي. وبالطبع فلا يعني هذا أنّ تملقي مهم».

(*) الرجيف دون سبب يطلق عليه الرجيف الكلبي نسبة إلى رجفة الكلب.

أخرج الرجل المهيب كلتا يديه من تحت معطفه ورفعهما وألصق أطراف أصابعه ببعضها البعض وقال: «كنتُ في زمن ما تلميذاً في بيت شاعر مسنّ. وفي جلسة قال الأستاذ للجميع قضيتُ أربعين عاماً باحثاً عن مثل هذا التلميذ لأعرض عليه فنون الشعر ولكني لم أجده. والآن لا جدوى. وصلني هذا الرجل المهيب متأخراً. في الجلسة، كنتُ أكثر خجلاً من أن أسأله. أوصلته للبيت وبعد أن نزع ثيابه وجلس إلى الكانون وسكب لنفسه الشاي قلتُ له لماذا قلتَ وصلني متأخراً؟ قال لو وصلتَ ساعتها لأمضينا الوقت في المتعة. والآن فإن قصتنا أنا مع أخيك وسعادتك أيضا ذات القصة. التقينا متأخرين وإلا لأنهينا حياتنا في المتعة وحسن المعشر. ما الذي جال ببالك من قيامي بتأسيس المسلخ. لا شبيه له إلا في (سيستان) حيث يصدرون التراخيص لمثل هذه المسالخ للمناطق الحدودية فقط. ولأنّهم يخافون أمراض الأبقار، فهم لا يسمحون بدخول المستوردة منها. وأنت على اطلاع أننا نواجه في هذه البلاد دائماً شحّة

في اللحوم. لأنّ ليس لدينا مراتع قوية وكبيرة. كل الأماكن عبارة عن صحارى. لو عمل مسلخي على ثلاث نوبات لبقي الطلب على اللحوم مستمراً. لو كنا إذن رفقاء كأس لما احتجنا إلى شيء. ولكن مع الأسف أننا وصلنا لبعضنا متأخرين».

قال كاوة: «كم قريبة مني هذه الأمنية! تأخذني إلى التأمل!». وقرّب يديه من تحت البطانية إلى الصفيحة.

سأل الرجل المهيب: «حلم المتعة الثنائية؟».

قال كاوة «نعم. نفس ما ذكرته؛ أن يأمل شاعر كبير في السن أنّك لو كنتَ قد وصلتَ إليه قبل ذلك لدخلتما في متعة. أتصوركما رجلين صاحبي ذوق بثياب فاخرة يذهبان إلى قضاء أسعد الأوقات، وعندها يجلسان في غرفة يمرّران ما مرّ عليهما ويصلان إلى فهم جديد عنه ويتفاجآن مما توصلا إليه. هو هذا لا غير. كنتُ أعتقد في زمن مضى أني يجب أن أصل إلى توصية. توصية لشخص يريد أن يصل بتغييره إلى سرعة أكبر. ماذا عليه أن يفعل؟ أي أنه يدفع تغيره إلى درجة يخاف معها فقدانه لهويته من شدة الاندفاع. لقد توصلتُ إلى إجابة أعتقد أن لا نظير لها؛ هي رؤية الناس الذين يفاجئونك حين تجلس وتستمع لسيرتهم فتظن أنهم يكذبون وتقول لنفسك هذا أمر لا يمكن تحققه. بالتحديد الجلوس معهم. وحتى لو كنتَ مؤمناً أنهم يبالغون في الكذب فما أن تتفاجأ فسوف تقع على الطريق. التفاجؤ هزّةٌ نعطيها للسيارة لتعمل. بالطبع هذه البداية. التحرك. ولكي تفهمهم عليك أن تقيسهم مع بشر أسطوريين، أو مع أشخاص

الكتب المقدسة إن كنتَ مؤمناً. وأنت حين تفعل ذلك ترى أن لا مكان للتفاجؤ. وهل عاشت شخصيات الأساطير وقصص الكتب المقدسة حياة عادية؟ لا. تقول لنفسكَ أن هذا أيضاً شبيه بذلك. وما العيب في ذلك؟ ليس محالاً؟ وهكذا فالشخص الآخر لن يفاجئُك. لم يعد مبدعاً. بل يكون تحت شخص كليّ آخر، ويعني هذا أنك أيضاً تستطيع أن تكون تحت عباءة الشخص الكليّ. فهمُ هذه النقطة يحدث فيك ميلاً وهاجساً يدفعانك إلى جهة وجود أوسع. هكذا تتغير. وغداً أيضاً ستواجه شخصاً آخر ويفاجئُك وكأنه يكذب عليك. بيد أنك رويداً رويداً ستجد له نظيراً في الأساطير أو الكتب المقدسة. وإثر التشابهات التي تصل لها سوف تتغير. لماذا قلتُ كلّ ذلك؟ ما أردته هو أنك لو كنت حدثتني عن حياتك السريّة فسأكون ممتنّاً. ما ستقوله لي سأبتلعه لأتّحد معك ولأكون تحت عباءة الناس الكليين الذين أنت فيهم. وهكذا وقبل أن أموتَ سأكون قد قطعتُ مسافة طويلة!».

ضحك الرجل المهيب. قال: «لدي الكثير لأخبرك به. أنا متأكد من أنك لم تسمع بمثله».

قال هذا وأبعد نظارته عن عينيه.

تفاجأ كاوة. لم يكن هنالك عينان في الوجه بل مجرد حفرتين: «ليس لديك عينان».

قال الرجل المهيب: «ها أنت ترى بنفسك أن ليس لديّ».

قال كاوة: «ولكنك ترى. أية مدينة عجيبة هذه».

قال الرجل المهيب: «نعم أرى. يلتفُ علينا الآن آخر شعاع شمسي».

قال كاوة: «يُتوقع فقط ممن يرى أن يجرنا إلى الغروب في قارب. لو كنتَ لا ترى لبقي لك فقط صوت الماء والرجفة الكلبية. هل يعلم داوُد؟».

قال الرجل المهيب: «كلّا».

البخار الذي استقرّ على الزجاج حوّل السيارة كما أرادها كاوة إلى: عربة.

جعل نورُ أضواء السيارات الطريق طبقة بخار ذهبي. وكأنّها لطّخت كلها بالعسل. فكر كاوة بكلمة «رويال»، ورأى أن المرسيدس القديمة بهذا الهيكل المتضرر في كل زاوية منه، مع ديكورها الداخلي وكأنه مُذهّب بالأبعاد الثلاثة مُدخلاً الشقيقين في إطار يأخذهما إلى المسلخ. حتى السائق لعب دور الدجاجة. حيث في اللوحات المذهّبة وبالتحديد الوردة والدجاجة المذّهبة تجلس الدجاجة على طرف الغصن مغلقة جفنيها. كأنّها ترى حلماً هو الورود المتساقطة عليها وقد غفت. وكأنّه برؤية مثل هذه الوردة عليه أن يغلق عينيه مثلما تفعل الوردة حين تغلق مائة ورقة لتغفو.

كانت السيارة تسير ببطء، ومن الزجاجة الأمامية التي بقيت وحدها دون بخار والسائق الذي يمسحها بصورة مستمرة بقطعة قماش، كانا ينظران إلى صفحات بيض، ولو أنهما كانا لا يعلمان أنه

الشتاء وأن هذا هو بياض الثلج، لأخذا البياض على معنى آخر مثل ملح أو قماش أبيض فُرش على طول الطريق. كان السائق كلما مسح الزجاجة الأمامية وضع قماشته أمام فتحة التدفئة حتى يلوّحها الهواء الدافئ فتجفّ، وهذا ما جعل الهواء رطباً في الداخل.

يتناهى من داخل لوحة العدادات صوت نباح كلب. التفت كاوة ونظر بتعجّب لداوُد وسأله في حركة من حاجبه عن معنى هذا الصوت. لوى داوُد شفتيه وهزّ كتفه. حاول الاستماع مرة أخرى ولكن الصوت لم يتكرر.

قال كاوة: «سأخبرك بشيء تتعجب منه».

قال داوُد: «إنه بالتأكيد يخصّ الرجل المهيب».

هزّ كاوة رأسه ولكنه لم يضف شيئاً. ابتسم ابتسامة كبيرةً ونظر للصفحات البيض في الخارج.

لم يسأله داوُد. انتظره حتى يكمل هو بنفسه. اهتزاز السيارة وزنبركاتها الناعمة وتفاعلات كاوة وانتظاره كلها توقع أثرها في القلب. ألم يكن القصد من ركوب العربة نفس هذه السرعة الهادئة والسير بترنح؟

ضمّ كاوة شفتيه ووزنَ ما سيقوله وقال: «هو نفسُه».

قال داوُد «من؟».

قال كاوة: «نفس الشخص الذي تحدث عنه الطبيب. الشخص الذي أجبره على ترك طب العيون جانباً».

عدّل داوُد من جلسته وحدّق في وجه كاوة وفي لحيته التي باتت كل شعرة منها في جهة. قال: «لذلك يضع نظارة شمسية دائما؟».

حرّر كاوة رقبته حتى يهتزّ مع حركة السيارة للأعلى والأسفل. إشارة إلى قولة نعم لهذا الأمر.

أرجع داوُد ظهره مرة أخرى ونظر للخارج. رسم خطّاً على زجاج النافذة: «رجل عديم الرجولة! لماذا لم يخبرني أنا وأخبركَ أنت فقط؟».

ضمّ كاوة شفتيه: «هل تحسّدني؟». قفل اصبعيه وقال: «أرى أن أنادمه أكثر. أريد حلبَهُ جيداً. كأنّ هذا الإنسان ابتلع الدنيا. كنتَ غافلاً عنه لأنك مهتم بالمسرح. وعليك ذلك. لا تظن أني أوبّخك. من الجيد أني أخوك وأني استطعت سرقة الكلام منه. تحتاج مثل هذه الشخصيات إلى إظهار التفاجؤ حين يتحدثون عن أي موضوع. مازلتَ أنت بارد المزاج ولا تقوم بمثل هذا، وإلا لأخبَركَ بموضوع عينيه. اليوم حين صمتَ كلانا ووصل كلامنا إلى نهايته قال افتح باباً للحديث. هذا الإنسان سلطان. يتداعى ذهنه مع أي حديث. ينتقل من كلامك إلى ذكرى أو حديث ويفتحه لك. قلتُ مادام الوضع هكذا فلأخبره أني لم أرَ القلعة حتى الأمس، وأني قبل ليلة أخبرني أحدهم في مقهى عن القلعة فصرّحت بعدم معرفتي وضحك الجلاّس عليّ. لكني ما أن قلتُ هذا قال لا عجب في ذلك. قلتُ له لماذا. قال لأني أنا أيضاً لم أرها، وكنتُ لفترة مع امرأة وبعد فترة من نهاية علاقتنا نامت فجلستُ أمام النافذة أدخّن وكانت تكرر

في نومها القلعة القلعة. سألتها صباحاً عما رأته في حلمها قالت لا أذكر. قلتُ لها كنتِ تكررين القلعة القلعة. تعجّبَت واصطحبتني إلى القلعة لتريني إياها».

عاود النباح الخروج من عدّاد السيارة. انحنى كاوة هذه المرة، ومثل من كان خائفاً قال للسائق: «هل تخفي كلباً هنا؟».

قال السائق الذي خيّط عينيه بالطريق وألصق صدره على المقود: «كلا!».

قال كاوة: «إذن من أين يأتي هذا النباح؟ لقد أخافني».

التفت السائق ونظر إلى كاوة. قال: «بوق السيارة معطل ويصدر صوتاً شبيهاً بالنباح. يجب أن لا أستخدمه. ولكن لا إرادياً تتجه يدي صوبه. حينها يبدأ الكلب بالنباح». وضحك عالياً بصوت مخدوش.

نظر كاوة إلى داوُد وفجأة قرّب ذراعه ولكمَ بقبضته وجه داوُد. أمسك داوُد فمه بيديه وانحنى على ركبتيه. قال بصوت يغطيه الألم: «هل جُننت؟ اغرب عن وجهي».

قال كاوة: «لكمتُك لكي لا تتخيل في وقت ما أني أنتَ أو أنت أنا. أو أنك أبي أو أنا ابنك. هل ترى؟ مازلتُ أفكّر مثل الحمقى الذين يظنون حقاً أن نباح كلب يتناهى من عداد سيارة».

نظر داوُد إلى يديه ليرى إن كان ينزف. ثم قال: «هذا أنت الأحمق. هل ظننتَ حقاً أنّ ذلك الصوت نباح. لماذا أتحمل اللكم يا أبله؟».

ألقى السائق نظرة على الجالسين في المقعد الخلفي. كان رأسه صغيراً ونحيفاً إلى درجة أنّ شريانين ظهرا من رقبته وبينهما حفرة. تمنح نحافته هذه للراكب معه، فكرة أنّ هذا السائق رشيق ولن يغفو.

قال كاوة: «في النهاية يجب أن تتألم حتى تتذكر. لن يكون عداد السيارة أبداً مكاناً للكلب، ولو افترضنا أنهم حشروا كلباً فيه فهو لن ينبح بهذه الصورة. ولو تقرر أن ينبح لكان نباحه بصورة دائمية».

مازال داوُد يمسح شفتيه حتى يحدد حجم تورمهما. كأنّه كان يمسح بمقدمة إصبعه الأوسط اللون الاحمر من شفتيه.

ضحك كاوة عالياً ثم خفّت ضحكته. قال: «هل يعني هذا أنه خدعني؟ هل كذب عليّ؟ هل اختلق ذكرى. صحيح؟».

قال داوُد: «لا تتحدث معي!».

قال كاوة «يا إلهي. لا تحرمني من صحبتك». رفع ذراعه وألقاها على رقبة داوُد وسحبه إليه: «لا تزعل يا بابا. أردت فعل أمرٍ لكي لا تقع في الفخّ الذي وقعتُ فيه».

صرخ داوُد: «أي فخّ هذا يا رجل؟ لقد حطّمت أنفي».

قبّل كاوة خدّ داوُد وقال: «سامحني. فخّ هذه اللغة التي توحّد كل شيء ولا تدعكَ تدخل في مواجهة بقلب فارغ. ما أن تريد الدخول في عداوة مع شخص أو شيء حتى يظهر حفنة شعراء جبناء ينشدون الشعر ويساوونك مع عدوك. ماذا يعني هذا؟ يعني تعفن كل عدو وكل حرب. أريد أن أكون عدواً. أريد أن أحارب وأسفك الدماء.

صحيح؟ افهمني يا داوُد. لا تدخل في نوبة تمثيل». نظر إلى أنف داوُد وأضاءت شاحنة عابرة وجهه: «لقد تورّم جداً! ولكن هل تعرف. لو كنتُ شاعراً لقلتُ شعراً أساسياً في وصف دراغانوف الرجل المهيب. لا تتظاهر بالغضب. كان علقة صديقة ويجب أن تأكلها. افتح عقدة حاجبيك. نحن نسير إلى مقتلة الأبقار».

قال داوُد: «قسما بالله لو لم يكن الجو بارداً لترجلت هنا يا كاوة. أنت تكرهني. لا أعرف سبب رمي كل ما تحمله من كراهية على رأسي».

ضغط كاوة على داوُد أكثر وقال: «ألا يدخل الكلام في رأسك هذا يا فتى؟ أردت أن اعطيك درساً. وأنت المسرحي الذي عليك أن تتماشى مع كل مجنون. ولكنك لا تتماشى معي أنا الإنسان الذكي. بالتأكيد لن تفعل. لا يمكنك. لأنه مازالت في مخك تركيبة من الوساعة باقية. علي أن ألكمه بضع لكمات حتى أهزّها».

صرخ داوُد: «أتتوقع أن أصدق كل ما تقوله؟».

ابتعد كاوة عن داوُد وسحب نفسه إلى النافذة ومسح بكفه البخار ونظر للخارج. الجبال كانت واطئة وقد اكتست بياضاً من الثلج، ولشدة وطأتها فقد كانت تظهر قريبة من الطريق، وبهذا الاقتراب الوهمي فهي تبدو مخيفة، ولو أنك دققت النظر إليها وأدركت بُعدها لعادت إلى الحالة الطبيعية. بقي فترة يحدق في هذا الوهم واللاوهم عندها عاد واقترب وقال: «انظر.. لدي زاوية رؤية وأنت لديك زاوية رؤية أخرى. أصحيح ما أقوله؟».

ألصق داوُد يده بزجاجة النافذة الباردة ثم وضعها على ورم أنفه. لم يجبه.

أكمل كاوة: «العبور من زاوية رؤيتك إلى زاوية رؤيتي هي حالة طبيعية لكنه أمر محال. وعلى ذلك فإن التفاهم الواقعي بيني وبينك أو مع أي شخص آخر غير ممكن. أمر حزين. أليس كذلك؟».

كان داوُد منشغلاً بنفسه. يكرر وضع إصبعه البارد على الورم ويأخذ الأنفاس من ثقبي أنفه ويرفع حاجبيه.

قال كاوة: «لا تكن حساساً إلى هذا الحد. يكفي. أنا أتكلم معك. لا يوجد إلا حلّ واحد لكسر هذا السد الذي يفصلني عنكَ، وحبذا لو أخبرتني ما هو؟».

رمى داوُد يديه للأسفل وقال: «أنت أكبر من أن تحرك نفسك. الحل الوحيد هو أن أصبح حماراً. لأنك مُسخت حماراً».

قال كاوة: «لا تحوّل الموضوع إلى أمر شخصي يا رفيق! نحن نتحدث بشكل كلي. أقول لك. الحل الوحيد هو الحب. الحب مثل النار الذي لو كانت زاوية رؤيتك من فولاذ لأذابها. حينها يمكنك الاقتراب مني لترى كيف أرى الأمور. هذا وليس أكثر. لا أريدك أن تصبح مثلي. أنا أعارض ذلك. أحبُّ أن نكون دائماً متضادين ونبقى معاً. ولكن خطأك يكمن في أنك لا تحبني. هل أنت عاشق في الأساس؟».

تذكّر داوُد بهار وبدأ قلبه بالخفقان. لم يتوقع أن يختتم كاوة حديثه فجأة بما يذكر ببهار. نعم، هو عاشق ويودّ كثيرا أن يعرف

كيف ترى بهار الوضع. خاصة بعد الحلم الدموي الذي رآه بعد أن التقى الرجل المهيب.

قال كاوة: «هل ترى كيف بتنا غارقين في الوحل؟ من جانبٍ لكمتُكَ لتعرف أنك أنت ولا أحد آخر. ومن جانب آخر وصيتي إذا لم تبتلّ بالعشق فلن تخرج من حصار قصر النظر. هيهات!». ثم فجأة أمسك رأسه وقال: «آه. نسيتُ. لدي روكسانا».

كانت تذكّره بروكسانا ضربة. عبروا من منطقة (مرند) وبات الطريق موحشاً ولم يعد النور يدخل إلى السيارة إلا بين فواصل طويلة، والعتمة غطت الوجوه الثلاث. أنزل السائق زجاجة النافذة مصدرة صوتاً وأشعل سيجارة. الدخان كأنه كان يجره من الخارج بصورة أفقية. جلس الشقيقان صامتينِ في مكانيهما يهتزان مع اهتزاز السيارة.

أمسك داوُد في الظلام يد كاوة: «أنا أحبك يا كاوة ولكنك تنسى».

الهواء البارد كأنّه يجمد الرائحة ثم يكسرها ويحوّلها إلى شظايا زجاجية في نهر (أرس)، بينما أرس يأخذ الرائحة. لم تكن في الجو رائحة جسد وفضلات بقر معلقة. من الخارج كان البناء حيث جدرانه، وعبر نور مائل، صاعداً للأعلى محبوساً في الأرض، كان مضيئاً كله ولا يمكن اكتشاف أنه مسلخ. ولكن عبر مراوح كبيرة تسحب بخاراً أبيض للخارج يلمع بمصابيح زئبقية، كان البخار يصدر صوتاً جهيراً. وكان عبر نبض ثقيل، يصل إلى السهل المظلم مغطياً الجانب الآخر من الحدود واصلاً إلى جبال (نخجوان) ويتوزع ثم يتلاشى. مع رؤية كاوة لمراوح السحب الكبيرة انفعل. قال: «هذا جنون. رغم أنه يصدر من المسلخ ولكنه يرقص للأعلى».

رفع داوُد ياقة معطفه وحشر يديه في جيبه. وفي الواقع فإنه كان يلوذ بحماية معطفه. وهو إضافة إلى يومه الحافل، ازداد تعذيبه من هذا المكان الغريب الذي لا يعرف أنه بعيد بمسافة كيلومتر من ذلك الجانب من الماء، دون عناية بالظلام أو حاجة للنور.

رفع السائق غطاء المحرك تاركاً المحرك يعمل. قال: «الطريق من هنا. تفضّلا».

أمسك كاوة بذراع داوُد: «يجب أن تذهب أنت أولا. أنا هامشك. تقدم».

سار داوُد بطمأنينة إلى بوابة البناية. كان يحدث نفسه لماذا لا يُسمع خوار الأبقار. أليس هذا مسلخاً. ها هما يدخلان من الباب الرئيس إلى الطابق العلوي. كان المسلخ يتكون من طابقين. اجتازا بابين ووقفا عند بداية الباب الثالث. قال السائق: «يجب أن ترتديا الثياب والأحذية الخاصة». وأشار إلى خزانة الثياب.

تحرك كاوة. فتح الخزانة وأخرج زيّ العمال وهو عبارة عن (يونيفورم)، قطعة واحدة تُسدّ عبر سحّاب طويل. قال لداوُد الذي كان يأخذ أنفاساً سريعة: «لماذا تنظر إليّ؟». نزع حذاءه وجلس مدخلاً رجليه في حذاء العمل. وارتدى داوُد الزي والحذاء المخصصين ثم نهض.

قال كاوة للسائق: «ألن تأتي؟».

كان السائق الذي اتكأ على الجدار وعقد يديه على صدره يمعن النظر إليهما، رفع حاجبيه وقال: «لا! قال السيد أن لا يرافقكما أحد. ستشعران هكذا براحة أكثر».

نظر داوُد إلى كاوة سائلاً عما سيفعلانه. لم يعره كاوة أية أهمية. تناهى صوت خوار بعيد. عقد كاوة حاجبيه وأخذ يسمع. ثم شمّ رائحة مادة معقمة وقال: «حسناً. سندخل من هذا الباب؟».

قال السائق: «يقع خلف هذا الباب ممر. اعبراه لتصلا إلى باب آخر. يبدأ المسلخ من هناك. وهناك طابق أرضي نطلق عليه الحمام. البخار الذي رأيتماه يصدر من هذا الحمام».

رفع كاوة يده وسار مصدراً صريراً بحذائه الجديد. توقف. وضع يده على أكرة الباب وأراد فتحه حين باغته صوت داوُد: «لا».

التفت كاوة إليه مستغرباً.

قال داوُد: «أنا متراجع. لنعُد».

التفت كاوة متسائلاً: «قطعنا كل هذا الطريق!».

قال داوُد: «لتفترض أنا جلسنا في غرفة نتبادل الحديث. دع الأمر عنك».

ترك كاوة أكرة الباب. أخذ نفساً عميقاً وضيق عينيه ثم نظر إلى أخيه بحلته الجديدة. قال: «لماذا؟».

قال داوُد: «الحقيقة، أنا على أعتاب حبّ. رؤية هذا المسلخ يدمر نفسيتي. لا أريد».

قال كاوة: «حبّ؟». أطرق برأسه وقال: «على الأقل دعني أرى المكان».

قال داوُد: «لا. أنا أعيش معك. لا أريد أن يمتلئ عقلك بصور القتل. أريد أن تبقى كما أنت حتى أستطيع أنه لو أردت ممارسة الحب، أو كما يُطلق عليها فنون الحب، أني سأكون في حاجة إليك، يمكنني إذّاك القدوم إليك. وإنك لو غبتَ فلن أستطيع فعل ذلك.

أنت تعرفني جيداً».

قال كاوة: «هذا أيضاً نوع من الجنون. الإنسان المجنون سينفعك أكثر يا عاشق!».

قال داوُد: «ليس هذا بجنون، ولو كان الاختيار بيدي فليس في هذا ما يدفعني للحديث معك. هذا وحشي جداً. لا أتحمله».

قال كاوة: «من الجيد جداً أنك بتَّ دقيقاً حين قلتَ أنك على عتبة الحب، ولو حدث ووقعتَ فأنت إما أنك لن ترى هذا المسلخ، أو أنك إذا رأيته لرأيتَ السعادة. حتى وإن كنتُ بعيداً عن توحيد كل شيء مع أي شيء. لقد كنتُ أقول ذلك طوال الطريق، وقد لكمتك لتُفهِمك اللكمة هذا، ولكنك كنتَ تفكر في حالة حب، أنّ هذه الأبقار تفقد رؤوسها في طريق الحب. أليس كذلك؟».

قال داوُد: «لقد عبّرتَ جيداً. أنا على أعتابه. وأنا لا أعرف إن كنت سأتلوث به أم لا. لذلك يرتجف قلبي وترتعش يداي. لستُ مثلك في حال اطمئنان. تعال يا كاوة لنعبر هذا الحدث. رؤية كل هذه الأبقار على الحدود المظلمة ثقيلة عليّ».

ضحك كاوة بيأس وقال للسائق: «كأنّا كنا مديونين لأنفسنا، قطعنا كل هذا الطريق في هذا الليل. هل توصِلنا معك؟».

قال السائق: «بالطبع. لم أطفئ محرك السيارة. الجو هنا بارد إلى حدّ يصعب فيه تشغيل محركات السيارات القديمة».

في هذه الأثناء فُتح الباب وظهر رجل يرتدي حذاء ذا ساق

طويلة وعبر من بينهما دون أيتما حركة. كان يضع حزمة من ذيول الأبقار على كتفه. كانت رؤوس الذيول للأسفل، ومع كل خطوة كانت تتحرك إلى جانب.

نزع كاوة ثيابه وكذا فعل داوُد أيضاً.

تناهى خوار بقرة من بعيد.

همس كاوة لنفسه: «عاشق».

كان يحدث في السابق أن يحتل الضباب أزقة وشوارع المدينة، وكان على الجو أن يدفأ، ولأنّ السحب كانت تقف أمام الشمس حتى وأن احتلت الشمس كبد السماء، فإنه لم يدفأ، الضباب لا يرحل. قد يهرب الضباب عند أطراف صفيحة أشعلها بائع سجائر عند تقاطع الشارع، ولكن حين تبتعد عن الصفيحة تتحول الوجوه مثل وجوه مرتديات النقاب؛ تراها من خلف نقبٍ ليست بسودٍ تماماً، ولذلك لا ترى تجعدات وجوه كبار السن من الرجال ولا لغود النساء. يساعد هذا على عودة الشباب والجمال للناس. كان الغد مثل هذا اليوم حين اتجه داوُد إلى مقهى ماريا، شعرَ أنه لم يبتعد عن نهر (آراس)، ولعب في خياله بالنهار والمدينة. كان نهر آراس يبدو وكأنه انفصل عن مكانه ويريد منذ اليوم أن يلعب في (تبريز) هو وأشجار الزيتون الروسي المحيطة به. هذا الضباب الصاعد من النهر والمخيلة وحلم القاسم المشترك لأهل المدينة، بدا وكأنه يمنحهم السعادة مع النهر الذي انضم لعمق قلب داوُد، والذي بدأ البارحة بالجريان مع ذلك الحبّ الذي يعدو صوب بهار.

تلك الفتاة التي ظهرت فجأة بمجلة عنابية. تسير الآن مسرعة دون هوادة، كان يفكّر لو أنه وجد كشك هاتف من ذلك النوع القديم، لونه أصفر وبابه قابلة للطيّ، لأخذ قطعة نقود معدنية ثم دخل واتصل. ولكن أشكال الهواتف الجديدة الشبيهة بالمقصلة الحديثة تبدو كأنها قبعة يحشر الإنسان رأسه فيها ضاغطاً على الأرقام. لذلك السبب البسيط فإن جسده من كتفه إلى ما تحت يبقى في الخارج، ومن رأسه وما فوق في داخل الكشك. يجب على الأكشاك التي تتصل منها على معشوقك أن تُصنع قصيّة حتى لا يُرى العاشق. مهما كان الجو ضبابياً فلا يرى الناس بعضهم بوضوح، وكل جسد يتحدث مع معشوقه. الإنسان مخفي حتى الساق ووسط الجسد عن أنظار الناس. كانت الأكشاك القديمة تساعد على الهمس. وإنك لو دخلتها وسحبت خلفك الباب الذي يطوى، فلن تكون هناك حاجة لتلف يدك على حاكية الهاتف وتهمس. نفس هذا الكشك وبطريقة معماريته الحديدية وزجاجه هو مصنوع للهمس، كأنه يقول لك تحدث على رسلك.

قبل أن يصل داوُد إلى المقهى، وفقاً للضباب، يمكن زيارة المقهى لرؤية ماريا. لأن ماريا كانت جالسة البارحة أمام قبة ليرسمها. باب المقهى مشرع والضباب يدخل ويلتف داخل المقهى المعتم. لا أحد غير ماريا، واضعة جهاز تسجيل صغير بيدها أمام فمها وهي تسير في المقهى وكأنها تتحدث مع نفسها. وهذه عادة ماريا كلما كانت وحيدة وخائفة في البيت أم في المقهى، ليس من فارق مع الوقت. فتحت عينيها على اتساعهما وكانت تتحدث بلحن

مصاصي الدماء: «أخاف أنها اختبأت خلف هذه الستارة. لأرى». أبعدت الستارة فرأت نفسها في الزجاج. تطلّ النافذة على باحة تتوسطها شجرة توت باسقة. تدقق في وجهها. تكشر عن أسنانها وتصرخ: «لا. ليس هنا. يجب أن تكون في الحمام، لأرى. أخاف أنها نصبت كميناً وقد تمشط شعرها الطويل». تفتح باب الحمام المظلم وتمدّ يدها وتفتح المصباح: «ليست هنا أيضاً. أيتها الروح الملعونة! في أية زاوية اختبأتِ؟ أعرف أنك في مكان ما في هذا المقهى وتريدين جرّ مخالبك. بالتأكيد أنك جبانة. لو لم تكوني جبانة لأظهرتِ نفسك ولمزقتُ بطنك بالسكين. عرفتُ. لقد دخلتِ في الخزانة. ها؟ لا يعجبني ذلك. سوف تلصق بثيابي رائحتُكِ العفنة. اخرجي بسرعة، وإلا سوف أعطيك حقك. إن تحذيري لجادّ. لن تستطيعي بحيلك البلهاء خداعي. لا يعجبني حين أنشغل بالزبائن أن تتسكعي أنتِ هنا وتضحكي عليّ. لا. هذا المكان ليس مكانك». فتحت الخزانة: «هل تشمّين رائحة العطر الفائحة من ملابسي؟ بالتأكيد أنك تحسدينني لتدخلي في معركة كهذه معي. نعم. صدق ظنك. أنا لا أضع العطر دونما سبب. بالتأكيد أني أقمتُ حفلاً هنا وقبلتُ الرجال ليحبوني. ما الذي تخيلته؟ كل من لديه ذرة ضمير سيعترف أنّ وجهي شبيه بوجه الثعلب. ألم تري نساء شبيهات بالثعالب؟ أجمل نساء مجلات الأزياء ونجمات السينما وجوههن ثعلبية. عيون إلى الأعلى وخدود ممتلئة وأنوف دقيقة. يكفي أن تلقي المرأة الثعلبة نظرة على الرجل لتصيبه بالحمّى. إنّ الحب يبدأ بهذه السهولة؛ بنظرة. ولكنّ النساء الخبيثات مثلك مجبرات على أن يقعن في الذلة ويستخدمن ألف

طريقة ليحصلن فيها على حب مختصر من الرجال المتعبين. ومثلك بهذه المخالب الوسخة..».

ذهب داوُد إلى المقهى من أجل أمرَين؛ ليرى ماريا، وليسألها عما حدث بينها وبين قبة، وليرى أيضاً الرجل المهيب كي يرفض اقتراحه. لكنه مازال يفكر في الجدار العازل بين الصالة الرياضية والدراغانوف، وإمعاناً في تخيّله تمرّ التخيلات مثل تيار هوائي دافئ على ذهنه، كانت لارا وتلك الغرفة حيث تابوت جيفاغو مسجى على طاولة الكتابة. لم ير في الطريق مثل ذلك الكشك. وصل إلى بداية الزقاق ودخله.

آخر حلم له رآه واضحاً، وتذكره قائلاً لنفسه: «هل يعني هذا أن أشرب الآن ثلاثة فناجين من الدم؟».

فتح الباب ودخل. جلست ماريا خلف الطاولة، وما أن دخل حدّقت فيه: «أنت؟».

قال داوُد: «سلام». واقترب من المدفأة ثم وقف إلى جانبها رافعاً يديه: «ما الذي حدث البارحة؟».

مسحت ماريا يديها وقالت: «لم يحدث أمر مهم. الجو في الخارج بارد جداً. صحيح؟».

قال داوُد: «بارد وضبابي. حتى أن أذنيّ تجمدتا».

قالت ماريا: «لماذا لا تلبس قبعة؟».

أنزل داوُد سحّاب معطفه: «قبعة؟ مع كل هذا الشعر الذي

لدي وقبّعة؟ إذا لم يقف هذا الشعر أمام البرد فما الذي ستفعله القبعة؟ أخبريني ما الذي حدث البارحة؟ أنا متشوق لأن أسمع».

مسحت ماريا بكفها على الطاولة وكأنها تتذكر بيت قبة الذي يشبه نرد لعبة الطاولة، قالت: «كنتُ حتى الصباح هناك. يعني هذا ما حدث. لديه صديق حارس يسكنُ في الكنيسة. بعد أن رحلتُ اتصل هو وقال بحماس هذه الليلة هي من تلك الليالي التي تختفي فيها الكنيسة. سأله الأستاذ ضاحكاً هل أنت مطمئن؟ قال الرجل أعتقد أنّ هذا ما حدث. لذلك نهض الأستاذ قبة زرّين وارتدى وشاحه وقبعته وطلب مني أن أرافقه».

فُتح الباب ودخل الرجل المهيب. قال بصوت عال: «آه! أنت هنا أيضاً. سلام. آه. أية حرقة في الهواء».

قفل الباب وسحب مصراعي المقهى وفرك يديه ببعضهما. ثم زمّ شفتيه ومدّ يديه، اقترب وسلم على داوُد.

قال داوُد: «لم أعد معك. لا أستطيع قبول مقترحك. لا يناسب الأمر نفسيتي».

أشار الرجل المهيب لماريا وقال بكل هدوء: «كيف حالكِ؟».

ضحكت ماريا وهزّت رأسها.

ألصق الرجل المهيب كتفه بكتف داوُد وأخذ يتدفأ. قال: «لا تأتِ على ذكر الأمر. كان أمراً هامشياً خطر لي فطرحته عليك وانتهى. ستبقى صداقتنا قائمة. لقد وجدتُ أخاك للتو. إنه رجل لا

مثيل له. من أولئك الرجال الذين إذا خرجت منه جملة «أعتقد أنّ..» فهي تجوز له. مثل هذه الشخصيات، ولأنّ زمامهم بيد تفكيرهم، يجددون الذكريات».

قال داوُد: «إذن هذا كل ما في الأمر، لم تجدني أستحق سماع سرك. جئتُكَ لأسألك عما قلته لأخي. أنا من الطبيعي لستُ ممن يقدم كلامه بعبارات تبدأ بـ (أعتقد). بل يجب إضافة (أتخيل)».

قال الرجل المهيب: «برافو»، والتفت إلى ماريا: «هل ستقدمين طعاماً لنا يا ماريا؟».

بدت ماريا بملامحها الفرحة، وكأنها مشتعلة من صحوة حلم البارحة، كان تضع حنكها على يديها مستندة للطاولة، انفصلت عن الطاولة وذهبت للمطبخ وهي تمشي بتغنّج.

أرجع الرجل المهيب نظارته للخلف وقال: «أحببتُ كثيراً أن أضع هذا السر بين يديك يا صديقي. ولكن كان شعوري دائماً أنك هارب مني. لذلك لم أودّ أن أثقل عليك. في الحقيقة أنت من وجدني غير لائق لكي يشتري لك معطفاً».

قال داوُد: «لا. ليس الأمر هكذا. عدنا البارحة من مسلخك تحت إصراري أنا. الحقيقة أني لا أريد أن أدخل معك في أي عمل جاد. أنت إنسان غريب ومخيف وتزيد من إعجابي بك. بالنسبة لي أنت في حكم الشخصيات التي أراها في المسرح. أحبّ أن أكون مشاهداً لك وأن أسمع لا غير. ولكن لو أردتَ أن أرافقك في عمل جاد، ولشراء معطف بمالك، فلا أستطيع فعل ذلك. لا أعرف

السبب. قد يقوم بهذا الأمر أخي كاوة. ولكنه لا يصدر مني. هو أكثر مما بمقدوري تحمله. والآن أودّ أن تحدثني كيف بات بصرك. أيكون الأمر عليك صعباً لو حدثتني عن بصرك؟».

ابتعد الرجل المهيب عن المدفأة وذهب خلف الطاولة ليغسل يديه في مغسلة هناك. ثم سحب بكل هدوء منديلاً ومسح يديه ببطء. حينها استدار حول الطاولة وسار بخطوات محسوبة، وكأنّ داوُد غير موجود، مقترباً من النافذة، ثم جلس خلف طاولة. قال: «من الجيد أني أقفلتُ الباب وأغلقت مصراعي المقهى». أخذ نفساً عميقاً: «من ترى عاش حياته مثلي؟ لا أحد». ثم انتبه إلى حضور داوُد وقال: «لماذا لا تجلس. في الوقت الحالي لا أحد هنا غيرنا نحن الثلاثة. أنا وماريا وأنت. أريدك أن تعرف قيمة هذه الدقائق. الحادثة التي أريد روايتها لك ترجع إلى خمس سنوات مضت».

سحب داوُد كرسياً ووضعه أمام المدفأة وجلس واضعاً ساقاً على ساق. قال: « كُلّي آذان صاغية».

قال الرجل المهيب: «لقد فقدت عينيّ في الحرب. وتمّت إزالة كلتيهما. وفي الفترة التي كنتُ فيها في المشفى جاءني صديقي هو مستشار في وزارة الخارجية وقال لي إنه عازم على السفر إلى بيلاروسيا. كان في مهمة لطرح مقدمات لمفاوضات سياسية. طلب مني مرافقته. كنتُ في حالة بائسة لا أستطيع معها رؤية المشاهد والوجوه مما دمّر نفسيتي. كنت أعرف أنه أراد تقديم معروف لي. انحنى وهمس في أذني: «سقطت منك حاسة، ومازالت تعمل بقية

حواسك. إذن يمكنك العيش بقية حياتك بما تملك». على أية حال استلم جواز السفر وخرجنا من المشفى مباشرة إلى المطار ثم حلقنا. حين هبطنا في مطار بيلاروسيا أجلسني في جناح ما على كرسي وقال لي سأعود بعد ربع ساعة. جلستُ وحيداً وعرفت عن طريق الأصوات حولي أنّ المطار ليس مزدحماً، كان يمر من أمامي بين لحظة وأخرى عمال نظافة أو موظف ما. مرت بضع دقائق على هذا الوضع وفجأة سمعت صرير فتح الأبواب ثم أصوات ضحكات فتيات عمّت الأرجاء. أعتقد أنه كانت قد انقضت خمسة أو ستة أعوام لم أسمع فيها ضحكة أنثوية. لأنّي كنتُ في الحرب. ولكنه لم يكن مجرد صوت ضحكة. كان فوج فرح وشهوة من الضحك، ومن بين صوت دبيب أرجلهن عرفتُ أنهن يرتدين أحذية طويلة السيقان، وهذا ما كان يوقعني في اضطراب. كأنّ عاصفة آنذاك قد عصفت وساءت الأوضاع وهطل مطر مجنون. سمعتُ مثل هذا. جاءت تلك الضجة ومرت بجانبي مثل ريح ووقفت في ذلك الجانب. هنا سمعتُ عطر أجسادهن ولم أستوعب كيف أدركت أنهن فتيات أزهرن للتوّ. في هذه الأثناء وصل صديقي وقال بصراحة صاعقة مع الأسف أنك فاقد للبصر ولا ترى ما يحدث هنا. كأنّ قطيع ملائكة نزل حينها من السماء. سألته من يكنّ أولئك؟ ومن أين ظهرن؟ قال هنّ مملوكات. مملوكات يُنتخبن من كل بيلاروسيا ويُنقلن إلى ألمانيا. مديرتهن سيدة في الأربعين وهي مسؤولة مراسيم اختيار الفتاة البيلاروسية الأجمل. هي تأخذ الآلاف من الفتيات إلى الدول الأوربية. يعتبر هذا عملاً. وهي بلُغتنا سمسارة الحب بالجملة. قال وضحك. ثم

أشعل سيجارته ووقف إلى جانبي ولم ينبس ببنت شفة. واضح أنه كان يتطلّع إلى الفتيات. كنتُ أسمع أنفاسه التي كان أحياناً يبتلعها. بعد الفوج الضاحك تحركن من مكانهن ومررن من أمامي مرة أخرى، كان واضحاً من خطواتهن أنها خطوات خائفة. تعذّبتُ لأني لم أستطع رؤيتهن. تضرعتُ. لا أعلم لمن ولكني بدأتُ بالتضرع لحالتي التي يرثى لها لأنني سأبقى بقية عمري دون عينين، ولأنني لا يمكنني رؤية ما يمرّ أمامي ولو لدقيقة. أذكر جيداً أني بكيتُ واهتزّ كتفاي. أردت الصراخ لكني ابتلعتُ صرختي، كأن شيئاً كان يضغط، ضغطتُه حتى خرج مني. ضغطتُ على مكان العينين ليعملا ما دام هناك وقت لأرمقهن ولو بنظرة. أعتقد أن تضرعي لم يدم إلا لثوان. ما الذي تتخيل أنه قد حدث؟».

رفع داوُد كتفيه: «أعرف ما الذي حدث».

قال الرجل المهيب: «عاد لي البصر ورأيتُ الفتيات المتفتحات. كان جمالهن أسطوريّاً. طويلات القامة إلى حدّ كدتُ أشعر فيه أنهن وقفن معلقات. أراهن مثل سمكات يسبحن خلف الزجاج. ولكي أطمئن إلى أني بمقدوري أن أرى؛ نظرتُ إلى أحذيتهن التي كانت ملتصقة بأرضية المطار. كأنهن قطيع من الإوز وهناك من يحاصرهن ليندفعن إلى جهة ثم يقفن. مرة أخرى جمعتهن المديرة. كنّ ينفعلن من كل أمر يصدر. مازال صديقي يقف إلى جانبي وينفخ دخان سيجارته. ولم أكن في حاجة إلى أن أرفع رأسي لأراه. كنتُ أرى من مؤخرة رأسي. منذ تلك اللحظة عاد بصري. ولكنه بصر من نوع آخر. إذا لم يداخلك العجب عليّ أن أخبرك أنّ النوم بات له معنى

آخر. أرى في النوم ما حولي. مثل مشهد من حلم. وحين أستيقظ يبقى نفس المشهد ولكن بصورة أوضح. كأنه خرج من شفق إلى شمس. الخلاصة أنها كانت رحلة حياة. لو كنتُ مع امرأة ورأتنا عين شخص ثالث لتضاعفت متعة الحب مئات المرات. كأنك في غرفة من بدايتها إلى نهايتها مرايا. وما أن عدِنا، عدنا للحرب مرة اخرى. مليءٌ أنا بفكرة العودة مرة أخرى لأن أكون في إحدى الهجومات وأرى بأم عيني فوق السواتر أثر الرصاص. القذائف والرصاص والمدافع التي تُطلق من خلف سواتر العدو إلى السماء وتهبط مجدداً. كنتُ قناصاً. كنتُ أستهدف مطلق المدفع الرشاش وأصيبه. بيد أني أنقل مركز رؤيتي إلى الجبهة».

وصلت ماريا بصينية وضعتها على الطاولة وقد رُتبت الصحون والملاعق والأكواب. في صحن كل منهما نفس الطلب القديم.

بدأ الرجل المهيب بالأكل.

بقي داوُد صامتاً وبحركات أبطأ من السابق يقرّب الملعقة من فمه ويمضغ اللقمة دون عناية. يمسح أحياناً فمه بمنديل. فجأة خطر بذهنه مشهد الرجل الذي ارتدى الحذاء الطويل ووضع ذيول الأبقار على كتفه. ومع الوصف الذي وصفه الرجل المهيب عن طريقة مشي الفتيات تذكر الذيول المتأرجحة. لماذا؟ فجأة تذكر بهار وصمم على الرحيل فوراً ليسرع في رؤية بهار. بهار الآن حركة قوية في أعماق قلبه، ومهما كانت الأحداث قوية وشديدة في الخارج فليس بمقدورها إيقاف الحركة الخفية فيه. ولكن، وبما أن ماريا وبهار من

نوع واحد، قال لنفسه دون وعي علي أن أسأل ماريا، فيما إذا خلونا لبعضنا، عما حدث مع قبة في الكنيسة. لأنه إذا لم يسألها فسيذهب لرؤية بهار ولن يلتفت قلبه لها ولا يمكنه هكذا أن يحفز الحب في داخله حيث فكرة عودة بهار إلى المنافسة. لذلك أنهى غداءه بسرعة ونهض وقال: «عليّ الذهاب».

قال الرجل المهيب: «سعيد لأنه لم يتبقّ سر بيني وبينك».

لم يودّ داوُد الإشارة إلى الجدار. ضحك واتجه إلى ماريا.

ظنّ الرجل المهيب أنّ داوُد يريد دفع ثمن الطعام قال: «لا تقم بعمل غبي. لا تضع يدك في جيبك».

قال داوُد: «لا. لدي سؤال من ماريا».

قال الرجل المهيب: «ها» وأطرق برأسه.

اتكأ داوُد على الطاولة وانحنى قائلاً لماريا: «لم تخبريني بما حدث في الكنيسة؟».

قالت ماريا: «لا شيء. حين ذهبنا إلى الكنيسة لم تكن في مكانها. بقينا منتظرين حتى الصباح. كان موقفاً مضحكاً. جلس العجوزان ينتظران. يتناوبان على تناول الشاي وكنتُ خجلة، أنهض لأخرج وأتمشى، والحقيقة فقد آلمني البرد. أردتُ العودة إلى البيت ولكني ما أن أهم بالنهوض حتى ينهض قبة ويقول أنا أيضاً سأذهب معكِ لأوصلكِ، ولأني لا أرغب في إزعاجه، أعود جالسة. لا أخاف من المكان المظلم والشوارع الخالية ولكن الأستاذ يخاف من أن يزعجنا

أحد. وفي النهاية بقيتُ حتى الصباح، دخل ذلك الرجل إلى الغرفة وقال لقد عادت الكنيسة عادت الكنيسة. خرجنا ورأينا الكنيسة. لم تشرق الشمس بعد وكأنا لم نرها بسبب الظلام. ولكن حدث أمر آخر فبعد ... أي..». توقفت عن الكلام وعضت شفتيها.

قال داوُد: «ماذا حدث؟».

قالت ماريا: «أخجل من قول ما حدث».

قال داوُد: «تخجلين؟ وما الذي حدث؟».

قالت ماريا: «أضعتُ قطعة من ثيابي. أعتقد أني حينما كنتُ أتمشى في ساحة الكنيسة أضعتها. حين عدتُ للبيت رأيتُ أنها تحركت من مكانها وسقطت».

ضحك داوُد: «وهل يمكن ذلك؟».

أطرقت ماريا برأسها: «أنا أيضاً اندهشت. أردت العودة قبل أن يزدحم المكان لأجدها. ولكني استحييت».

رفع داوُد يده وقال: «لا يهم. ولكن قبة. أعتقد أني فهمتُ لماذا قام بذلك. أي لماذا اصطحبك معه. ليبقَ لما بعد. أنا على عجلة».

قال هذا واتجه إلى الباب: «مع السلامة أيها الرجل المهيب. مازال هناك سرّ لم تحدثني عنه. قد أجرؤ وأستفسر منك عنه».

رفع الرجل المهيب حاجبيه وقال: «ليت شيئاً بقي لأتقاسمه معك».

فتح داوُد قفل الباب وهجم بوجهه على الهواء البارد والضباب.

في الساعة التي خرج فيها من مقهى ماريا، كان كاوة يعبر الزقاق. كان دائماً غارقاً في التفكير حين يمشي، وهو حتى وأن صدمه أحد ما من معارفه، كتفاً بكتف، فلن يفطن. ولكن سيطر عليه هذه المرة شعور أن يلتفت ويلقي نظرة في الزقاق ويرى داوُد يخرج من الدكان ولم يستدر لدخول الشارع. ورغم ذلك، فلم يقف وأكمل طريقه. كان هذا الشعور مسيطراً عليه منذ ليلة البارحة، طوال الطريق، لقد تحدث كثيراً مع داوُد ولا يريد تدمير ما حدث في لقاء جديد. كان دائماً ما يعطي الأشخاص فرصة حتى يهضموا كلامه بعيداً عن معاييره ويشتاقون للقاء جديد يجمعهم به. هو لا يطلب لقاءهم، ولكنه اليوم مستثنى لأنّه ذاهب إلى طبيب العيون. في الأيام العادية حين يكون الرصيف جافّاً وغير مفروش بالثلج الوسخ، يقطع الطريق من المقهى حتى عيادة الطبيب بعشر دقائق. بيد أن الطريق هذا اليوم، وهو يرفع قدمه بحذر، طال عشرين دقيقة، وكان ممتعاً وكأنّه كان يؤدي رقصة على الجليد. خفيفاً وسريعاً ويدور حول نفسه. كأنّ كل هذا السير والتزحلق هو معبر لحفل بعيداً عن

خشونة وملل الحياة. السير بروتين لا يلفت انتباه أحد. أن تكون على أرض ثلجية فهذا يكسر المعتاد وتتحول فيه عادة السير إلى فنّ جمالي.

فكّر كاوة أنّ حياته حتى هذه اللحظة مرت بفرح وسرور، بفرح غير مسؤول. يقبض فقط على يد امرأة ليتزحلقا ويرقصا على شفرات حادّة. ودعونا عن أنّ المرأة المقصودة هي روكسانا وأنها لا تشعر بأنها في حالة مريحة حين تتزحلق.

يقف الآن أمام ملصق القزحية ويتكئ على الجدار ويقف في الممر شبه المظلم ينظر للملصق. قال كيف يمكن لعضو بهذا التعقيد أن يقوم بهذا العمل بكل سهولة: الإبصار. وإذا تقرر أن الإنسان، ومنهم الرجل المهيب، يرى بجبهته وليس بعينيه، فما فائدة هذا التعقيد؟ وما عمل كل هذه الإضافات المختلفة الشبكية والقزحية والعدسة الزجاجية في حالة أنها ليست لها ضرورة الإبصار؟

فُتح الباب في هذه اللحظة وخرج الطبيب: «آه. رأيتُ من النافذة دخول شخص انتظرته لكنه لم يأتني».

ثم رأى كاوة يقف أمام الملصق رافعاً حاجبيه ويحدق فيه: «عجيب. إن هذا هنا». ثم مسح الملصق وقال: «هل تصدّق أني أكتشف هذا الملصق للتو؟ نسيته لأعوام لم أكن أراه فيها».

قال كاوة بصوت يدلّ على تفكيره: «أخبرني لو كان الأمر كما قلتَ لي في أنّ الإنسان يمكنه الإبصار أيضاً دون حاجة للعين، فما فائدة هذا الجهاز الكروي وتعقيداته؟».

اقترب الطبيب من كاوة وقبض على ذراعه. قال: «إنها الغرفة المظلمة لتحميض الأفلام يا عزيزي. الغرفة المظلمة. هذه الكرة المعقدة هي الغرفة المظلمة. الظلام الذي لا تحمله على محمل جد؟ من يرى دون عينين ليس شبيهاً بأصحاب الظلمة».

قال كاوة: «وما فائدة الظلام؟».

قال الطبيب: «ألا تعرف؟».

قال كاوة: «أريد سماعها من طبيب عيون».

رفع الطبيب يده داعياً كاوة للدخول.

دخل كاوة عبر صالة الانتظار ثم دخل العيادة. ملأت رائحة الشاي أجواء الغرفة. حيث يظهر تضاد ذلك في الغرفة مع برودة الخارج بوضوح.

قال الطبيب بصوت عال مفاجئ: «لو لم يكن الظلام موجوداً هل كنتَ ستعرف النجوم التي ملأت السماء؟ إننا مدينون للظلام بمعرفتنا لهذه النجوم. ومثلما يمكن بالعمى رؤية بعض الأشياء، فلا يمكن رؤيتها بالعين العادية. بالرؤية هناك وضوح مدين لظلام هذه الأرض. هذا الوضوح الذي يحيط بالأشياء عندك، هل هي كذلك في الرؤيا؟ في الحقيقة لا. قل لي الآن أين يفرض نفسه عليك هذا الفارق؟».

جلس كاوة ووضع ساقاً على ساق. قال باطمئنان غريب: «في المغازلة يا أستاذ».

كاد الطبيب أن يصرخ: «عقلك شيطان! صحيح. مراقبة الحبيب في الحلم. لم تكن حالتي وأنا أرى النساء في الحلم بمثلها في الصحو. تتدمر أعصابي حين لا تكون المرأة واضحة في أحلامي ودائمة الإبهام. وحتّى وأن كان الشعور أعمق بهنّ. ولكن الرؤية شيء آخر. علاوة على ذلك بات عقلي طبيب عيون. لا أنسى في الحلم أني طبيب عيون. كأنّ حبيباتي في الاحلام مثل حرف (E) الذي تراه هناك. أبذل جهدي لكي أقنع نفسي إن كنت أراه جيداً أم لا، ولأني لا أحدد إلى أي جهة تشير هذه الـ(E) فهذا ما يتلف أعصابي. أعتذر عن حديثي المطول».

سكت الطبيب. وبينما جلس كاوة واضعاً يديه في جيبي بنطاله وينظر إلى الطبيب، بقي الطبيب منتظراً، وهو حين رأى كاوة ساكتاً ابتسم ونهض متجهاً إلى السماور الذي وُضع على طاولة صغيرة. سكب لكاوة شاياً ووضعه أمامه على طاولة عليها فرشة لامعة أظهر صوت احتكاك الكوب أنها أكثر مما هي عليه من لمعان.

مسح كاوة لحيته ونظر للأسفل يفكر. أحضر الطبيب سُكّرية مملؤة ووقف قرب السماور يراقب كاوة. رفع كاوة رأسه. كانت ملامحه تظهر أنه يفكر، وعلى ما يظهر، بما قاله الطبيب. برد الشاي فيما كان الطبيب يقطع الغرفة جيئة وذهاباً ويلقي أحيانا بنظرة على كاوة. بقي كاوة جالساً كما هو وقليلاً ما كان يرمش ناظراً للأرض. تعب الطبيب من المشي وجلس على كرسيه وفتح كتاباً كان يقرؤه. ردة الفعل هذه تدّل على صدق ما قاله، لقد كان في الحرب. ومن

كان في الحرب فلا ريب أنه رأى من الجنون والعته إلى الحدّ الذي لا يتشوش معه فكره من شخص تجمد من رؤية ملصق القزحية.

وأما فكرة كاوة فقد كانت: قبل أن يتزوج روكسانا كان في طهران يرافق فتاة باسم سارة. كانا عاشقين وكانت سارة طالبة في كلية الطب ثم انفصلا، وبعد مرور خمس سنوات قرأ في مقهى خبراً في صحيفة أخبار (همشهري) يشير إلى أنه من المقرر مشاركة الدكتورة الفلانية، سارة نفسها، في برنامج السلامة الإذاعي لتتحدث عن احتياطات يجب أن تقوم بها الأمّ، وستجيب على أسئلة المستمعين. حين قرأ النص كانت الساعة السابعة، وكان الليل قد حلّ والسماء أمطرت. إنه يأخذ الصحيفة معه ويطويها ويضعها في جيبه ثم يخرج من المقهى ليطلب سيارة من صديقه. قبل حلول الساعة التاسعة كان يجلس في السيارة. يقودها إلى منطقة على أطرافها أبراج فوق تلال، أينما نظرت ترى كليات وجامعات مغلقة وموحشة. الشوارع مبتلة والجو ضبابي. يصعد على جسر فوق الخط السريع. يعبر الجسر ويقف تحت شجرة أمام محطة الباص ويطفئ محرك السيارة ويُبقي على المذياع مفتوحاً. يُرى من هنا جدار منخفض وسياج لساحة كلية الفيزياء مع مصابيح تضيء الأشجار والعشب. الشارع خال. تمرّ القليل من السيارات، وكل سيارة تمرّ تخلّف صوتاً أشبه بـ(طش) إثر احتكاك إطاراتها مع المياه وتبتعد. يقدم المذيع ديباجة البرنامج ويطرح القضايا التي تتعلق بوجبات المرأة الحامل ممهّداً الأرضية لدخول الطبيبة. لم تأت الطبيبة بعد ولم تحيّ (المستمعين المحترمين) ولكن يُسمع صوت ضحكات مكتومة من خلل كلام المذيع لا شكّ

أنها صادرة من حنجرة الطبيبة، وإذا ما عدنا للوراء فهي نفس سارة. كانت سارة معتادة أن تخلط الكلام بالضحك. لا تقول ما تشعر به، لكاوة أو لغيره. كانت عصامية جداً، وأحياناً حين تتحدث تخرج كلماتها غير مسموعة فيبدو كاوة مثل كبار السن الفاقدين للسمع، مما يجبره على الانحناء ليسألها: «ها؟». قد يكون هذا سبب انفصالهما. كانت حنجرة سارة بالنسبة إلى كاوة مثل بئر عميقة، هي وإن كان في نهايتها ماء، ولكنها من العمق بحيث لا يصل صوت الماء إلى الأعلى. تكلمي. ماذا لديك. بالتأكيد عليّ وضع يدي مثل مرضى الحب لأجسّ نبض حنجرتكِ، وأذكر اسمي حتى ينبض؟ بالتأكيد عليّ ذكر الزقاق والمنام أو لون العين أو لون الشعر أو اسم عطر ثيابي لكي تخرّ تحت إصبعي؟ لماذا لا تقولين أنتِ؟ لماذا حين تريدين الكلام تتحولين إلى دجاجة تريد أن تبيض؟ هل عليكِ الذهاب إلى مخبأ؟ ما الذي يحدث لك باتضاح لكي لا تستطيعين قول إني أحبّك؟ لماذا كلّما سألتُكِ هل تحبينني أم لا، تمثلين أمامي دور الأبكم وترسمين بالحركات وعبر أصابعك الطويلة «ماذا!». أريد سماع صوتكِ. سماع صوت على عتبة الانفجار. حرري الصوت المسجون في الحنجرة. حرري الضحك والنحيب المحبوسين. إنني ألصق أذني بفمكِ حتى أسمع منكِ ضحكة أو انتحابة. اسكبيها. لماذا لا تسكبينها يا دكتورة سارة. لا وجود لي كي أسمعك. أربع نساء حوامل جلسن للاستماع للبرنامج. وهنّ إن كنّ بقربك لقرّبن المايكروفون من فمك، ولكن لنرَ هل تستطيعين الحديث دون ابتلاع الكلمات الأخيرة من عباراتك التي لا يجبر الإنسان على التكهن بها وكيف ستنهينها؟ هل

تخنقكِ آخر عباراتكِ ولا تتركِكِ؟ مازال المذيع يتكلم. ليس مهماً ما يقوله. ما هو إلا صوت لـ(مدخل لصوت). يُرى البرج من هنا وقد أحاط قمته الضباب. يمرّ الضوء من خلل الضباب بصورة مهندَسة. أنوار حمر وصفر وبيض. يضيء بعضها وينطفئ مثل رقصة. تُبثُّ الموسيقى. يدخل المذيع ويقدم الدكتورة. عضوة في الهيئة التدريسية وموظفة في وزارة الصحة. لديها شهادة من الجامعة الفلانية من سويسرا. تظهر فتاتان ترتديان الشادور، وهما مسرعتان كي تصلا تحت سقف محطة الباص. تصلان وينفضّ شادوراهما في الهواء. حينها تمدّ إحداهما رأسها لترى إن كانت ثمة من سيارة تمرّ أم لا. حين تقترب سيارة تخرجان من تحت سقف المحطة وتلوحان لها. لا تتوقف السيارة. تعود الفتاتان تحت السقف. يبدأ. تحرّك صوت من محبسِه. تبدأ بجملة: «باسم الله وذكره». وتحيي المستمعين: «تقديري»، وتتمنى وقتاً سعيداً ومستقبلاً مشرقاً. لم تعد تتكلم. تصرخ. يمدّ يده إلى المذياع ويدير المؤشّر. مسافة كبيرة تفصل بين صوت المذيع وبين الدكتورة. على المخرج أن يعطي علامة لكي لا يعلو صوتها كما فعلت. تتكلم على سجيّتها. لربما فعل ذلك أو لم يفعل، ولكن الدكتورة غير مدركة. مازالت تتحدث بنبرة عالية شارحة قضايا العناية ومكرّرة جملة سخيفة: «لا نقول إن على النساء أن لا يحملن. نقول لهن انتبهن». لا تقولي هذا. لا تصرخي (نحن) و(نقولُ)! لمَ تستخدمين كل هذه الضمائر الغائبة يا دكتورة؟ من أين أتيتِ بها؟ إنه قريب. قريب من شفتيك هذا المايكروفون. هذه الأذن الإلكترونية قريبة. لقد عُلّقتُ مثل علجوم أمامكِ، ورأيتِ أن

حتى عروق ضحكاتك في حنجرتكِ يخطفها بلسانه اللزج. لم أكن علجوماً لأسرق الأصوات. تمرّ سيارة مرة أخرى وتتقدم تلك الفتاة وتلوّح بيدها. لا تقف السيارة. قد لا تراها. لا يرون في الظلام هذين السوادين. «نحن لا نقول». لماذا كل هذا الصراخ؟ مازلتِ قلقة من عتبي الأخير للتحدث هكذا بكل جمود كأني اتصلت على محطة حافلات الجنوب(*) لأحجز تذكرة؟ هل تريدين الوصول بإحساس إلى رأيكِ؟ لا تصرخي لأنهم يقولون عن الصراخ أنه علامة البعد. اقتربي. مستمعوكِ قريبون. إنهم قريبون من فمك ومن غايتك.

تتذكرين جيداً يوم أخذتكِ إلى المؤتمر الفلسفي حين قال أحدهم إن حاسة اللمس لا تتحدد فقط بالجلد. يمكن عبر حاستي النظر والسمع الوصول إلى أشياء ملموسة. والآن، كل هذه الصرخات التي تطلقينها و«الضمائر» التي تُلصق شفتيك ببعضهما. بهذا الصراخ يمكن معرفة نعومتهما. وهذا الوجه الأصفر يمكنني معرفته دون رؤيته. هل رأيته؟ أصاب الفتاتين اليأس من الحصول على سيارة.

وجهاهما كانا، رغم الظلام ظاهرين، ثم غابتا. كأنهما دخلتا في نوبة همس مقرّبتين رأسيهما إلى بعض. هل لم يعد بوسع أحد أن يراهما؟ «نحن لا نقول». تضع إحداهما شادورها على وجهها وبهذا تصبحان حشداً من الظلام المحض الغائب في العتمة. يمدّ يده ويغلق المذياع.

(*) محطة باصات مخصصة لنقل الركاب إلى جنوب إيران، وتقع في طهران، يُعرف عنها خشونة سائقيها وردودهم الجامدة.

يسير داوُد مع بهار على ساحل النهر بعجالة. بقيت ساعة واحدة فقط على موعد التمرين. يتصاعد البخار من النهر ويمرّ من بين الجسدين، من بين رجليهما ويديهما. احمرت أصابعهما من شدة البرد، ولكن انتباه كلا الاثنين مصوب إلى قلبيهما وكأنّ كل الشارع والنهر ضاعا فيهما. ألقى داوُد نظرة على ساعته وقال: «يبدو أنه بقيت ساعة واحدة على بدء التمرين، ولكني منسلٌ منذ الآن في الخيال. أشعرُ أني عدتُ قرناً للوراء وكأني أسير في حديقة لإحدى المدن الروسية مع سيدة. بيد أني لا أعلم إن كانت متزوجة أم لا. لذا لا أعلم هل أنا في موضع خيانة أم لا».

قالت بهار: «أنا متفقة مع كل ما قلتَه إلا الخيانة. عليك ألا تفكر بهذه الطريقة. ترى ما الذي تقوله لك ثوابتُكَ حين تكون معي، وليست الأعراف؟».

ابتسم داوُد وقال: «قد تكون من ثوابتي الخيانة. ماذا سنفعل حينها؟».

قالت بهار: «حينها سأصبح أنا أيضاً خائنة. خائنان على أية حال أفضل وأقوى من خائن واحد».

توقف داوُد. إن بهار تدسّ السحرَ في الكلام. إن إضافة خائن إلى خائن لتشتد الخيانة أوقعت قلبه في خفقات سريعة. كأن هناك شيئاً ليس غريباً في هذا الاشتداد وقعَ موقعاً حسناً في قلبه. كان كل من لارا وجيفاغو خائن. ولكن لا. لقد خانا في الحرب، ولو كان كاوة هنا لأضاف تأملاً على «الحرب» ولثملَ وقال في فترة الحرب تتعالى الكثير من الجدران من قلب الأرض لتضع فاصلة بين الشر الاخلاقي والبشر المتورطين في حرب.

الجدران مبنيّة بطوب قوقازي نمت عليه نباتات متسلقة، والأضواء التي تقع عليه تخفي الجدار مرة وتظهره أخرى. تحُول هذه الجدران بين لارا وزوجها وبين جيفاغو وزوجته حتى يزلقان في أحضان بعضهما. لكنه لم يكنِ لا هو ولا بهار في فترة حرب. آه! أيّ خطأ هذا. هل يتحتم أن يكون خارج حرب لترتفع الجدران بدلاً من أن يكون في مدينة روسية في زمن السلم؟ استحضر في خياله مدينة روسية في زمن الحرب. الحرب! هذي المُخلّصة من المزاجية المملة. كم جميل هو أنك يا كاوة أخي! قال: «أحبكِ بهار».

ابتعدتْ عنه بهار. ذهبت أبعد. قالت: «هل أُخبركَ بما أشعر به؟ كأنّ عظامك تغور في لحمي. كأنّ لو لم تكن هذه العظام قد تحطمت وتناثرت».

حشر داوُد يديه في جيبه والتفت إلى النهر ووقف. قال: «العظام!

ليته لم يكن خيالاً! ليتَ أنّا نغضّ الطرف أحياناً عن هذه المدينة، وهناك جدران نُقشت عليها صور أبطال أسطوريين. حين قلتِ العظام تذكرتُ الجدران المنقوشة. أحجار تحيط بكِ وتحميكِ».

قالت بهار: «كم أنت وحشي ومسرع في دخولك للخيال. نتمنى الحجر والعظام لدرجة تجعلني أخاف فيها من بقائنا الأبدي في عالم المسرح وأننا لن نجد طريقاً للخروج منه».

قال داوُد: «لا مشكلة. لم أختر يوماً متى أُولد أو متى أموت. وهذا يعذبني يا بهار».

أكملا الطريق صامتين. أحياناً حين لا تمرّ سيارة، يسمعان صوت خرير الماء. فجأة لفت انتباههما صوت أنفاس متسارعة من خلفهما. كان آيدن قد وصل بملامح وجه غاضب. صرخ: «يا فاسق! لعنك الله. جئتُ لأحذرك».

صرخت بهار صرخة خفيفة واختبأت خلف داوُد. اصفرت شفتاها ورجفتا.

قال داوُد لآيدن: «هل فقدتَ عقلك؟».

اقترب آيدن أكثر، لكنه لم يتعدّ مسافة الخمسة أقدام. كان وجهه مثل زهرة عبّاد الشمس المملوءة بالحبوب. وكانت كل كلمة يقولها وكأنها حبّ يتقاذف. قال: «أنتَ سرقتَ شرفي! ستتعذب حتى الموت. أنت تقضي آخر أيامك. غداً ظهراً ستموت».

تملكت داوُد ضحكة. ولكن ضحكته، أمام الغضب الساطع من

وجه آيدن، كانت مثل قطعة جليد ترميها في فرن. قال: «إذن لدي على الحساب أربع وعشرين ساعة. اغرب عن وجهي يا أحمق!».

تريث آيدن لبرهة واقفاً ينظر إليهما، ثم تراجع: «لعنكَ الله. ستموت!». ثم صار يتراجع حتّى غاب وسط البخار المتصاعد من النهر.

استدار داوُد وأمسك بكتفي بهار قائلاً: «ما الذي حدث لك؟ أهكذا تريدين أن تخوني؟».

فركت بهار عينيها وبكت. قالت بصوت راجف: «ما الذي سأفعله الآن؟».

قال داوُد: «سنجد حلاً. من الجيد أنه فهم ذلك في النهاية، وسيعتاد على الأمر بعد أسابيع».

وضعت بهار يدها أمام فمها وقالت: «هل الأمر خطير؟ هل ستصاب بمكروه؟».

قال داوُد ضاحكاً: «يبدو أنها المرة الأولى التي يرى فيها الخيانة. ألمه لا نظير له. ولكن لا تقلقي. الشخص الذي رأيته لن يفعل شيئاً. لن يرضى بأقل من القتل».

مسحت بهار شعرها وقالت: «لا تتحدث هكذا». ثم وقفت صامتة تنظر إلى بخار النهر. ألصق داوُد كتفه بكتفها وأخذ ينظر معها. قالت بهار: «لا أودّ هذا. ظننتُ أنك أكثر ذكاء من هذا الكلام. لماذا لم ينظر لي؟ لماذا صبّ جامّ غضبه عليك؟ ماذا عني؟ ماذا عن

اهتماماتي؟». أخذ داوُد نفساً. أراد الحديث عن فطرة آيدن الدنيئة ولكنه تماسك. حدّث نفسه أنه ليس من الحكمة في هذه الحالة أن يضيف دناءة على دناءة فعلة آيدن. سوف يقصم ظهره. لكنه وجه ضربة إلى هجمة وغضب آيدن المفاجئتين، وأبعدهما عن الشارع الروسي المرصوف بالحجارة. معرفته بذلك أغضبته، ولكي يفرغ غضبه أحاط بذراعه بهار وقرّبها منه وقال: «سأواجه أية مصيبة يريد آيدن إيقاعها بي، لأنه دنيء. لا يليق بك. دنيء، دنيء، دنيء».

لم تعترض بهار. رفعت يدها ببطء ونظرت للساعة: «يجب أن نذهب سنتأخر. هل تتوقع أنه سيأتي؟».

عقد داوُد حاجبيه وفكر وقال: «لن يأتي. بدأ بوصفي خائناً وفاسقاً وسيجمع حوله بعض المؤيدين. من يُحدث مثل هذه المواقف يطرد من المجموعة دائماً. آمل أن يتعقل ولا يفعل ذلك. وقد لا يكون الأمر بيده. سنستمر بحياتنا العادية؛ شاب عاشق يدخل برفقة حبيبته إلى المسرح».

ضحكت بهار. قالت: «إنه لممتع. ما أن يرونا حتى ينتشر الخبر ولن نرى آيدن مجدداً. أعتقد أنه يجد نفسه قد أهين. ولكن لو لم تكن أنت في المسرح، لما تجرأتُ على الابتعاد عن آيدن. أنتَ على المسرح أكثر جنونا منه. سامحني. يجب أن لا أقارنك معه. بيد أني أودّ رؤية جنونك بسرعة لأتخلص من ذكريات آيدن. هل رأيتَ كيف كان يركض نحونا؟».

قال داوُد: «رأيت».

قالت بهار بعينين متسعتين وكأنها توجه كلامها إلى شخص آخر: «ليتني كنتُ أحفظ شعراً لأقرأه لك. لقد حرضني هجومه ودفاعك وتراجعه. مازلت أرتجف».

سارا إلى المسرح. لكنهما لم يسيرا على وقع (تبريز). سارا على وقع مدينة فيها قاطرات بخارية وفحمية. في خيال داوُد، تحيط بهما بنايات على الجانبين فيها نوافذ كبيرة وقد جلس الناس إلى جانب المدافئ ينظرون للاثنين. يمكن دائماً معرفة الابتسامة التي ترسم على وجه ثنائي التقيا للتو. يمكن اكتشاف الابتسامات بسهولة عبر التعبيرات الفاضحة في الوجهين. ولكن مازال ضياع قطعة ثياب ماريا في الكنيسة، بناية أكثر قرباً للقرن التاسع عشر، من حالة بهار المتقلبة. مازال ضياع قطعة قماش صغيرة ملونة بين العشب، العشب الذي بات يحجب أعين القساوسة والطلبة الأرمنيين، كان هذا أكثر امتزاجاً بالجنون من تمني جملة «ليتني كنتُ أحفظ شعراً». لو كان الشعر فاضحاً للجنون لبقي في الذاكرة يدعو القلب إلى ميناء ريح أو يجبر كلباً أو قطة ليأخذ قطعة الثياب ويلبسها إياها من بين هذه الكائنات اللابسة للثياب، وأحيانا تكون هي الثياب ذاتها.

كان الحدث في خيال بهار بصورة أخرى؛ بهار مصابة بالبرد. وهي على قيد الحياة متمددة في تابوت كبير فوق طاولة كتابة. يدخل داوُد الغرفة بوجه ملثم ومغطى بالثلج وتقع عيناه على بهار. ينفض نفسه وينزع ثيابه ثم ينام إلى جانبها.

فجأة أحسّ كاوة برجفة في أصابعه. خرج مما كان يفكر فيه ونظر إلى الطبيب الذي جلس تحت المصباح يكتب. كان القسم الأعلى من الطبيب ظاهراً. لم يكن هناك مصباح مضاء في الغرفة غير مصباح القراءة. نظر للنافذة ورأى أنّ الظلام قد حلّ. مسح جبهته الباردة وأدرك أنّ الرجفة تزداد إثر الجوع. قال: «معذرة، هل لديكَ سكريات؟». وضع الطبيب قلمه الجاف وسط الكتاب وأغلقه: «آه. خرجت من إغماءتك أخيرا؟ سوف أعدّها لك الآن».

نهض وأضاء مصابيح الغرفة واتجه إلى السماور. وضع قبضة حبات سكر في كوب ووضعه تحت صنبور السماور. ثم اتجه وهو يخلط ما في الكوب إلى الثلاجة وأخرج قنينة أضاف منها للكوب حتى امتلأ. عاد وهو يخلط ما فيه ثم أعطاه لكاوة: «مرت أربع ساعات ونصف على جلوسك». تلقف كاوة الكوب وشرب ما فيه كله، ثم اتجه إلى المقعد الموضوع أمام النافذة وتمدد عليه. قال: «آسف. كنتُ مصدر تعب لك».

قال الطبيب: «ما الذي تقوله؟». ثم انحنى ونظر من بين طيات الستار للخارج: «لديّ مقترح. سوف أطلب كباباً سأحضره لك. لا أستطيع تركك تخرج وأنت بهذه الحالة».

قال كاوة: «ممتن منك. بشرط أن تدعني أدفع ثمنه».

قال الطبيب: «من يذهب لإحضار الطعام هو من سيدفع. ابق على وضعك». قال هذا وارتدى جاكيته. ثم ألقى نظرة على نفسه في المرآة وخرج من العيادة.

أغلق كاوة عينيه وضغط على الكوب واستمع لخطوات الطبيب المبتعدة عنه. قال فجأة: «روكسانا! آه. ما الذي سيحدث لروكسانا؟ هل ستهرب؟ هل تجرؤ؟ ليتها تقول آن فرارها أيها الزمن اللعين ما الذي فعلته بي! ليتها تقول ذلك. حينها سيكون رحيلها شبيهاً بمن يتنظر وصول أحدهم لاحتضانه. آه أيها الزمن اللعين ماذا فعلتَ بي! ولو لم يكن الزمن اللعين يفعل ما فعله بي ولم أتعذب فما فائدة هذا الهروب؟ إنه ليس هروباً. إن هو إلا نقل أثاث عادي من بيت إلى آخر. يجب أن تتعذب جيداً وبغير هذه الصورة لن يكون في الأمر أي عزم، وإذا فقدت العزم ستتركني محقّرة. حينها سأتآكل من الداخل متسائلاً هل كنتُ كل هذا العمر مع إنسانة حقيرة؟».

فُتح الباب فجأة ففتح كاوة عينيه. وجد امرأة غريبة تقف في الغرفة تنظر بعينين خائفتين ووجه ملثم: «أرجوك سلم هذه الرسالة للطبيب». وضعت مظروفاً على الطاولة ثم خرجت بنفس السرعة

التي دخلت بها الغرفة. كان وقع خطاها يتناهى إليه ويتقطع. وكأنها تسير وتتوقف. لكنها في النهاية ابتعدت.

نظر كاوة وهو مستلقٍ إلى المظروف. نهض وغطى جبهته بيده وأغلق عينيه ثم اتجه إلى الرسالة الموضوعة على الطاولة ورفعها، ثم عاد وألقى نفسه على المقعد. اقتربت من شفتيه إحدى يديه التي لم تكونا تقويان على الحركة، ومن دونها إرادة راح يتشمّم الرسالة. كان هنالك ما يشي برائحة منزلية. رائحة بيت ليس كبيراً جداً لتنفصل الغرف فيه عن بعضها. رائحة مغلّفة. ولكن المنزل هرب فجأة مثل دخان شمعة، وحلت محله رائحة الكباب. هجمت رائحة كباب ممزوجة برائحة زبدة وبصل من تحت الباب وعرف كاوة أن الطبيب قد عاد. فتح عينيه ونظر للباب قبل فتحه، ليرى كيف سيدخل الطبيب حاملاً وجبتين. ولكن صوت الخطوات الذي تناهى إليه كان لأكثر من قدمين. اقتربت الأصوات. حفيف ثياب وصوت أنفاس.

فُتح الباب الذي باتَ مثل أنف كاوة حساساً، ودخل شاب بوجه منير وثياب رثّة، يحمل صينية كبيرة فيها صحنان مغطيان. كان الصحنان أكبر من الصحون العادية، كبيرين بقدر أرجعا فيه كاوة إلى المطاعم التي وسط البازار القديم، نفس المكان الذي كان يتمشى فيه ليصل إلى مقهى الحمير، ذهب إلى هناك حيث حجم الصحون كبير بحيث أن وجبة الرزّ واللحم تبدو مثل جزيرة وسط الصحن وتشغل حيزاً صغيراً منه، وقطعة الزبدة التي قُطعت

بعنف من مخزن الزبدة، مع زوايا الصحن الحادة التي تدل على عدم عناية الطباخ، كلها، تدل على انقطاع المطعم عن العالم المألوف. وضع الشاب الصينية على الطاولة التي تقع في وسط الغرفة وهمّ بالمغادرة، حينها قبض الطبيب على يده. وجد الشاب مبلغ ألف تومان بيده. كان يضحك حين غاب عنهما.

قال الطبيب: «قبل أن يبرد قم لنأكل فأنا أكثر جوعاً منك. يجب أكل الكباب وهو حار».

- هذه الرسالة لك.

رفع كاوة المظروف.

اقترب الطبيب وأمسك بالمظروف. لم يُكن هنالك شيء مكتوب عليه. وضعه على طاولته وعاد للطعام: «من أحضره؟».

نهض كاوة ومسح عينيه: «امرأة».

رفع الطبيب حاجبيه: «امرأة؟»، ثم وكمن يستذكر، غسل يديه وجففهما بمنديل. دفع الطاولة مقرباً إياها من كاوة ثم جلس: «لا ضرر من رشّ المزيد من الملح لكي يرتفع ضغط دمك بعض الشيء».

أزاح الطبيب الغلاف عن الصحنين فتصاعد البخار. بادر كاوة بالأكل. تناول الطبيب ثلاث لقيمات واتجه إلى الطاولة وهو يمضغها ثم سحب سكيناً فتح به المغلف ووضع الرسالة على كفه وفتحها. أخرج الورقة من المغلف، توقف فمه عن المضغ وحدّق

فيما هو مكتوب، ثم قرأ الرسالة بصوت مبهم لكنه جهير: «لم تكن لديهم فرصة لأخذي إلى المشفى. لقد وضعت مولودي على طاولة الطعام».

رفع رأسه ونظر إلى كاوة. مسح كاوة لحيته وفمه وألقى على الطبيب نظرة تساؤل. أحضر الطبيب الورقة معه إلى طاولة الطعام وقال: «أعتقد أنك رأيت نفس المرأة التي كانت تتصل بي. إن في مجيئك بركة».

أكملا الأكل دون العودة إلى موضوع الرسالة لكن كاوة لايزال يرى الغطاءين القصديريين أشبه بقبتين بيضاويين في مدينة تركية، وهما يبدوان وكأنهما يشيعان الغربة. وكأنه ليس هناك من علاقة بين هذين الغطاءين والطعام الذي كانا منشغلين بأكله، وما وجودهما إلا تأكيد على عدم علاقة وجديّة التناول وجدية الكباب. كان الطعام بعد دقائق من المضغ والانزلاق من بلعوميهما سيختفي. كأنّ تلكما القبتين متكهنتان على استقرار الطعام في البطن. كأن الطعام قد كان مخبّأ عن الأعين وظهر الآن، وبعد دقائق قليلة سيُرمى في مخبئه مرة أخرى.

هكذا انتهى الطعام.

مسح الطبيب شفتيه بمنديل وأمسك الرسالة وبدأ بالقراءة:

أنا هي تلك التي كانت تتصل بكَ منذ فترة ولم تجرؤ على فتح حديث معك. لقد وقع لي حادث ليس بعيداً عن اختصاصك. من هذا الجانب أطلب منك وبكل صدق أن تنير لي عقلي المظلم

حتى أنهي سنوات اضطراب حياتي وأجرؤ على مواجهة الواقع. تعود القصة إلى أعوام مضت حين كنتُ في العشرين من عمري وقد تركني زوجي للذهاب إلى الحرب. كنتُ حبلى آنذاك، لذا لم أستطع الصمود أمام ذهاب زوجي للحرب. ومن أجل حساسية المهام العسكرية التي كان موكلاً بها هو ومن معه، فقد منعوهم حتى من كتابة الرسائل، على حدّ تعبيره، لتبقى الأسرار العسكرية بأمان. أتذكر تلك الليلة التي أُجبرت فيها على امتطاء فرس لأذهب إلى أمي التي تسكن إحدى قرى باكو. لم تكن هناك وسائل نقل متاحة فأُجبرت على السفر على ظهر فرس. وزّعَت حركةُ الحصان الألمَ في كل جسدي، وأجبرت في الطريق على التوقف عند مقهى لثلاث ساعات كي يشبع الفرس من علفه. كنتُ أدعو الله أن يملأ بطن الحصان بسرعة لأوصل نفسي في الوقت المناسب حيث أمي. وبعد أن شبع الفرس، أكملتُ طريقي ووصلتُ القرية. لذا عجّلت حركة الفرس بولادتي. في تلك الليلة وبمساعدة قابلة شابة لا تمتلك خبرة وضعت طفلة. لم تكن لديّ فرصة لأخذها إلى المشفى. جئت بها إلى هذا العالم على مائدة طعام. بقيتُ عند أمي سنة كاملة. كنتُ آخذ من مدينة باكو ثياباً لأخيطها وأحصل على ما يكفيني وطفلتي ماريا حتى توفيت والدتي. لم أستطع البقاء وقررتُ العودة إلى تبريز. كنتُ أدرك أني سأحصل على مال أكثر مما أحصل عليه في باكو. قصدتُ تبريز، وبالمبلغ الذي كان معي اشتريتُ منزلاً في زقاق قرب السينما. ورويداً فرويداً تطورت علاقتي مع صاحب عملي الذي كان متزوجاً. كان رجلاً جريئاً ولا يخاف من رؤية زوجته لي برفقته. كنا

نذهب معا للتبضع والتسكع، وقد لمستُ لطافته مع ماريا. مرّ عامان لم يصلني فيهما أيّ خبر عن زوجي. والرجل الذي تحدثتُ عنه طلب الاقتران بي. كان يعتقد أن زوجي فُقد في الحرب. لذلك رأى أن من غير الصواب أن نصبر على شيء لا نعرفه. أثرت فيّ كلماته ووافقتُ على زواج مؤقت كنا نمدده عاماً بعد عام. كان يأتيني في الأسبوع مرتين أو أكثر، وباتت ماريا تدعوه بأبي. إستمر الحال هكذا وصار عمر ماريا سبع سنوات، حتى جاء يوم كنت أجرّب فيه ارتداء ثياب ورشة نسائية، فشعرتُ أن شخصاً يقف أمام نافذتنا في الزقاق كنتُ أشعر بثقل نظراته على النافذة. اقتربتُ من النافذة بحذر وأزحتُ الستارة فرأيتُ زوجي وهو يضع نظارة شمسية واقفاً في الزقاق وكأنه ينتظر أي عابر سبيل ليسأله عن بيتي ومالكه. فتحتُ النافذة وناديتُه باسمه راجية منه الصعود. حينما صعد كان أول ما قمتُ به هو إبعاد نظارته عن عينيه. لم تكن هنالك من عينين، وكان وجهه منكسراً من أثر عذاب الأسر. انصدمتُ وشعرتُ بالغربة. اتصلتُ على زوجي المؤقت وقصصتُ عليه ما جرى وقلتُ له إنه أعمى. قال يجب أن نلتقي ونتحدث. تواعدنا والتقينا وسألني ما الذي تنوين فعله، ولم أكن أعرف ما سأفعله. كنت من جانب أودّ عودة والد ماريا إلى حياتي، ومن جانب آخر كان عماه الذي أصيب به وأبعدني عنه لأعوام مؤثراً. قلتُ له مازلتُ لا أعلم. اترك لي وقتاً أفكّر فيه. عدتُ للبيت وكان قد رحل. لكنه كتبَ ملاحظة يشير فيها إلى أن لديه عملاً مهماً يجب إنهاؤه، وأنه سيعود مرة أخرى. كانت ماريا لم تعد بعد من المدرسة حين رحل. لذلك لم تكن تعلم بما حدث. مرّ شهر لم يصلني

فيه أي خبر، وكانت علاقتي بزوجي الجديد مستمرة، ولكنني لم أكن راغبة بتجديد عقد الزواج لعام آخر. كنت أذكّره باستمرار بأنّ علينا الاستعداد للانفصال وأنني لا يمكنني الاستمرار على هذا الشكل. لكني كنت أدرك أني لن أتحمل بُعده عنّي. ذهبتُ يوماً مع زوجي الجديد إلى دعوة كان فيها جمع كبير من زملائي في العمل. وكان قد أقام الدعوة رئيس اتحاد الألبسة لدعم مرشح للبرلمان. كان أزواج كُثر يتبادلون الحديث وفجأة وقعت عينيّ على زوجي السابق يقف في الوسط وهو يتحدث مع رجلين. انخطف لوني وطلبتُ من زوجي الجديد مغادرة الحفل، لكنه ضحك وقال لماذا؟ هو لا يرانا. بدا كلامه منطقياً، بيدَ أن ضغطاً هائلاً كان يشتد عليّ. كنت وكأني لا أصدق بانعدام وجود عينيه وعدم قدرته على رؤيتنا. سكتُّ لكي لا يسمع صوتي وأجبت بالإشارات على سيدتين حاولتا الحديث معي أنّ أسناني تؤلمني ولا يمكنني الكلام. مرت تلك الليلة واستمرت حياتي مضطربة حتى صادفتُ أنا وزوجي الجديد في الشارع زوجي القديم ففقدتُ ثقتي بنفسي. كان زوجي الجديد يضغط على يدي ليطمئنني أن أكون على طبيعتي وأنه لا يراني. وحين صار والد ماريا يأتي لزيارتنا، وحدث هذا عدة مرات، كان واضحاً من أسلوبه أن الحق مع زوجي الجديد. كان يأتي لرؤية ماريا ويبقى فترة ويرحل. يقول إنه لا يقدر على العودة إلى حياته الطبيعية بعد. كانت أيام الأسر مازالت تغلب على ذاكرته، وكانت عودته إلى البيت والبقاء بصورة مستمرة بجانب ماريا وبجانبي تستغرق زمناً طويلاً. تمرّ الآن فترة طويلة على عودته إلى إيران، كان يقول مثل هذا الكلام، ثم قلّ مجيؤه

إلى بيتنا. وكان يقضي أكثر الأوقات مع ماريا التي تقوم بكل أعمال المقهى، وهي بمساعدة من أبيها اشترت منزلاً في حارة الأرمن.

لقد قلتُ كل ذلك لأصل إلى سؤالي لك وهو هل يمكن لمن أُنتزعت عيناه من محجريهما أن يرى؟ لو كان جوابك نعم، ستتحول كل مشاهدات والد ماريا لنا؛ أنا وزوجي الجديد، والتي حُفرت في ذهنه، إلى كوابيس. كنتُ أنا السبب، بتهوري والظهور في العلن برفقة زوجي الجديد، في كسر قلب ماريا وابتعادها عن أبيها. أتمنى أن يكون جوابك بالنفي. لم أكن على استعداد لأتحمل سماع تأكيدك على إمكانية ذلك عبر الهاتف. سامحني على كل ذلك الأذى الذي تسببتُ به لك. صدقني كنتُ دائماً ما أريد أن أخبرك، ولكن حين ترفع سماعة الهاتف يُقفل فمي ولا أقدر أن أتكلم. دكتور أرسل جوابك على العنوان الذي كتبتُه في نهاية الرسالة. هل تعتقد أنه رآني معه؟».

طوى الطبيب الرسالة ونظر إلى النافذة. قال: «عليك تقديم خدمة لي. لو تحسنت حالتك أودّ أن تكون ساعي بريد لي وتنقل جوابي للمرأة، وهي قد تركت عنوانها. أرجح عدم ذهابي إليها. لقد رأتكَ هي ولا أعتقد أنها ستستغرب منك».

نهض الطبيب وجلس خلف طاولته ممسكاً قلماً، وبعد لحظة بدأ بالكتابة على ورقة كانت تصدر صرير الأحرف. انتظر كاوة حتى ينهي الطبيب كتابته. ثم نهض ونظر إلى المظروف الذي وضع الطبيب الرسالة فيه وأغلقه. نهض الطبيب وقال: «عد بسرعة!».

أخذ كاوة الرسالة وخرج. اجتاز صالة الانتظار الموحشة التي

توقع في القلب الرعب واللاطمأنينة. وفي الممر، وقبل أن ينزل من الدرج، ألقى نظرة أخرى على الملصق الساخر للعين الكبيرة. شعر بأنّ العين تراه. عينان تتبادلان هجمات النظرات. كأنّ العين مرآة تعكس عينه. نظرة. نظرة. نظرة بنظرة. نظرة بنظرة بنظرة. نظرة بنظرة بنظرة بنظرة. وهكذا تتكاثر آلاف المرات. لو كانت هذه العين في المرآة ترى النور فستراه حتماً. ولكن هذه العين التي في المرآة غير مستقلة. إذن رؤية العين في المرآة ترتبط بعين كاوة. ينظر كاوة حتى يرى عين الملصق. لو لم يكن كاوة يرى لما رأى الملصق. وعلى ذلك، وعبر رؤية كاوة، بدأت هذه العين المنصوبة على الجدار بالرؤية، وتحررت من كونها صورة مجردة، فقد باتت بدورها ترى كما كان كاوة يرى.

لم يكن الطريق من العيادة حتى الزقاق المحاذي للسينما طويلاً، ولم تمر ربع ساعة حتى وصل كاوة. بعد تفكير مطوّل أثناء السير على الثلج اكتملت الفكرة. كأنّ التفكير كان بحاجة إلى السير، وكأن روحه حين يفكر وهو يسير فترة طويلة تتحول إلى مخزن خطوات لم تمسّ. مثل اللُعب التي تُشحن الحركة فيها بآلية النابض، وهي ما أن توضع على الأرض حتى تبدأ بالحركة. كان جسد كاوة، ودون إرادة منه، يسير.

سُمع صوت الجرس.

دفع كاوة الباب ودخل. السلالم مكسوة بالخشب، صعد حتى الطابق الثاني . صعد.

تناهى إلى سمعه صوت امرأة: «تفضل. أعتذر لأني لا أستطيع القيام لاستقبالك».

صعد كاوة إلى نهاية الدرج وتوقف ليستمع، سعل وفتح الباب الذي كان موارباً إلى منتصفه. كانت المرأة تجلس على الكرسي ولا يُرى منها سوى قدميها. كانت قد رمت على رأسها بطانية وانحنت على مدفأة نفطية. نزع كاوة حذاءه ودخل الغرفة: «سلام. أنا ساعي الدكتور. أحضرتُ جواب رسالتك إليه».

قال الصوت من تحت البطانية: «تفضل واجلس. أعتذر لأني أتحدث معك بمثل هذه الظروف. كنتُ في الخارج وأصبتُ بصداع رهيب. إنني منشغلة باستنشاق البخار الآن. ليس لدي من حلّ آخر، وإلا فلسوف يشتد الصداع إلى أن يتحول إلى غثيان».

قال كاوة: «أرجوكِ»، ثم جلس محدثاً نفسه في أنه يجب الحديث مع المرأة التي وضعت ما في رحمها على طاولة الطعام بهذه الصورة. تصوّر المرأة تحت البطانية وهي تستنشق البخار الحار وتتعرق. يأتي أحياناً صوت استنشاق قوي.

قالت المرأة: «أرجوك اقرأ لي الرسالة».

قال كاوة: «قد لا يكون عملاً صحيحاً. الرسالة موجهة إليكِ».

أخذت المرأة نفساً عميقاً وقالت: «أنت لا تراني وأنا لا أراك. سيكون بوسعك قراءة الرسالة بكل طمأنينة، فأنا لا أستطيع رؤيتك».

أخذ كاوة نفساً عميقاً وتخيّل المرأة القابعة تحت البطانية والمرأة

التي تلد طفلتها على طاولة الطعام. الجنين في فضاء دافئ يعمّه البخار. وجه مبتل وجلد كان في الرحِم. كان هناك شيء آخر يتداعى. مداخن مسلخ الرجل المهيب التي كانت تقذف البخار للخارج في تلك الليلة. قال: «ماذا تعنين؟ كيف توصلت إلى أنك لا تُرين؟».

ضحكت المرأة وأخذت نفساً بأنفها. قالت: «لا أدري هل تعرف أني أرمنية أم لا. هُجّر جدي مع جدتي في زمن البهلوي الأب إلى هنا. وفيما بعد عاد جدي وجدتي إلى مدينتنا القريبة من باكو. وُلدت هنا وحين عادا دخلتُ في دير الراهبات وما أن مرت مرحلة بلوغي حتى قالوا لي هناك أن النظر للجسد خطيئة. لأنّ الجسد مصدرٌ للمشاكل وهو يبعدنا عن الله والمسيح. تعلقتُ بهذه العقيدة ولم أنظر أبداً لجسدي حتى حينما كنتُ أستحم. في الحمام، وحين يكون الوقت نهاراً، كنت أضع على حوض الاستحمام شرشفاً لكي لا أرى نفسي. وفي المساء يكفي أن لا أضيء المصباح. باتت هذه عادة حتى اليوم الذي كنتُ أسير فيه على رصيف، ورغم أن قاعدة حذائي كانت حديدية، لم أكن أسمع صوت خطواتي. خفتُ. ذهبتُ إلى طبيب نفسي وقصصتُ عليه ما حدث. وما أن عرف الطبيب النفسي أني راهبة حتى قال اذهبي إلى البيت واستلقي وانظري لنفسك في المرآة. فعلتُ ما قاله ونظرتُ لنفسي. منذ ذلك اليوم عاد صوت خطواتي. ولكني لم أضع قدمي في الدير بعدها وامتهنتُ الخياطة، وفي النهاية وصلتُ هنا. والآن هل ستقرأ لي الرسالة؟ ليت هذه الرسالة تخبرني أن حاسة البصر مثل السمع. يمكنها أن تكون موجودة ولا يدركها الإنسان».

قال كاوة: «لو لم تذهبي إلى الطبيب النفسي وبقيتِ كما أنت حتى الولادة، لبقي جسدك يعذبكِ. صحيح؟».

ضحكت المرأة القابعة تحت البطانية. قالت: «ولكن في الولادة لا تفهم فقط أن في داخلك جسداً، بل هو ليس تحت إرادتك. على الجنين أن يخرج ويصارع من أجل الخروج. لستُ أنا من يُسكته. من جسدي ووفقاً لسيطرته يخرج الشيء مني».

استعد كاوة للدخول في نوبة تفكير لكنه منع نفسه. قرّب المظروف من الضوء ومزّق المكان الأكثر انتفاخاً فيه. ثم أدخل اصبعين وسحب رسالة الطبيب ونظر للكلمات مادحاً في قرارة نفسه صدق الطبيب. قال: «هل أقرأ؟».

قال صوت المرأة الذي يشبه صوت الإنسان الذي يغالب النعاس: «اقرأ».

عدّل كاوة صوته محاولاً أن يكون أعلى مما هو عليه كي يجتاز البطانية ويصل إلى عمق البخار المظلم وأسمع المرأة:

«تحية طيبة لك يا سيدتي. لقد مررتِ بتجربة قاسية إثر فقدك لزوجكِ في الحرب وهذا لا يمنعني من قول الحقيقة. نعم. إن زوجك السابق يمتلك قوة الرؤية، ولأنّ هذه القوة لا تستند إلى جهاز العين فهو يرى البعيد بنفس وضوح القريب. لذلك كوني متيقنة من أنه رآك، سواء أكان ذلك في تلك الدعوة أم في الشارع. ولكنه حين أبصرك هل كان ملتفتاً لك أم لا، هل عرفك أم لا، فهذا أمر نفسيّ خارج عن حكمي عليه. لو كان وقع هذا الخبر سيّء عليكِ

ويسبب لك الخجل فأنا أرى من اللزوم، ولكي أعدّله، الإشارة إلى نقطة مهمة جداً وهي أنّ الوصول إلى هذا الإبصار لا يتيسر دون دعم من صفات نفسية. من المحتمل أنّ زوجك السابق قد توصل إلى قوة باتت ذات كرامة أكبر، وأن صدره صار أكثر رحابة، ولا بدّ أنّه أدرك أن حياتك مع زوجك الجديد ووضعكما الحالي هو ما لا يمتلك معه حق الاعتراض. لذلك أكملي حياتك ببال مرتاح. كل التقدير. الدكتور مرتضى قندي ها».

طوى الرسالة وأعادها للمظروف ثم نهض. اتجه نحو الباب بكل هدوء وتوقف أمامه. وقبل أن يخرج استمع لصوت يصدر من تحت البطانية يشبه النشيج. ولكي يتأكد، ألقى بنظره على البطانية فرآها تهتز. قال: «سيدتي. عليّ الذهاب. لا أعلم هل هو فضول مني أم لا، ولكنك حين تنهين عملك في الأسفل فستخرجين إنسانة ثانية عن طريق المعلومة التي جاءتك بها الرسالة. وأرجوكِ، فيما لو كانت ذكريات الماضي المؤلمة لاتزال معك، أن تحرريها مع دفء البخار حين ترفعين البطانية عنك، ذلك لكي تكوني إنسانة أخرى. وهذا أفضل مقترح بوسعي تقديمه لك. لا يمكنني البقاء أكثر لأني وعدتُ الطبيب بالعودة، ولولا هذا لسحبتُ البطانية عنك. قد لا تعلمين، ولكني فكرتُ كثيراً. دخلت في التفكير، وحين أدخل في هذه الحالة تفور في داخلي الرغبة».

لم يسمع جواباً. انحنى وأدخل قدميه في الحذاء ثم نزل السلالم. وقبل أن يضع قدمه في الزقاق المظلم، قال مؤنّباً نفسه بصوت عال:

«لماذا لا أكتب هذا الشرح الجداري الذي ركضتُ خلفه عمراً؟ مرة أخرى ظهر الجدار الكبير لإبعاد الفساد المصطنع في شكل بطانية. مرة أخرى يصرخ ببطانية بخارية لماذا لا تكتبني؟ سأكتبكَ أيها الجدار. في النهاية سأكتب».

يبدو أنّ أقل أثر للاستقرار في الحب هو اقتلاع الإنسان بكل يُسرٍ من الواقع والدخول به في الحلم. لقد أصاب آيدن حين قال إنّ داوُد سيموت. ولقد بدأ بالموت. موت تذبذبه وتدافعه المتصلين بشدة حبه لبهار. بعد التمرين، وحسب تكهن داوُد، لم يأت. لم يستطع داوُد بعد هذا مرافقة بهار، وسار وحيداً. أراد أن يكون مثل أخيه ويدخل أول مقهى يصادفه ليخرج المجلة التعبيرية ويقرأها وسط الضجيج والدخان. هناك مقهى قرب ميدان (ولي عصر) ليس فيها أراجيل، وفي نهاية الشارع رجل عجوز صامت. قدحت الفكرة برأسه ليذهب إلى هناك ويسائل الصمت والأرائك الخشبية دون أن يزعجه دخان الأراجيل. لذا، ودون أن يجد وقتاً لاتّخاذ قرار، اتجه إلى هناك عابراً الأزقة المملوءة بالبشر. بيد أن هذه الأزقة المتداخلة لا تمنحه أي لقاء. كأنه كان يمشي في أزقة وشوارع موسكو في ليلة ثلجية بهيئة الدكتور العاشق. مازال هنالك وقت حتى حلول الليل، ولكنّ داوُد مع وقوعه في قوة الحب، كان الليل يمثل عنده شمسية يجرها فوق رأسه سائراً بكل هدوء إلى المقهى،

ولكي لا تبرد يداه كان يغير مكان المجلة من يد إلى أخرى ويضع اليد الخالية في جيب معطفه. للشتاء هذه الخصوصية؛ أنّ برودته تغلق الأفواه وتطوي الرقاب وتلصق الأنظار بالأرض، وهكذا يرتفع جدار من الصمت بين الناس. لا يرغب أحد في تبادل التحايا أو السؤال عن الأحوال. لذلك فإن السير في الأزقة المتجمدة كان يتيح له مجالاً ليخلو إلى نفسه ويفكّر بالرواية، بالدكتور جيفاغو، ببهار أو حتى بماريا وبقطعة الثياب التي قد ضاعت في الكنيسة، أو أن تكون عالقة بالعشب إلى الآن ولم يلحظها أحد. تذكر تلك الليلة حين صادف الدكتور في العاصفة فتى يبيع الصحف. ردة الفعل المفاجئة في تلك البرودة والهروب إلى المصباح ليقرأ الصحيفة تحت ضوئه. ثم حين رأى إزعاج الريح دخل في الممر المنير ورآه ذلك الرجل الغريب. رأى نفسه في ذلك الممر. دون أيّ جهد ودون أن يكون الوجود في الممر الروسي، مثل صاعقة سريعة، تضرب وتزول، بل هو فيه وكأنّه يعرف أن يد بهار، قلب بهار، كان في حضن بهار وهذا الممر يمنحه قوة ليبقى ويجرّب تلك الليلة الصعبة والباردة، وقد يكون امتداد بهار إليه لتتيسر رؤيا العيش في القرن التاسع عشر. من الممكن أن موسكو والأجواء الثلجية قد بُنيت على فكرة وجود بهار، بهار النائمة بعينين مفتوحتين على السماء، ما كانت واستعداداتها وغرقها هو نفس برج وإيمان موسكو ومجاريها وقنواتها المائية، كانت وكأنّ بهار الصغيرة قد تبدلت إلى بهار كبيرة.

سحب يده من جيبه وأمسك المجلة بيده التي أخرجها. كانت المجلة باردة وتقطع اليد مثل الحديد البارد. صار لونها الأرجواني مع

البرد أكثر لمعاناً. أدخل يده في جيبه وعاد يفكر مرة أخرى في قطعة الثياب الساقطة على العشب. قطعة الثياب باردة الآن وقد تكون متجمدة من شدة البرد، ودفء المقهى الذي تناول فيه مع الرجل المهيب الحساء. كأنّ في الاثنين، المجلة وقطعة الثياب، لمعاناً من شدة البرد توجدان فيه الكراهية. كراهية كانت تخرج من فم آيدن بقرب ساحل النهر ويحرك البخار حولهم موجة من حجم الكراهية التي فيه، ومن كثرة تحقيره نهض. مثل سُمّ يرشقه فم ماريا. سقطت هذه الكراهية على العشب وكراهيته الأرجوانية ككراهية ثالثة.

وصل إلى باب المقهى وتعرف مرة أخرى على معارفه القدامى مع الليمون، هؤلاء المعارف الفاقدون للتاريخ وهم يبدؤون هكذا منذ الطفولة ويتقدمون هكذا، عرف رائحة فحم الليمون. أُحرق مخلّلاً مرّاً بالنار مخلفاً دخاناً. يودّ الجلوس في مقهى يحترق فحم الليمون في كانونه. هكذا يجد حبات الليمون في الهواء معلقة في الأغصان وملصقة في السقف، كأنّ الليمون في متناول اليد، وأنه على قدر من الذكاء إلى درجة أنه يصبّ عصارته بنفسه في جوف كوب الشاي على الطاولات. هذا العطر المرّ الفائح في الهواء هو أيضا عون في حب بهار إذ تنمو الأشجار والأغصان في الهواء.

وضع الرجل العجوز الشاي أمام داوُد ولم يرفع داوُد رأسه. أزاح الشاي ومسح الطاولة بكفه ثم فتح المجلة. الآن هذه هي المرة الأولى التي سيدخل فيها لموضوع التعبيرية الذي يتحدثون عنه. كان يأمل بدلاً من قراءة هذه المواضيع في كراسة، لو أنه امتلك جرأة كاوة

ليذهب إلى أناس يسمع منهم مباشرة ماذا تعني التعبيرية. يسمعها مثلاً من صاحب السعادة قبة عجوز المسرح، وأقل ما يستطيع فعله شرح موقع التعبيرية في المسرح. ولكن لا. سماع صوت قبة الحي، وهو الذي من هذه المدينة وشاخ في هذه المدينة، كان مزاحماً لشعور التعرف على التعبيرية. أين نمت التعبيرية؟ ألمانيا. يجب أن يتحدث شخص ألماني عن التعبيرية لو تطلب الموضوع فماً حياً شارحاً. جلس الآن في مقهى مع امتلاكه لثلاثة أشياء اغلق عينيه للتفكر بها كي يتجاوز الكراهية. الأشياء الثلاثة كانت؛ تهديد آيدن بالقتل، قطعة ثياب ماريا المفقودة في ساحة الكنيسة، وفي النهاية حب بهار. هذه الحيثيات الثلاث تتطابق مع منطق التعبيرية المملوء بالجنون والفوضى، لا منطق الواقعية التي يمكن معها بناء العالم الخارجي لداوُد كعالم غليظ مملوء بالحركات الشيطانية، وهو يعبر بالاستقرار فيها من الكراهية التي تهدده. ودون الانتباه للشاي الذي برد وجدده له الرجل العجوز، أغلق عينيه وحدّث أخاه كاوة عن الكراهية، وفي مخيلته، كأنه يرقد على خشبة المسرح والأضواء مطفأة، ويفكر بموته. شعر بأنّ كاوة دخل في رأسه وتحدث معه مثل مرشد. ماذا؟ إنه لم يعتد الحديث مع نفسه بهذه الصورة، وقعت ظلال كاوة فجأة على رأسه. ظلّ طويل كأنه تجلى مع شمس توشك على المغيب. كان فمّ كاوة يتحدث عن الموت الصادم. لأنّ التاريخ تمّ تحديده. الموت الذي وعده به آيدن وهو على أعتاب الحب. لو متَّ في الوقت المحدد فستصبح مثل تلك القطعة من الثياب التي وقعت في الساحة ولن تبقي مجالاً للكلام. أليس كلام الثياب هو

ارتداؤها؟ إنها مثل اللجام الذي كلامه هو لجم الفرس. إذا لم تستطع الكلام مع الأحياء فإن هذا عذاب مؤلم، صحيح؟ بالتأكيد لن تستطيع. يرتفع مع الموت جدار بينك وبين الأحياء، وينجح آيدن في إغلاق فمك لو قبضَت عليه الكراهية، وما الذي يريده آيدن غير إغلاق فمك؟ هذا هو الخوف من الموت يا أخي. إغلاق الفم. بالتأكيد أنك دققت لو أغلقت فم شخص يشعر بالاختناق، لأنه لا يستطيع الكلام في حال يمكنه التنفس عبر أنفه وليس في الأمر من عملية خنق. أنت لا تريد أن تنطفئ. مازلتَ تريد أن تتكلم وتتصور نفس تصورك في العودة إلى القرن التاسع عشر بمعطف جديد، نفس هذا التخيل والحلم هو نوع من الكلام، ودون كلام لا تتشكل التجربة. كيف يمكنك أن تحذف فمك عن الذكريات وتجد نفسك في موسكو والثلج والعاصفة وحب لارا. كيف يمكن بفم مطبق أن توصل حبك للارا؟ كيف يمكنك وفمك مغلق في وضع جسد في تابوت على طاولة القراءة: أن يكون لكل هذا الحمل وكل هذه الضغوط من معنى؟ وبافتراض أنك كنتَ أخرساً، فهل كان يمكن أخذ حالة كيّ لارا للثياب ووضع كل علامات الجنون والحب والحياة بالتراكم عليها؟ آه! أيها الموت! لو سحبت روحي عن جسدي وأبقيت لي مجالاً للحديث مع الأحياء، حتى لو كان عبر سماعة الهاتف، لما خفتُ كما أنا الآن من الموت ولما كانت لتوجد كل هذه الكراهية باهظة الثمن. لكن التعبيرية. ما الذي تعرفه عن التعبيرية؟ هل تعرف أنّ هذه المجلة عدوة للموت؟ تعني التعبيرية البيان، والبيان هو عدو الموت. إذن عليك أن تلتصق بأوراق هذه

المجلة حتى تبقى بعيداً عن الكراهية. إضافة لذلك عليك الذهاب مباشرة إلى الكنيسة وإيجاد قطعة ثياب ماريا. حين لا يستوجب الأمر ضياعي في كراهية كائن حقير، عليّ عدم ترك نفسي لأضيع عما لفت انتباهي. ولتعميم هذا الأسلوب، عليّ السير بإيمان في هذا الطريق وإخراج قطعة ثياب ماريا من بين العشب المتجمد. هكذا يمكنك أن تكون خارقاً أمام الكراهية منذ هذه اللحظة. أما الحب، فعليك يا داوُد أن تظهره. عليك أن تعلنه. أن تعلنه حتى تدرك بهار ابتعادها عنك. إن إظهار الحب في أرضية الكراهية هو علامة، حتى وإن كنت تخصّها بالحب. ولكنه بعيد عنها، وهذا الابتعاد المشهود يؤثر على بهار ويجعلها فارغة الصبر، ترى نفسها بعيدة، بعيدة عن الحبّ الممزوج بالكراهية الذي هو شبيه بلعاب يلوث جوهرة. بهار جبانة. كن مطمئناً. أن لا تملك جرأة مرافقتك في حب فهي كراهية. إنك أنت من يحبها ويريد ابتلاع الكراهية ليصبّها لها في فمها حُبّاً.

طعم الليمون، طعم الليمون مع الدخان طغى على صوت كاوة فرفع رأسه. وقف الرجل العجوز بجانبه وجدد له مرة أخرى كوب شايه. لم يكن في المقهى من أحد، ويظهر جليّاً خلوها من الرواد، زاويتها تبدو أبعد مما هي عليه في الأيام العادية. هزّ رأسه للرجل العجوز وأخذ حبة سكر رماها في فمه. إن سماع صوت كاوة أصابه بالعطش، وقد أضاف الدخان المتراقص في الهواء عطشاً على عطشه. وبينما كان يتجرع الشاي تحرك نظره جهة أسطر المجلة فتفاجأ مما قرأه وخاف. كان قد كُتب: «الميزة الأساس لعبور القرن التاسع عشر إلى القرن العشرين في أوربا كانت بتراكم الأساليب والحركات الفنية.

وهي ملغمة وغنية دون توجهات واضحة ومحددة». ألقى نظرة على المعطف وقال لنفسه هل أقلع عن خيال القرن التاسع عشر! أخاف أن يتسبب توجهي هذا للتعبيرية إلى أن أُجتث من كل شارع ورصيف حجري وعربة ومشي في طرق صقيعية؟ صحيح، كيف انحرفتُ من واقعية ستانسلافسكي إلى أسلوب التعبيرية الغريب هذا؟

مع هذه الفكرة وضع ورقة نقدية على الطاولة وخرج من المقهى. تملّكه إثر هذه الفكرة خوف من أن يقفز من هذا العالم إلى عالم داخلي وأن يُحبس في بناية مخيفة، غامضة وذات ظلال كبيرة. قد يعتاد، مثلما هو كاوة، على القلق وعدم النوم والسير في البازار. إن الفرق بينهما هو هذا. إنه يحتاج إلى شوارع النهار ويحتاج كاوة إلى الليل وممرات البازار الفاقدة لنور القمر ليضيء ما حوله أكثر.

- عليّ الذهاب إلى الكنيسة وإيجاد قطعة الثياب وسط الكراهية مهما تطلب الأمر لأوصلها إلى صاحبتها. هكذا أجلب انتباه ولطف الإله لي.

يبدو أنه قالها مع ريح مغبرة عالقة في البازار.

دخل في درب الورّاقين.

أقفلت ماريا باب المقهى وجلست أمام المدفأة وكانت تقرأ في كتاب (صديقنا المشترك) المشهد الذي جلست فيه ليزي مع أخيها شارلي بجانب المدفأة وهي تحدق في النار وتتحدث عن مستقبلها مع أخيها.

مدّت يدها لكتف شاب آخر وألصقت خدها على خده السمين بني اللون، وقالت فيما مازالت تنظر للنار: «شارلي، حين كنتَ ذات ليلة في المدرسة وأبي..».

قال الشاب وهو يهزّ رأسه جهة الحانة: «في الحانة ستة بحارين جذلين».

أردفت: «نعم. وكنتُ جالسة أنظر لألسنة النار من بين الفحم الحجري، كانت شبيهة بهذا الاحتراق حين تقذف الشرر..».

قال الشاب: «هذا هو الفحم وهو يستخرج من الغابة، وكان قد طُمر منذ طوفان نوح تحت وُحول الفيضان! وأنا كلّما أخذتُ سيخاً أحفرُ قدراً منه..».

قالت: «لا تقاطعني شارلي، فسوف أنسى كل شيء. أقصد هذه الشعلة الصغيرة التي تخفّت مرة وتكبر مرة. كلما نظرتُ إليها في الليل يمرّ كل شيء من أمام عينيّ مثل مشهد سينمائي».

قال الشاب: «أطلعينا على صورة. إلى علينا أن ننظر».

- آه! أعتقد يا شارلي..

- دعينا منه. حدّثينا الآن عمّ ترى عيناك فيها؟

- نعم شارلي. أنت فيها وأنا، حين كنتَ صغيراً ولم ترَ أمّاً أبداً.

قاطعها الشاب: «لا تكرري. لم أر أمي بعيني لأني عرفتُ أختاً صغيرة كانت أمّاً لي في نفس الوقت.

وهنا أغلقت ماريا الكتاب ولكنها لم تسحب اصبعها من بين الصفحات. جلست تنظر إلى نار المدفأة وأدارت رأسها بكل هدوء للباب فرأت داوُد يقف خلف زجاج الباب بوجه باسم لاصقاً قطعة ثيابها بزجاج الباب. تدفق الدم للحظة تحت جلد ماريا ونهضت راكضة للباب فيما نقوش الورود على قطعة ثيابها كانت تلتمع من خلف الباب، فتحت الباب وما أن همّ داوُد الدخول، حتى اختطفت قطعة الثياب من يده وركضت بها للمطبخ.

كانت الحركة سريعة جداً بشكل احتاج معه داوُد لحظة يفهم فيها ما حدث. وقف يستمع للصوت الصادر من المطبخ. مازال الباب مفتوحاً والعاصفة تداهم بين لحظة وأخرى. وضع المجلة في يده الثانية التي كان يحمل بها قطعة الثياب. أغلق الباب ثم أقفلها

ووقف بجانب المدفأة. ترك المجلة على الطاولة وانتبه إلى أن أصابعه كانت قد خلفت آثاراً على المجلة.

جاءه صوت ماريا: «كيف وجدته؟».

قال داوُد: «حالفني الحظ. كان نفس الحارس صديق قبة وقد سمح لي بالدخول، ورغم أنه رآني أبحث بين العشب فلم يمانع».

صاحت ماريا: «لماذا تقف هناك؟ هل أنت جائع؟».

قال داوُد: «كلا. أريد الحديث معك. قد أرتاح من هذا الحب وهذه الكراهية اللذين أوقعهما عليّ شخصان في نفس الوقت. بتُّ مثل بندول الساعة بين هذين الشخصين. هل تعرفين شيئاً عن الكراهية؟ فكرتُ كثيراً قبل أن آتي إليكِ. حين تكونين الآن أنتِ، فأنت جميلة وباهرة. ولكن حين رسم قبة وجهك كنتِ غاضبة. أليس صحيحاً؟».

قالت ماريا: «ولماذا أغضب؟».

تقدم خطوة وعاد مرة أخرى لمكانه: «حسناً لقد كان وجهُكِ متعكراً».

مدت ماريا رقبتها وقالت: «أُصبحُ أكثر واقعية حين أُعكّر وجهي».

قال داوُد: «حسناً. دعينا عن هذا». ثم نظر إلى الجدار وقال: «هل تعرفين ماذا أودّ لهذا المكان؟ أن يصبح حظيرة. حظيرة من تلك الحظائر التي في بطاقات معايدات الكرسمس والتي تظهر فيها

مريم مع المسيح. ألم تكن حظيرة؟».

خرجت ماريا من مخبئها ووضعت يديها على الطاولة ثم انحنت. ما زال الكتاب في يدها وإصبعها وسط أوراقه وكأنه ذريعتها الوحيدة لكي لا يتبخر الكتاب في الهواء: «أتريد رائحة الروث والتبن؟».

قال داوُد: «كل شيء. أريد الشعور بأنفاس الحيوانات على وجهي. أمسح مقدمات وجوهها. لا أعرف السبب. الحيوانات لها حياتها وهي حياة ثقيلة. ليتَ كاوة كان هنا. الحديث معه مخيف. إنه يصبح في لحظة مفاجئة خبيراً في الحظائر ويشرح لكَ أصعب أحاسيسكَ المعقدة. حتى أنه يفسّر لماذا أحنُّ في هذه اللحظة بالذات إلى أن أكون في حظيرة».

قالت ماريا: «أودّ الآن طيناً بالقش، ولكني أظنّ أن الإنسان يشعر في الحظيرة بالأمان. على الأقل هذا ما تُشعركَ به بطاقة المعايدة. إن تلك المواشي التي يُعتنى بها في الحظيرة لا تفضح سرّ مريم، كما أنها لا تفضح سري وسرك. الحظيرة مكان مناسب جداً للقاء المحبّين، وإن لم يكُ لقاءً فخماً. أنفاس الأبقار تخدّرك».

جلس داوُد على الكرسي وقال: «لماذا هربتِ راكضة؟».

أطرقت ماريا برأسها وقالت: «خجلتُ».

قال داوُد: «أحببت لو أني كنت قد وجدته في حظيرة. ولكن الوضع لم يكن سيّئاً جداً. فقد وجدتُه في كنيسة». وضع يده على جبهته كما لو أنه تذكر أمراً ما وقال: «ماذا كان دور الحظائر الاستراتيجي في

الحروب؟ كم من الجنود لجؤوا إليها ليتّقوا الموت فأُسعفوا بعيداً عن الأعين. هل يمكن تفسير صورة مريم والمسيح طبقاً لمفهوم الحرب؟ آه إن كاوة لمجنون، مجنون، لذلك تريد روكسانا أن تتركه».

قالت ماريا: «روكسانا؟ زوجته؟».

قال داوُد: «نعم. هي زوجته لكنها ومن فرط جنونه، لم تعُد تطيقه».

قالت ماريا: «أنا أحبّ رجلاً من هذا الطراز».

قال داوُد: «أنت تظنين ذلك. ولكنك بعد أسبوع ستصابين بصداع. عمّ يتحدّث هذا الكتاب؟».

قربت ماريا الكتاب وعرضت غلافه؛ صديقنا المشترك . قالت: «هل تريد أن تراه؟ ضع إصبعك هنا ولا تُضعها. لا أستطيع حفظ أرقام الصفحات».

اقترب داوُد وأخذ الكتاب من يدها ووضع إصبعه في نفس المكان الذي كانت ماريا قد وضعت إصبعها فيه. حرّكت ماريا ذلك الإصبع لكي يجري فيه الدم. همس داوُد: «تأليف تشارلس ديكنز. أزقة قذرة وموحلة وثياب متسخة. أحبها».

أعاد الكتاب إلى ماريا. فأعادت وضع إصبعها وسطه ثم تركته على الطاولة.

قال داوُد: «متى ستذهبين إلى قبة؟ الليلة؟».

هزّت ماريا برأسها: «موعدنا الساعة الحادية عشر».

استدار داوُد ناظراً للساعة وعضّ شفتيه: «حسناً. سآتي إليك. هل ستكونين في البيت؟».

قالت ماريا: «لا. لا تكلّف نفسك. سأذهب بنفسي. وإن كان..».

أصدر الباب صوتاً. التفت الاثنان. كان القادم هو الرجل المهيب. أسرع داوُد ليفتح الباب.

دخل الرجل المهيب وسلم عليهما: «يا شباب أنا ذاهب إلى طهران».

قالت ماريا: «لماذا؟».

وضع الرجل المهيب يده فوق المدفأة: «هناك شظية صغيرة في رقبتي يجب أن أخرجها. اتصل الطبيب بي وقال غداً صباحاً يجب أن تأتي إلى طهران. جئتُ لأودع ماريا. كم هو جميل أن أجدك هنا».

قالت ماريا: «هل تريد أن أرافقك؟».

قال الرجل المهيب: «لا، لا».

قال داوُد: «هل يمكنني أن أطلب منك طلباً؟».

قال الرجل المهيب: «تفضل. هل تحتاج إلى شيء؟».

أخذ داوُد الكراسة وفتحها على الفهرس وقربها من الرجل المهيب: «إذا وجدت هذا اطلب منه أن يعطيك كل ما يتعلق بالتعبيرية. جرّب هل سيعطيك إياه؟ وهو لو سلّمك إياها فهذا ممتاز. بعد انتهاء علاجك بالطبع اتصل على هذه المجلة». فجأة نظر

إلى ماريا وقال: «قد تكون توقعاتي عالية. أنت مسافر لإجراء عملية جراحية. ما كان عليّ أن أطلب مثل هذا الطلب».

قال الرجل المهيب: «لا يا عزيزي. ما هذا الكلام. هي عملية سريعة. اكتبي يا ماريا اسم المعنيّ ورقم الهاتف. بسرعة».

أخرجت ماريا ورقة وهي تحمل الكتاب ووضعتها على الطاولة. أخذ داوُد قلم الرصاص من يد ماريا وكتب بنفسه. سلّم الورقة إلى الرجل المهيب. طواها المهيب ووضعها في جيبه، ثم خرج.

وضع داوُد قلم الرصاص على الطاولة وقال: «سآتيك في الساعة الحادية عشر».

قالت ماريا: «آه لا. أنت بنفسك قلتَ لي إنك بتّ عاشقاً. قد يكون الأمر صعباً عليك».

قال داوُد: «أمرافقة فتاة أمر صعب عليّ؟ أنتِ مخطئة».

قالت ماريا: «يجب أن تنتبه لمن تحب».

قال داوُد: «لا. ليس بهذه الصورة. إذا كنتُ عاشقاً فأنا أعرف كيف أدير الأمور. أودّ أن أرى ما يفعله بوجهك. تكهّنتُ بشيء حين أخذك قبة إلى الكنيسة، وأريد أن أعرف هل كان ما توقعته صحيحاً أم لا». أنهى جملته واتجه إلى الباب. تبعته ماريا، وحين أغلق الباب قفلَته. عادت ماريا إلى مكانها السابق أمام المدفأة وجلست ثم فتحت الكتاب وحركت إصبعها.

لم يكن داوُد قد ابتعد. اتكأ على الجدار. ألقى نظرة للداخل. رأى

ماريا تقرأ جالسة. رأى المقهى خالية ومعزولة عن برودة الخارج، مملوءة بالهواء الدافئ والنور الوردي. وهو مع الكراهية التي رآها، بات يعرف قدر اللحظات، قدر اللقاءات. سمع صوت خطوات لقامة قصيرة. التفت فرأى كلباً يمر من قربه. لو كان في عالم رواية جيفاغو لعاش لحظة حبور. ولكنه الآن، مع أسلوبه الجديد المتعلق بالتعبيرية، تحول الكلب عنده إلى تعبير عما في داخله، وليس كلباً سائباً في شوارع القرن التاسع عشر في روسيا.

لم يعد كاوة إلى عيادة الطبيب. لأنه أمام محل حلويات ركس، رأى في ذراع امرأة إسوارة فتذكر روكسانا، وفكّر بأنها تبتعد الآن عنه، فيما يفكر أنه سيشتري لها أساور. تغلبت عليه هذه الفكرة ودعته لأن يعود من حيث أتى. من يراه قافلاً سيعتقد أنه عاد ليتبع المرأة. كان سوق الذهب قريباً. بيد أن الضوء الواقع من الأعمدة والمخلوط بالعاصفة الثلجية كان يروق لكاوة. رؤية وجوه الناس الضبابية والبخار المتصاعد مع أنفاسهم، وأحياناً رؤية صفائح فيها جمر بقرب الباعة الجوالين، كلها كانت تمنح الليل تموّجاً.

كان بازار الذهب مسقوفاً. شارع طويل يمتد من السوق القديم وتصل نهايته إلى سوق اللوحات. لا أثر للعاصفة هنا، وكان لون الهواء ما بين الأصفر والأحمر. المصابيح ذات الأنوار القوية ومصابيح النيون بين الدكاكين تلقي بدفئها ونورها على ما حولها. وعليه، فإنه منذ أن دخل البازار توقف الشتاء عنده. الأرضية منحنية قليلاً، ويعطي هذا مجالاً لأن يُرى حشد الناس النازلين من

الممر وهم يتجهون إلى كاوة. كانت الغلبة للنساء ذوات الشوادر، وكانت الشادورات الحريرية المنقطة باللون الفضي تلتمع. سار حتى وصل إلى واجهة دكان وُضعت فيه إسوارة حولها نقوش فلكية. دائرة بخطّ رفيع تحيطها عدة دوائر أصغر. تخيّل أنها لو كانت في معصم روكسانا لوصلت يدها إلى مركزية الشمس. كأنّ المعصم يجب أن يكون دائماً شمساً لتدور حوله الكواكب. للمرأة التي تريد هجرَه، كم سيكون تحوّل معصمها إلى شمس مشهداً معبراً جداً؟ أية ذكرى يمكن أن تصقل ذاكرته وترحل؟ هل هناك أمل في رجوع المعصم الشمسيّ؟ لا أمل. حين تكون هي الشمس، فهي أنّى ذهبت ستكون السماء منيرة. عليه أن يختار شيئاً آخر وإن كان مخالفاً لتوجهه، لأنّ في ابتعاد الجمال معرفة للكون، وإذا لم يكن ثمة من ابتعاد، فلن يكون للقرب من معنى. سار مرة أخرى. كان ينظر في وجوه الناس وفي الذهب والمجوهرات. يجب أن يشتري شيئاً يؤكّد العتمة. وقع نظره في لحظة على عقدٍ لؤلؤي أسود. تبدو الحبات فيه ملطخة بالسُخام. قال لنفسه هذا ما أبحث عنه. هذه الحبات هي الكواكب، وإن وضعتها حول رقبتها فستبقى مظلمة لأنها ستكون بعيدة عن الشمس. لن تعود الرقبة شمساً. وإذا كانت الرقبة شمساً فلن تتركها حبات اللؤلؤ لقربها منها. هذا تعبير جيد، فالشمس هي كاوة، وكل حبة بعيدة عن كاوة بالتأكيد ستقع في الظلام وفي العتمة. دخل الدكان وطلب العقد من البائع. امتدت يد البائع إلى مساحة الواجهة التي عُلّقت فيها المجوهرات والذهب، أصاب هذا المنظر كاوة بشعور ممضّ ولذيذ، مثل المغص الذي تُحدثه فكرة

ابتعاد روكسانا عنه، وأخذ هذا على أنه فأل حسن. عادت يد البائع حاملة عقد اللؤلؤ ووضعه على مخمل نبيذيّ اللون. سأل كاوة عن ثمنه ثم أخرج من جيب معطفه دفتر شيكاته وكتب المبلغ. وضع البائع العقد، والذي كان مثل أفعى تلتفّ حول نفسها، في صندوق مخملي أرجوانيّ وقال: «مبروك». ابتسم له كاوة وخرج.

كان يسير هذه المرة قاصداً الخروج من البازار فيما عيناه واقعتان على الواجهات. لم يعد الذهب يعني له «ذهباً». يبقى الذهب ذهباً حين تنوجد رغبة إنسانية فيه. حين كانت علبة اللؤلؤ في جيبه وهو يخرج من السوق كفاتح، كان ما رصف من ذهب في الواجهات ليس الآن إلا حفنة من الحديد اللامع. هكذا الأمر في يوم شتائي غيّر ماهية الأشياء. وصل إلى نهاية البازار ولفح وجهه الهواء البارد. سار بتسارع، وانتزع نفسه من بين النساء المرتديات للشادورات، وما أن وصل إلى الشارع حتّى رأى سيارة أجرة رفع لها يده ورمى بنفسه داخلها. قال للسائق: «اتجه إلى شارع الرسالة». وقعت عيناه على مدخنة كبيرة تقع فوق البازار. أغلق عينيه ليفكر بـ(الجدار). وعلى حين غرّة تذكر الرجل الذي رآه في المسلخ واضعاً أذيال الأبقار على كتفه. فوجئ من هذه الذكرى. لماذا يجب أن يحضر مثل هذا المشهد حين يكون عقد اللؤلؤ في جيبه وهو ذاهب إلى روكسانا؟

كانت الساعة تشير إلى العاشرة حين خرجت ماريا من الحمام. كانت في الحمام تفكر فيما لو كان الاستحمام سيغير وجهها لرسام سيرسمها مثل المجذومين فما الفائدة منه؟ ولكنها قالت في نفسها ليس كل شيء ماهيته الرسم، لأنّ الوجه يجب أن يدمّر في الرسم. إذن هو في الخارج أيضاً، وحسب السياق التدميري للرسم، سوف يسوّقه. كانت تضحك تحت الدُش. مادام هناك فيض من الوقت قبل الخروج فالاستحمام واجب. ومتى ما أراد رسم الوجه فقط وهو متسخ فهي ستترك الحمام، وحسب القضاء أنّ من تجلس لتُرسم لا تدخل الحمام، وعليها البقاء في المحلات والمتاحف التي فيها حمامات حيث النساء ينتظرن حلول الليل وانعدام المراقبين، فتدخل صاحبات الشعر الدهني منهن ليستحممن في حمام لا بدّ أنه ذو بُعدين، لكي لا تصدر في الصباح من أجسادهن رائحة للزوار، ولكي تكون الجزئيات دقيقة حين يُقربون اللوحة منهم.

مازالت المنشفة ملفوفة على رأسها، وكانت ترتدي ثيابها

حين رنّ الهاتف. رفعت سماعة الهاتف. كان المتصل قبة. بعد أن سألها عن أحوالها تطرق إلى داوُد وأنه اتصل وقال إنه لن يستطيع الوصول إلى ماريا حسب الموعد المقرر. سيصل متأخراً. وعلى هذا يجب أن تُوصل ماريا نفسها بسيارة أجرة وأنها إذا كانت لا تستطع فسيأتي قبة ليأخذها.

قالت ماريا: «سأحضر بسيارة أجرة. فهنا مركز المدينة والمكان مزدحم حتى وقت متأخر. لا تقلق عليّ. ولو اعترضني أحد أو وقع لي حادث سأكون لك ذات نفع أكبر. ألا تريد أن أكون أكثر واقعية؟».

أطلق قبة ضحكة عالية وأثنى على ذكاء ماريا. ثم ودعها ووضع سماعة الهاتف. استعادت ماريا الفكرة التي راودتها في الحمام عن وجهها المحطم واستحمام من سوف يُرسمن في المتاحف والإشارة التي قدمها داوُد عن أخيه كاوة، ولو أنه كان هنا لتحدث عن دور الحظيرة في الحروب مطولاً. وجدت في نفسها شوقاً لسماع تحليل كاوة عن أسلوب قبة في الرسم وهل استطاع هذا الأسلوب أن يتكون إثر الصدمة التي أصابته من هدم المسرح؟ مع هذه الفكرة أدخلت المقبس وشغلت مجفف الشعر وأخذت تجفف شعرها. كانت تحرك مجفف الشعر بكل هدوء بينما تغلي في رأسها فكرة الذهاب إلى قبة. ومع كل تمريرة لمجفف الشعر كانت تخرج شعرة خيال. في هذه الفترة الزمنية التي تعرّفتْ إبّانها على عدة شخصيات، أكان ذلك من قريب أو من بعيد، كانت ترفرف من السعادة. لن تعود تحيا مجرد حياة في بيت كبير لوحدها. صحيح

أنها كانت في البيت، ولكنها تشعر بوجودها عبر معرفة أشخاص، قبة وداوُد وأخوه كاوة. وصل بيتها إلى مرتبة المركزية التي يدور فيها آخرون حوله. حتى وإن ذهبت لعمل وكانوا غافلين عنها، لكنهم وبحجة ما، يريدون الطواف حول بيتها. الشعور المذهل هو أن تصل إلى قبة ويدمر وجهها. التأثير الكبير في أنّ عدم ارتداء ثياب جيدة معناه الدمار، جاءها عن طريق أمها حين كانت راهبة. العري هو الدمار. ولكي لا يختلّ قوامها عليها ارتداء الثياب. لكنها عاشت حياة تتيح لها معرفة اختلاف الستر عن العري، ولكي تصل إلى هذه النتيجة فإنّ التصرف يكون في نفس الجسد الذي يوصل إلى الدمار. وبالتأكيد فإن فرشاة قبة تشبه هذا المشط، مع كل سحبة منه يجر الشعر ويمنحها شكلاً. فليجرّ القلم جسدها وليغيره. لكن هل يمكن تحطيم الجسد بسهولة ليصل إلى واقعية أشد؟ كأن صليباً موثقاً على ظهور الجميع. الأيدي والأرجل فيه حسب المقاس. حتى وأن تدخلت الفرشاة لتخريب ماكياج حامل الصليب، فسوف تتدخل يد وتعيدهم إلى الصليب.

وصل داوُد منتصف الليل إلى بيت قبة. بدأ ثلج خفيف بالتساقط، وبات الذهاب إلى مشاهدة رسام يرسم مشهد مقابلة، ضرورة ملحة. في مثل هذا الليل، وفي وقت متأخر مع أناس فارين يُخّلُ برتابة هذه المدينة، هنالك مكان لحياة من نوع آخر، حياة مثل مشاهد غامضة وهمية تسيطر على المدينة. مثيلة لتلك الحياة التي تربك فتاة لوحة وتخفي كنيسة.

كان الباب مواربًا. دفع الباب ونادى أستاذ. لم يأته جواب. ألقى نظرة على الزقاق خوفًا من وجود أحد. لا يسمح الثلج برؤية شيء. دخل وأغلق الباب خلفه ونزع حذاءه ووصل إلى باب الغرفة فرأى الأستاذ يجلس وحيدًا ويحمل فرشاة. وما أن رأى وجه داوُد الحيران قال: «لقد رحلت ماريا. تطرقتُ أمامها لموضوع لم يعجبها فغادرت».

قال داوُد: «وما الذي قلته؟».

رمى قبة الفرشاة على الطاولة وقال: «لا شيء. قلتُ لها إن هذه

الحمامات التي ينصبونها على الأعلام هي مثال للفن السوقي. عمل مبتذل. قالت ليس لديك الحقّ لتقول مثل هذا الكلام. ورحلت».

قال داوُد: «سوف أذهب إليها الآن. ولكن بودّي معرفة السبب الذي دعاكما للذهاب في تلك الليلة إلى الكنيسة؟».

قال قبة: «آه. دع عنك هذا».

قال داوُد: «أريد أن أعرف. سوف أقبض على قلب ماريا. أخبرني لماذا أخذتها؟».

مسح قبة وجهه وفرك عينيه: «أردتُ إرجاع ذلك المسرح إلى ساحة الكنيسة، بدل أن ترجع هي».

قال داوُد: «ترجعها بماذا؟ هل ظننت أنه فيما لو اختفت الكنيسة وعدتَ مجدداً فتجد ماريا، فسوف تغير ذاتها إلى مسرح؟».

قال قبة: «نعم. نعم. مع الأسف هكذا كنتُ أفكر في الأمر. فكرة ساذجة؟».

ضحك داوُد عالياً: «آه. إن هو سوى مظهرك الذي يدل على كبر سنك. ممتاز. وأين ستذهب ماريا حين يحدث ذلك؟».

قال قبة: «ستصبح ماريا روح المسرح. ألا يمكن؟ كنتُ عبر الرسم أدّمر ما استقر في روح ماريا لكي لا تختبئ الروح خلف جسدها. لتخرج وتظهر نفسها. سحبُ الروح يقارن بعودة الكنيسة، تتأثر وتتبدل إلى مسرح. حينها يمكنني تقديم أعمال ستريندبرغ».

قال داوُد: «هل هو أسلوب اكسبرسيونزم؟».

صفق قبة بيديه من فرط هيجانه. قال: «اكسبرسيونزم. اكسبرسيونزم. أنا معقد منها، عقدة أن أخرج أعمال ستريندبرغ».

قال داوُد: «أنا سعيد لسماع هذا. أي تمهيد أسود! إذا كنت لست بحاجة لي فسأذهب إلى ماريا لأرى ما الذي ستقوله ولمَ خرجت غاضبة منك».

أخذ قبة نفساً عميقاً وألقى نظرة على لوحته غير المكتملة وقال: «اذهب لا حاجة لي بك».

خرج داوُد إلى الزقاق. اشتد تساقط الثلج. أُجبر على إنزال جفنيه للأسفل لكي لا يرشق الثلج عينيه. تذكّر مع رشق الثلج لعينيه والألم الحاد فيهما، الرجل المهيب الذي لا يهمه رؤية هذا الثلج والهواء الحامل له بقوة أفقية ضارباً الوجه. وصل إلى الشارع وهو مطرق الرأس. الشارع يخلو من السيارات وتحول نور أعمدة المصابيح إلى حبات تجلس على الشارع. اجتاز قناة ماء بحذر وأوصل نفسه إلى وسط الشارع، وبطريقة ما إلى المقهى حيث لوى رقبته وأغلق عينيه واستمع لصوت كاوة، هنا أيضاً لوى رقبته ورفع قبعة المعطف ولم يسر إلا خطوات حتى تناهى إليه صوت كاوة وملأ رأسه. تجلى كاوة في غرفته، نفس المكان الذي كان قد أنهى فيه رواية الدكتور جيفاغو، جلس تحت نور مصباح القراءة ووضع ساقاً على ساق واتكأ على الجدار وكان يكتب تأملاته عن لقائه مع الرجل المهيب. في أثناء الكتابة كان يقرأ بصوت عال ويتردد صوته في رأس داوُد: الرجل المهيب من صنف البشر الذين فتحوا أعينهم على العالم مرتين. كانت

المرة الأولى مثلما هو طبيعي ولدته أمه ووصل من ظلام الرحم إلى نور النهار. يمكن القول إن الشيء الوحيد الذي رآه هنا هو نفس النور. اعتقد في تلك الحالة، أنّ الشيء الوحيد الذي يُرى هو النور وليست الألوان والأشياء. ثم حين يعيش في هذه الحياة ويتجه إحساسه إلى المعرفة، يغفل عن النور ويتوصل إلى رؤية أشياء منيرة من قوة النور. ولكن، ولأنه حين كان صغيراً مازال يحمل الإحساس بالسديم، فهو ما أن يكبر ينسى، وبالتحديد لا يتمكن من تذكر ما الذي رآه في بداية تفتح العين. لو فكرنا بتأمل ودقة وعمق أكبر بالموضوع يمكننا القول أن الرؤية الأولية كانت رؤية نور فقط، كان غافلاً عن الأشياء الفانية في النور، وعلى هذا لم يرَ «شيئاً» ليتذكره. وهذه نهاية حديثي عن بداية فتح العين على العالم المشترك بين الناس والرجل المهيب عبرَ السرّ. ولنصل إلى فتح العين الثانية، ولو أردت الحقيقة لا يمكننا إطلاق تسمية فتح العين عليها. لأنّ العين المعروفة في العرف تلاشت ولا يمكنها فتح نفسها. إذن هل من الدقة القول «الرؤية مرة ثانية»؟ لا. حسب عقيدة الكاتب، يمكن إطلاق تعبير فتح العينين على الشخص الذي انتُزعت عيناه في الحرب. لماذا؟ لأنّ النظر في الأصل، حتى بالنسبة للبشر المالكين لأعين سالمة بمعنى النظر المرتبط بالعضوين الشفافين الشبيهين بكرتي البليارد التي اعتاد أطباء العيون وضعها في ملصق على جدران عياداتهم. لأنّه مثلاً في حديث الناس يستخدمون بكثرة مقولة «ضعْ يدكَ لترى»، أو «ذقْ لترى طعمه!»، أو «انظر أي عطر فواح!». كتب هذا أوغسطين في اعترافاته، وإن كنتُ قبل قراءة

هذه النقطة مع ما قرأته من ملا صدرا(*) توصلتُ إلى أنّ النظر أوسع من الشعور الذي تقدمه كرتا البليارد. ولكن بما قرأته عن أوغسطين توصلت إلى أنه ليس الفلاسفة وحدهم على دراية بهذا الأمر، بل عامة الناس أيضا يدخلون النظر في التذوق والشم واللمس. إذن حين يقول شخص ضعْ يدك لترى، فهو في الواقع يقول إن اليدين عينان تريان. ولكنهما عينان لا تركضان على طاولة البليارد بل تقبضان على رأس خشب البليارد. أو حين يقول أحدهم تفضل ذقْ لترى، فهو في الحقيقة يقول إن في أعماق اللسان عينين. نصل إذن إلى هذه النتيجة؛ إنّ الرجل المهيب في المطار البيلاروسي فتح عينيه مرة أخرى. بيد أن عملية فتح العين الثانية فيه فرق مهم مع فتح العين الأولى، فهو فتح عينيه «جهة جمال النساء» من تأثر الضغط الواقع عليه من جانب روحه تجاه جمال النساء. فتحُ العين هذا أقرب فتح عين على تعاليم بيركلي، الفيلسوف البريطاني، وهي أننا نرى الأشياء «في الله».

سمع داوُد صوت مزمار سيارة بعيد. كأنّ كاوة صمم من هذه اللحظة، وبصوت مزمار، أن يقرأ ما يكتبه. المزمار تكرر وبات أقوى. رفع رأسه فرأى شاحنة تقترب منه. تدخل الشاحنات إلى المدينة عادة بعد منتصف الليل. أو، ولكي لا يطول عليها الطريق، تدخل في الطرق المختصرة لإنزال حمولة. كانت الشاحنة تضيء بالنور العالي وتسير وسط الشارع. ابتعد داوُد عنها وسار على الرصيف فوجد نفسه أمام دكان لغسل الثياب، رجل عجوز بلحية

(*) ملا صدرا محمد بن إبراهيم القوامي الشيرازي (٩٨٠هـ - ١٠٥٠هـ / ١٥٧٢م - ١٦٤٠م). جمع بين الفلسفة والعرفان ويسمى الحكمة المتعالية.

بيضاء جالس في الدكان وكان يورق صحيفة. كانت مغسلة الثياب في حالة عمل وكان واضحاً للعيان مشهد الثياب المبتلة وهي تدور من خلف الزجاج. كانت الرغوة تملأ واجهة زجاج غسالة الثياب، وكانت حين تدور على نفسها تنزل الرغوة. قال لنفسه: «اللعنة عليك يا كاوة. لقد أفسدت دماغي بكلامك هذا. أغرب عن وجهي». ثم تذكر فجأة لماذا خرج في هذا الوقت من الليل إلى الشارع وقال لنفسه: «عليّ الذهاب إلى ماريا قبل أن تنام. ومن الممكن أنه يجب البحث عن لارا الآن». وتحرك.

حين ضغط على جرس بيت ماريا، لم يعد ممكناً تمييز لون معطفه. بات كله أبيض. ضغطت ماريا على زرّ فتح الباب دون أن تسأل من الطارق. دفع داوُد الباب ودخل فرأى ماريا تنظر من خلف النافذة. وما أن رأت أن القادم هو داوُد، تركت الستارة وعادت إلى ما كانت تقوم به. أغلق داوُد الباب ونزل عدة درجات ووصلت قدماه إلى أرضية مغطاة بالثلج البكر. رأى من النافذة ماريا وهي تكوي الثياب. هل كانت المكواة مساعدة تاريخية جيفاغوية صنعها في ذكرياته كعلامة للهروب من الكراهية التي ستأتي إليه ظهر الغد؟ سار على الثلج وصعد الدرج الثاني الموصل للغرفة وضرب حذاءه عليه ليسقط الثلج. أزاح بيديه العاريتين الثلج عن معطفه. حين دخل صفعته رائحة الصوف مُخرجة إياه من رائحة الثلج، قال بصوت عال تسمعه ماريا: «لماذا أتيتُ؟ لمواساتكِ لأنّه لم يكن هناك من ساعٍ لأرسل معه رسالة لك، كان عليّ المجيء. لن أسمح بتحول الليل إلى كابوس أسود ممتزجاً بغضب امرأة!».

قالت ماريا دون أن ترفع رأسها: «لست بحاجة إلى مواساة. تجد ورقة على الطاولة. اقرأها. كنتُ غاضبة من الأستاذ وكتبتها. ولو كان فيها خطأ إملائي فسامحني».

تلقى داوُد جملتها كعاطفة منحته قوة وإن كان لم يرَ بعدها قبة رغم فضل المعطف. في هذه الدقائق الليلية وهذا الثلج الكبير هناك دعوة من فتاة لقراءة ورقة كتبتها لأمر يُسمع! أوصل نفسه ببضع خطوات إلى منضدة ذات مرآة ورأى نفسه في المرآة يصل بيده إلى الورقة، كم هو وقر وأكنز من المعنى، اقترب من الورقة وراح يحملها بكل هدوء، لامساً إيّاها بيدين «أعماهما» البرد. رأى كل ذلك ووقف يقرأ. حين قرأ العنوان «هي راهبة!» لم يفهم. استلقى بجانب المدفأة وأغلق عينيه.

توقفت ماريا عن الكيّ وانحنت مستندة على يدها بقرب وجه داوُد وقالت: «هل أنت بخير؟».

ودون أن يفتح عينيه قال وابتسامة تدور تحت جفنيه: «أنا بخير. غير أني تعبتُ من هجمات الأفكار. دعيني أخلي عقلي قليلاً في السكوت. أكملي الكيّ. أودّ سماع احتكاك الحديد بالقماش».

نهضت ماريا قلقة تنظر إلى وجه داوُد، حملت المكواة وكوت الثياب.

فتح كاوة الباب ووجد روكسانا جالسة مع حقيبة معدّة ومغلقة. أطبق كاوة الباب بسرعة حتى لا ترمي العاصفة الثلجَ على روكسانا. نهضت روكسانا. ارتبك كاوة وأخرج من جيبه العلبة المخملية ووضعها أمامها.

قالت روكسانا: «ما هذه؟».

قال كاوة: «هدية. شعرتُ بأنكِ ستتركينني فقلت لنفسي، ولكي أبني جداراً بيني وبين الغضب الذي من الممكن أن أدخل في نوبته، فلأشترِ هدية. لا يمكن للإنسان حين يمنح هدية أن يكون في نفس الوقت غاضباً. وعلى هذا أنا الآن أتشبث بأذيال الهدية لكي لا أغضب عليك. تعرفين جيداً لو غضبتُ ..».

تسارعت أنفاس روكسانا وكانت خائفة من اليد التي امتدت لها. أخذت العلبة متوجسة وابتلعت ريقها: «لن أقوم بعمل يغضبك. ما أريده فقط الابتعاد عنكَ لفترة. لن أذهب بعيداً. في نفس المدينة، قرب بداية النهر، هناك مكان قريب من عملي».

قال كاوة: «ليس لدي أي تعليق. توقع ليس في محله أن تنتظري حتى أنهي مقالتي. لا أتوقع منكِ ذلك. لكني أحبكِ. تعرفين».

فتحت روكسانا العلبة وأخرجت عقد اللؤلؤ بإصبعين، ونظرت له وهو معلق في الهواء. لمعت عيناها: «كم هو جميل. جداً!».

أعادته لمكانه في العلبة ثم وضعتها في جيبها: «إنها ليلة ثلجية جميلة للرحيل».

فتح كاوة الباب ونظر للخارج: «نعم. حين يهجم الثلج هكذا لا نتخيل أن هناك رحيلاً في الأفق. هكذا سأشعر بالاشتياق بدرجة أقل».

قالت روكسانا: «قد لا تشتاق أبداً».

قال كاوة: «سأفعل. ولكن على الله أن يبعدني عن مثل هذا الاشتياق».

وضعت روكسانا وشاحها على فمها وقالت: «في أمان الله». وعبرت من بين كاوة والباب ثم خطت في الثلج. لم تكن حقيبتها ثقيلة. وقف كاوة يتابع رحيلها. توقفت روكسانا للحظة وعادت. أنزلت وشاحها.

رفع كاوة يده وحركها. لأي معنى؟ لم تهتم روكسانا، نظرت إلى السماء وأعطته ظهرها ثم سارت على الثلج مرة أخرى. أطرق كاوة برأسه وحكّ جبهته وأغلق الباب وتبع روكسانا.

مع سماع روكسانا صوت أنفاس كاوة التفت ونظرة إليه متسائلة.

قال كاوة: «دعيني أتمشى معكِ قليلا. لنتحدث ولأحمل عنك. لا يطاوعني قلبي على تركك في هذه الحالة».

ضحكت روكسانا. قالت: «لا تتحجج يا رجل».

أخذ كاوة الحقيبة منها. احتكاك اليدين ببعضهما كان شرارة بداية حوار. سار كاوة وقال: «أطلب منك أن تقولي لي لماذا أنتِ راحلة؟».

قالت روكسانا: «لماذا تسأل؟ ألم يكن من المقرر عدم تفسيره كفاجعة؟».

قال كاوة: «لم أفسّره كفاجعة. أريد فهم مكاننا الحالي لا غير».

أدخلت روكسانا يدها في جيبها وأخفت رقبتها في الوشاح وسارت خطوات. كان صوت خطواتهما على الثلج مبدأً للصمت. قالت: «أنت لا تهتم بذاتي، بشخصيتي».

قال كاوة: «لطالما كنتُ أمتدحكِ».

هزّت روكسانا برأسها وقالت: «ما الذي امتدحته فيّ؟ جمالي؟ حُسن معاشرتي؟ هذه كلها صفاتي ولست أنا».

ضحك كاوة بصوت أجش: «فهمتُ».

قالت روكسانا: «فلأصارحك. لا تسمح لنفسك حتى الآن أن

تواجهني. لأنكَ ذكي، تتجه بإشارة إلى الهدف مباشرة ولا تترك لي فرصة لأوضح لك. دائماً ما كان صوتي عندكَ مطفأ».

قال كاوة: «اعذريني. ما كان عليّ مقاطعتكِ. تفضلي».

قالت روكسانا: «قصتي معكَ هي أن تجربة حياتك كانت ثقيلة. لهذا أعجبتُ بك. كنتُ أتابع كتاباتكَ واشتقتُ لأن أراك، وفي النهاية تجرأتُ وأخذتُ رقم هاتفك من المجلة واتصلت. كنتُ أحبّكَ لأعوام، وفي أول لقاء معكِ ارتجفت من الشوق. رأيتُ أمامي رجلاً يحمل ملامح شابّة وروحاً محفوفة بالأسرار. حتى حين قلتَ إنك لست أهلاً الزواج، فقد رأيتَ كيف ضحكتُ. لأني أردتُ مساحة أكون فيها، والزواج كان يقلل من احتياجاتي. لكن حسناً، منذ اللحظة الأولى التي رأيتُكَ فيها عرفتُ أنكَ لن تتأثر أبداً بشخصيتي. في نفس اللقاء الأول، وعلى حدّ تعبيرك، امتدحت جمالي. قلتَ إنّ جمالي بريٌّ ومحترم. هل تذكر؟ قلت إن لديّ وجه أصيل ولكن يمكنني التحول في لحظة إلى فتاة بريّة. كل ذلك صحيح. بيد أني أحببتُ حين تكون معي، أن ترى شخصيتي. أن ترى روحي. كان عليك أيضاً، رغم الحياة التي عشتَها، أن لا ترى. ولماذا عليك أن تنتبه. الشيء الوحيد الذي ينقصكَ هو جسدي ووجهي، وهي أنوثة كنتَ تمتدحها».

سكتت روكسانا وبقي كاوة يسير بجانبها، ومن الواضح أنه كان يستمع للضغط الواقع على الثلج غير معتنٍ بكلامها. قال: «أكملي. أنا أستمع».

ضحكت روكسانا: «هذا كل ما في الأمر. تعبتُ من وجودي بجانبك بصفة نسائية. أريد أن أكون امرأة ترى شخصيتي وتتواصل معي».

قال كاوة: «قلتِ كل ذلك ولكن روكسانا لا أستطيع العيش من دونكِ. لست بحاجة إلى ظواهر وصفات نسوية. الأمر أكثر جدية من إمكانية التعبير عنه. حاجتي هي لك. ولكن ذلك اللقاء الأول هو ما منحكِ هذا الشعور، وقد كان مفاجِئاً. تعرفين أني حساس بالنسبة للمفاجأة. لأنّك جئت فجأة وعبرّتِ عن شعوركِ فصُدمتُ بحالة لم تتركي لي فيها أن أتبيّن، وحسب تعبيرك، سوى صفاتكِ. جاءت صفة كأنها كانت معلقة، وحاورتني دون أن يكون لها جوهر. وهل يمكن إنكار أن شخصيتكِ هي ما سحرني؟ يا عزيزتي كل الأحداث التي لدي ما كانت لتكون دون دعمكِ. خاصة الخوف الذي أُصاب به في الليالي. تعرفين أحياناً أني أُنيمكِ وأخرج لأزور محافل المجانين، لقد كان ذلك بقلب استمد قوته منكِ. صدقيني، هذا أقصى ما يمكنني قوله أمامك. هل هذه الحاجة لك والاتكاء عليكِ هي مجموعة صفات أم هي ذاتكِ؟ من الظلم أن تقولي إني لا أراكِ. أرجوكِ لا تقولي هذا. رُكسان، كان من المفترض أن تفهميني أكثر».

قالت روكسانا: «أفهم. أفهم. ولكن عليّ أن أبتعد لأفهمك. القرب منك لا يتيح لي أن أفهمك كثيراً. لا جدوى من الكلام. ما الذي تريده مني؟».

توقف كاوة ونظر إلى روكسانا، كان ليس سوى عينيها ما يظهر له: «عودي معي للبيت. سوف أنكسر لو عشتُ ليلة بدونكِ. لقد تركتُ كتابة المقالة. وعقد اللؤلؤ هذا دليل على صدقي».

أبعدت روكسانا عينيها عن كاوة. وقفا وكان الثلج يتساقط على لحية كاوة. قالت روكسانا: «ألا تتركني أبتعد عن البيت وأسير قليلاً في الثلج؟ سأعود لا تخف».

قال كاوة: «حسناً. سآخذ إذن حقيبتكِ معي».

قالت روكسانا: «هل تعرف ما أحب؟».

قال كاوة: «ماذا؟».

قالت روكسانا: «لم أعبّر جيداً. لا أريد شيئاً. ما أريده هو أن تعرف شعوري. دعني أكلمك مثل داوُد. ليس التخيل سيئاً لإيصال فكرتي. أنت بالنسبة لي هكذا. راكب على فرس ومن شدة التعب غفوتَ والفرس يسير في نهر ليس بعميق. يسير تيار النهر عكس حركة الفرس. والفرس يجر خلفه بدلاً من عربة، قارباً أنا جالسة فيه مع ثلاث حقائب فيها كل حياتي. لقد اجتثثتُ من عائلتي، والأمل والاحتياج الوحيدان هما البقاء معك. ولكنك غفوتَ ولم تلتفت لتلقي نظرة عليّ وتسأل عني. وأنا أخجل من أن اناديكَ. لا أريد إزعاجك. أقول هو تعِب ربما، لكنك بالتأكيد سعيد بحركة الفرس. جلستُ أنتظر فيما أُجرّ خلف الفرس بهدوء».

أخذ كاوة نفساً وقال: «روكسانا، سامحيني يا عزيزتي. لقد أسأتُ إليكِ».

وضعت روكسانا يديها على عينيها. لم تقل كلمة.

قال كاوة: «الغفوة الطويلة انتهت في هذه اللحظة يا عزيزتي».

أكملت روكسانا طريقها ودخلت في الثلج.

نظر لها كاوة حتى تحولت إلى ظل ولم يعد يراها. حمل الحقيبة في يده الثانية وعاد للبيت.

أنهت ماريا كيّ الثياب وأطفأت المصابيح المعلقة بالسقف لكي لا تؤذي عيني داوُد. اقتربت من داوُد الجالس بين الظلمة والنور وركعت لتسمع أنفاسه. لم يكن هناك أثر للاحتكاك. وحده حفيف ثوب ماريا الباقي من الحركات الخفيفة، وهي حين جلست اختفى. مسحت شعر داوُد خائفة. همست: «هل أنت مستيقظ؟». تغيّر لحن أنفاس داوُد. أخذ نفساً عميقاً وقال: «أنا مستيقظ. ليتني لا أعود إلى كاوة. أنا أخاف منه».

قالت ماريا: «ابق هنا».

قال داوُد: «لا أريد تعذيبكِ معي. جئتُ لكي أعيدكِ إلى ورشة قبة. ولكن مع قراءتي للورقة تراجعت عن رأيي. دعيني أقضي الليلة هنا. لا أريد إجبارك على تقبّل شخص لا ترغبين فيه».

قالت ماريا: «أنت لم تتناول عشاءك. سأسخن لك الطعام. انسَ ما دار بيننا من كلام». ثم نهضت متجهة إلى المطبخ.

أغلق داوُد عينيه. ودون أن يدع فكرة تخطر على باله صار ينصت لأصوات الأواني الآتية من المطبخ. ملعقة تصدم صحناً فيخدش الصوت الهواء. ثم صوتٌ هادر لمقلاة على الموقد، فصوت فلفل أو ملح يُرش. هل سيُهدهَد الآن أم لا؟ صوت سائل تصيبه الحرارة. كأنه حساء. أخذ الورقة التي كتبتها ماريا مرة أخرى. إنها من النصوص التي يجب أن تقرأ مائة مرة.

نعم، لمسُ قطعة الثياب التي ضاعت في الكنيسة مع هذا النص الأقرب للسر، أكثر من وجهة نظر عن قيم أحكام قبة عن فن الابتذال، كانت كلها تقرّب داوُد من ماريا وتبعده حين تخطر ماريا في ذهنه. لم تعترِه هذه الحالة مع بهار. الحد الأقصى مع بهار أمران: الحب والكراهية. فما بالك بجلوس الاثنين إلى جانب بعض لعدة مرات. ولكن أن تكون راهبة في أعلى رتب التعالي ومقدسة في مقام كاتبة لمثل هذا النصّ في نفس وقت ضياع قطعة ثياب محرمة في الكنيسة؛ لهو أمر يكسر كل قرينة تربط بعضهما بالبعض.

عاد كاوة إلى البيت ودخل غرفة داوُد واستلقى بجانب المدفأة. وفجأة تذكر البازار، وهو اتباعاً لعادته يجب أن يكون جالساً هناك في مقهى الحمير. كان يعرف شخصاً خبيراً بالسجاد كانوا لو أرادوا تحديد سعر سجادة فإنهم يستعينون به. لكنه في حاجة إلى أرجيلة لا يقدم خدماته دونها.

يضع في جيبه تبغاً مبللاً ويخرج من الغرفة حاملاً الأرجيلة. هو في النهار يخلّف دخاناً في طريقه، وإذا كان الوقت ليلاً فهو يرى من بعيد رأس الأرجيلة المحمرِ مرة والخابي مرة سائراً في جسد البازار. وهو لو انطفأ جمر فحمه فسوف يأخذ الفحم من دكاكين الكباب في الطريق. تذكّر إثر حديثه مع روكسانا تحت الثلج، خبير السجاد الذي كان يدعو كاوة إلى متابعته، ذهب فوجد مكانه فتاة أنيقة جالسة تحتضن عشّ حمامة وهي تسير. في العشّ بيضتان ترقد عليهما حمامة. وبين حين وآخر يحلق الذكر مقترباً ومبتعداً ليلقي نظرة. وهي طوال هذه الفترة مثل خبير السجاد، لا تضع العشّ على الأرض بل تأخذه

معها إلى البازار، ورغم كل هذه الحركة لا يضيّعها ذكر الحمام. حتى حين تذهب إلى المرافق ويتناهى منها صوت سقوط سائل خفيف، يجدها. الآن تتصل البيضتان بعقد اللؤلؤ وبالمرأة التي تسير تحت الثلج. ينتظر كاوة مثل هذه المرأة.

نفخ أحدهم في عينيه. النفخة تحمل رائحة فمّ، ليس فماً لامرئ استيقظ من النوم تواً بمعدة خاوية. فمّ تتكسر الضحكة عليه لكي لا تصدر صوتاً. الفم الذي لم يُقبّل قطّ. الفم الذي ينفخ الهواء الدافئ في عينيه. تحرك جفناه. قال الفم: «ألا تريد الاستيقاظ؟». قالها بمودة.

فتح عينيه. ماريا بوجه محمر إثر هجوم الدماء على قمة رأسها المحني، وبابتسامات تنثرها على حاجبي داوُد. قالت: «دخل علينا الظهر».

قال بصوت مخدوش: «لماذا لم تذهبي إلى العمل؟ أمن أجلي؟».

ذهبت ماريا إلى النافذة وسحبت الستار وقالت: «إلى أين أذهب مع كل هذا الثلج ؟».

رفع داوُد رأسه وبعينين نصف مغلقتين حاول أن يبقي نظره للخارج. لم يستطع. ضرب الثلج عينيه. اعاد رأسه مرة أخرى للوسادة وأغلق عينيه اللتين كانتا تؤلمانه. سألها بصعوبة: «كم بقي حتى تحلّ الظهيرة؟».

ضحكت ماريا. أشارت بإصبعها للخارج وقالت: «مرت ساعة على دخولنا فيها. هل للظهيرة من معنى وسط هذا الثلج وهذه الغيوم؟ كأنّا مدفونون تحت الغيوم. مقطوعين عن الدنيا».

أضيء السقف بنور أبيض لامع. الحالة شبيه بانعكاس نور الثلج على السقف. خرجت ماريا من الغرفة: «سنخرج معاً لو كنت ستخرج. مع كل هذا الثلج أعتقد أن المدينة معطلة».

نهض داوُد وبنظرة على الأثاث المحيط به وقع نظره على قطعة الثياب التي رمتها ماريا في الكنيسة. بنفس تلك الورود والأوراق الصغيرة. تماوجت سعادة مفاجئة بقلبه مع رؤيتها. لقد تخفف من شيء. تخفف من الحمل الذي كان يقبع على كاهله منذ البارحة.

تناهى إليه صوت ماريا: «فطورك جاهز».

سار مهتدياً بلمس الجدار إلى الصالة ولم ير ماريا. رأى كوب شاي يصعد منه البخار. رأى بقرب الكوب إبريقاً وسكرية عليها رسوم أوروبية. قطع السكر تلتمع. اقترب وتجرع من الشاي ليتحسن صوته.

جاءه صوت ماريا: «إذا لم يكن لديك عمل في الخارج فابق هنا. سوف أذهب وأعود بسرعة. عليّ الحديث مع محاميّ».

نظر إلى الثياب المرتبة على الأريكة: «أنا آت أيضاً». وبدأ بارتداء ثيابه. يبدو أن الثياب غريبة على جسده. كأن قماش القميص كان من صمغ يخدش الرقبة. تفوح من بقية الثياب رائحة مكواة. رائحة

حديد حار على صوف أو حرير. في أثناء الارتداء، كان يشمّ أكمام القميص. كانت ماريا قد كوت الثياب وجعلتها صلدة كالحديد.

اتجه إلى الباب ولبس حذاءه. كان حذاءً برقبة تصل إلى الركبة. وضع رجله في الثلج. ظهرت ماريا في الباب بجاكيت وتنورة ولبست حذاءها وهي تضحك. عبر داوُد من وسط الساحة بجانب الأشجار التي كانت قباباً من الثلج وفتح الباب. سمع صوت صهيل. أغلقت ماريا الباب ووضعت رجلها على أثر خطوة داوُد الكبيرة وأوصلت نفسها بسرعة إلى باب ساحة البيت. حين دخلت الزقاق رأت داوُد جالساً في العربة ينتظر أن تجلس بجانبه. أظهر انتظاره بحركة من يده. أمسكت ماريا بيدها المرتدية قفازاً يدَ داوُد وصعدت درجات سلم العربة وجلست بجانب داوُد. ضرب سائق العربة أكفال الخيول المغطاة باللبد فسارت بأنوفها البخارية الشمّاء. في الثلوج الكثيفة لا تطرق الخيول حوافرها ولا يُسمع صوتها. وحده المدينة صوت الأجراس ترنّ مع كل خطوة منها. وقبل أن يضربها بياض المدينة ألقى داوُد على المكان بنظرة. ضغط على يد ماريا. التفت لها فنظرت لوجهه. أشارت ماريا بحاجبها للخارج. نظر داوُد حيث أشارت فرأى بناية بأعمدة عالية تحيط بها سلالم تتيح الوصول إلى عتبة الدخول. سألها بحركة حاجب وشفة أين، قرّبت ماريا فمها منه وهمست بشهوة: «يا عزيزي، هذا هو المسرح».

(لم أعبّر جيداً. لا أريد شيئاً. ما أريده هو أن تعرف شعوري. دعني أكلمك مثل داوُد. ليس التخيل سيئاً لإيصال فكرتي. أنت بالنسبة لي هكذا. راكب على فرس ومن شدة التعب غفوتَ والفرس يسير في نهر ليس بعميق. يسير النهر خلاف حركة الفرس. يجر الفرس خلفه بدل العربة، قارباً أنا جالسة فيه. مع ثلاث حقائب فيها كل حياتي. اجتثثتُ من عائلتي والأمل الوحيد والحاجة الوحيدة هما البقاء معك. ولكنك غفوتَ ولم تلتفت لتلقي نظرة عليّ وتسأل عني. وأنا أخجل أن اناديكَ. لا أريد إزعاجك. أقول هو تعِب، بالتأكيد أنك سعيد بحركة الفرس. جلستُ أنتظر وأُجرّ خلف الفرس بهدوء).

***

يكتب كربلايي لو خلافاً للتيار الروائي المعاصر في إيران، وهو في حالة بحث دائما لصناعة نصه، وهذا ما يجعله مغايرا. وإذا ركّزنا على جملة "أداء دين للأدب الروسي"، سنجد الجنون الذي تعمده الكاتب في الشخصيات لتتشابه لحد كبير في الصياغة مع الجنون الذي تعمده دوستفيسكي مع شخصياته خاصة في رواية "الأبله".

د. حميد عبداللهيان، ناقد وباحث إيراني

مرتضى كربلايي لو

جهة العربة

منشورات تكوين
TAKWEEN PUBLISHING

9 789921 723175

www.takweeen.com | Publishing@takweeen.com